المملكة الأردنـــــية الهاشـــــمية

وزارة التـعليـــم العـــــــالي

جامـــــــــــعة اليرمـــــــوك

كلية الآداب- قسم اللغة العربية وآدابـها

هَـارونُ الـرَّشـيـدِ فـي الـشعـر الـعـبـاسيّ

Image of Harrun Alrashid in the Abbasid poetry

رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الدكتوراه ، في قسم اللغة العربية وآدابها، بكلية الآداب في جامعة اليرموك

نوقشت هذه الأطروحة وأجيزت، بتاريخ 2016/8/10م

إعداد:

الطالبة زينب إبراهيم عبد القادر ربيع

2009200032

إشراف:

الأستاذة الدكتورة مي أحمد يوسف

الفصل الصيفي

2016/2015م

بسم الله الرحمن الرحيم

هَارونُ الرَّشيدِ في الشعر العباسي

Image of Harrun Alrashid in the Abbasid poetry

إعداد:

الطالبة زينب إبراهيم عبد القادر ربيع

أعضاء لجنة المناقشة :

اسم الدكتور/ة	الجامعة	التوقيع
الأستاذة الدكتورة مي أحمد يوسف ـ مشرفة ورئيسة ـ	جامعة اليرموك	.....
الأستاذ الدكتور يوسف أبو العدوس ـ عضوًا ـ	جامعة اليرموك	.....
الأستاذ الدكتور يونس شنوان ـ عضوًا ـ	جامعة اليرموك	.....
الأستاذ الدكتور موسى ربابعة – عضوًا ـ	جامعة اليرموك	.....
الأستاذ الدكتور قاسم المومني ـ عضواً خارجياً ـ	.....	.....

المحتويات

الإهداء.....و

الشكر والتقدير.....ز

الملخص باللغة العربية.....ح

الملخص باللغة الإنجليزية.....ط

المقدمة.....1

التمهيد.....6

الفصل الأول:

البعد القِيَميّ لصورة هارون الرشيد في عيون شعراء.....20

المبحث الأول: صورة البعد القيادي والوظيفي للرشيد 21

1- مدح الرشيد القائد.....21

2- صورة مدح الرشيد في الجانب الوظيفي.....37

المبحث الثاني: صورة البعد الاجتماعي والإنساني للرشيد 49

1- التقوى والزهد عند الرشيد.....49

2- صور من العفو والتسامح عند الرشيد.....58

3- صور من البذل والعطاء عند الرشيد.....63

4- صور من الأنس ببلاط الرشيد.....68

الفصل الثاني:

البعد الفني لتشكل صورة الرشيد في عيون الشعراء.....72

المبحث الأول: مفهوم الصورة الفنية وتشكلها.....73

المبحث الثاني:موضوعات صور الشعراء ومضامينها.....97

1- صورة الرشيد وتوليه الخلافة.....97

2- صورة الرشيد دبلوماسيًّا.....105

3- صور من تعزيز الرشيد للعلم والاهتمام بأهله.....119

4- الرشيد وصور الوعظ.....124

5- صورة الرشيد وإجارة الغريب.....136

6- صور من سياسة الرشيد مع الرجال من حوله.....154

الفصل الثالث:

البعد الخيالي في توليد صورة الرشيد عند الشعراء.....159

المبحث الأول: الصورة الخيالية ذات البعد التجريدي.....161

المبحث الثاني:الصورة الخيالية ذات البعد الحِسِيّ.....175

الفصل الرابع:

دراسة أسلُوبيّة فنّيّة لصورة هارون الرّشيد في قَصائد الشّعراء..... 187

مدخل(مع الأسلوبية منهج ودراسة).....188

أولا: تحليل قصيدة أبي العتاهية [خانَكَ الطَّرفُ الطَّمُوح].....190

ثانيًا:تحليل قصيدة أبي نواس [حَيِّ الدّيارَ إذِ الزّمانُ زُمانُ].....203

ثالثًا:تحليل قصيدة علي بن الخليل[يا خيرَ مَن وَخَدت بأرْحُلِه].....220

الخاتمة.....233

المصادر والمراجع.....237

الإهداء

إلى أبي وأمي وزوجي وأبنائي وأهلي جميعًا

الـشكـر و الـتـقـديـر

إلى أستاذتي الفاضلة المشرفة على الأطروحة

الأستاذة الدكتورة مي أحمد يوسف يحفظها الله

وإلى كل من له بصمة على أطروحتي

الملخص باللغة العربية

هارون الرشيد في عيون شعراء العصر العباسي

إعداد: الطالبة زينب إبراهيم عبد القادر ربيع / إشراف: الأستاذة الدكتورة مي أحمد يوسف

ارتبطت صورة هارون الرشيد بتوجّهات الشعراء في العصر العباسي، وتنازعت عليها أهواؤهم، انسجامًا مع مظاهر الحياة العباسية في عهده، والتي فرضت نفسها على الشعراء سواء الحياة السياسية، وما كان يجري فيها من نظم وأحداث مختلفة، أو الحياة الاجتماعية وما كان يشيع فيها من تحضّر وترف وشغف بالغناء وإغراق في المجون والزهد، أو الحياة العقلية وما نتج عنها من نشاط لحركة العلوم والآداب.

وكشفت هذه الأطروحة عن صورة الخليفة هارون الرشيد في أنظار شعراء عصره، وما اختمر بوعيهم الفني من عناصر تشكيل شعرهم متأثرين بالواقع السياسي والاجتماعي والثقافي للبيئة العباسية آنذاك، وصورت الأطروحة الدور التاريخي للرشيد الذي رفع مكانة الدولة العباسية وحافظ على هيبتها, وبينت الأطروحة صور المشرقة في حماية الثغور الإسلامية، فضلا عن مكانته الأدبية، وذلك كله من خلال الأبعاد القيمية والفنية والتشكيلية عند شعراء عصره، ثم حللت الباحثة ثلاث قصائد ضمن ثلاثة مناهج مختلفة وتدور في فلك التحليل الأسلوبي التفكيك والنفسي والدرامي، وكانت القصيدة الأولى في الوصف وقصيدتان في المدح.

الكلمـات المفتاحيـة: صـورة هـارون الرشـيد، القائـد، الخليفـة، شـعراء العصـر العباسـي، الصـورة الشعرية.

الملخص باللغة الإنجليزية: **Abstract:**

Harun al-Rashid in the eyes of the Abbasid era poets

Preparation: student Zainab Ibrahim spring
Supervised by: Prof. Dr. Mai Ahmed Yousef

Associated with the image of Harun al-Rashid trends poets in the Abbasid period, and fight by their whims, in line with the manifestations of the Abbasid life during his reign, which imposed itself on the poets both political life, and what was going on with the systems and different events, or social life and what was commonly where to attend and luxury and a passion for singing and dumping in promiscuity and asceticism, or mental life and the resulting activity of the movement of Arts and Sciences.

It revealed this Research for image Harun al-Rashid al-Khalifa in the eyes of the poets of his time, and leavened Technical promote awareness of the elements of the formation of hair influenced by the then political, social and cultural Abbasid environment of reality, and showed the Research the historic role of Rosetta, which raise the profile of the Abbasid state and maintained its prestige and showed the Research Photos bright to protect the Islamic stomata, as well as literary stature, the whole through value-

dimensional, functional and fine when poets of his time, and last the researcher analyses three poems in (Alwasf & almadeh).

Keywords: Image of Harun al-Rashid, the leader, al-Khalifa, the Abbasid era poets, poetic image.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد – صلى الله عليه وسلم– وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

تأتي هذه الأطروحة لبحث صورة الخليفة هارون الرشيد في الشعر العباسي، وفي أنظار شعراء عصره، للوقوف على مظاهر الحياة العباسية في عصره، واستجلاء صورة الرشيد المنسجمة مع الواقع السياسي والحضاري والاجتماعي آنذاك بوصفه واحدًا من أبرز الخلفاء العباسيين الذين اتّسعت لهم دائرة الشعر لما كان له من دور في رفع مكانة الدولة العباسية والحفاظ على هيبتها, وبيان صورته المشرقة في حماية الثغور الإسلامية، فضلا عن مكانته الأدبية؛ حيث كان الرشيد يعنى بمجالس الأدباء والعلماء، لتنشيط الحركة الفكرية والعلمية في عصره.

والناظر في أشعار العصر العباسي الأول تستوقفه صورة هارون الرشيد بكل صفاتها، وما اجتمع فيها من متناقضات في زهده وكرمه وشجاعته وقوّته ومهابته، وجِدّه وهَزْله، وعبثه ومجونه، وتواضعه وعدله، إذ التفّ حولَ الرشيد كوكبةٌ من الشعراء الذين لازموه، وقالوا فيه، وصوروا في حضرته، فأبدعوا في أشعارهم، وأجادوا في وصفه.

وتنبع أهمية الأطروحة ومسوغاتها من أن شخصية الرشيد ظلَّت مدار جدل المؤرخين على مدار عقود طويلة خبّروا من خلالها عن مشكِّلات وعيهم بشخص الرشيد التي انحصرت في صورتين متنافرتين؛ مثلت إحداهما صورة الرشيد القائد البطل والفارس المسلم ذي الأمجاد العظيمة, وعلى الوجه المقابل تبرز صورة لهوه ومجونه طارقًا أبواب اللذة في إقباله على الخمر والغناء والجواري.

ونظرًا لاضطراب صورة الرشيد في أذهان المؤرخين تأتي هذه الأطروحة لتفصح عمّا استحوذته مخيّلة الشعراء من صور للرشيد, وما اختمر بوعيهم الفني من عناصر تشكيل الأدب على خلفيّة الواقع السياسي والاجتماعي للبيئة العباسية آنذاك، وإبراز الدور التاريخي للرشيد في رفع مكانة الدولة العباسية والحفاظ على هيبتها في ظلّ الصراع الدائر مع الروم, وبيان صورته المشرقة في حماية الثغور الإسلامية، فضلا عن مكانته الأدبية؛ حيث كان الرشيد يعنى بمجالس الأدباء والعلماء، وله ديوان خاص به, وحضور بارز في تنشيط الحركة الفكرية والعلمية في عصره.

واعتمدت الأطروحة المنهج الوصفي التحليلي في قراءة النصوص الشعرية وبحث تجلياتها في الجانب المضموني والفني لاستكناه البنى اللّغوية العميقة المودعة تلك الأشعار, والكشف عن دلالاتها اللّغوية والتصويرية, ولن تكون تلك الآليات بمعزل عن الارتباطات التاريخية والاجتماعية المحيطة بها في حقبة تُعدُّ نقطة تحوّل لافتة على الصعيديْن السياسي والفني لدى غالبية شعراء العصر العباسي، والبحث في كيفيّة تشكيلات الصورة الدّلالية وإيحاءاتها التي يبرز عن طريقها العديد من التفاعلات الحاسمة لاستكمال صورة الرشيد في عيون شعراء عصره، وما تختزله تلك النصوص من أبعاد فكريّة ونفسيّة عميقة تتجاوز دلالاتها الظاهرة إلى الكشف عن التصورات التحتيّة بوصفها حصيلة حيوية متنامية لحساسية التداخل بين الجانبين الفني والمضموني على حد سواء, وقصدًا من الباحثة إلى استيفاء معالم الصورة الشعرية في الجانبين الحسيّ والتجريديّ، وبيان أثرها في توليد المعنى الشعري الذي يبرز فيها الشعراء شخص الرشيد حسًّا عاليًا بالقيم الروحية والإنسانية.

ولم تجد الباحثة في حدود اطلاعها كتبًا مؤلفة متخصصة في صورة هارون الرشيد سوى بحثين منشورين في مجلتين اثنتيْن، كالآتي:

1. ياسين عايش خليل, (هارون الرشيد في أنظار شعراء عصره), كلية الآداب, الجامعة الأردنية, بحث منشور في **مجلة دراسات, العلوم الإنسانية والاجتماعية**, المجلد 32, عدد 1, 2005م.

وتركز اهتمام الباحث في هذا البحث على استقصاء جوانب شخصية الرشيد في أنظار شعراء عصره مفيدًا في المنهج التاريخي في تلمّس معلوماته عن الرشيد, وإيراد النماذج الشعرية لا المنظومة في مدح الرشيد فحسب؛ وإنما أبرز الباحث على نحو من الموضوعية والشمولية جلّ الشعر الذي قيل في الرشيد من مدح وهجاء وانتقاد.

واعتمد الباحث المنهج الوصفي التحليلي في النظر إلى النصوص الشعرية المتناثرة في مظانّ الكتب واستقصاء مقارباتها والموازنة بينها لغةً وبناءً ومعنًى وتصويرًا.

2. صالح علي الشتيوي, (صورة هارون الرشيد الجادّة في شعر العصر العباسي الأول), **كلية العلوم والآداب**, الجامعة الهاشمية, الزرقاء, الأردن, 2001م.

واعتنى الشتيوي في هذا البحث على إبراز الجوانب القيمية في شخص الرشيد وارتكز عليها في جلاء أبعاد صورة الرشيد في شعر العصر العباسي الأول, فأبرز الباحث القيم البطولية والدينية والإنسانية، وكانت مدارًا لبحثه في إبراز صورة الرشيد.

وقد أفاد الباحث من المنهج التاريخي؛ لما تفرضه طبيعة النظر إلى النصوص الشعرية تلك من قيدَيْ الزمان والمكان في استقصاء عناصر صورة الرشيد، وجلاء أبعادها من مظانها الأصلية في الدواوين الشعرية وأمهات الكتب.

وكان البحث مشمولا بالجانب التطبيقي الذي حرص فيه الشتيوي على استيفاء معالم الصورة الشعرية لشخص هارون الرشيد؛ مما ينبئ عن حسّ عالٍ لدى الرشيد بالقيم الروحية والإنسانية. حيث تناول الباحث صورة الرشيد من جانبين؛ أولهما: القيم البطولية والدينية,

وثانيهما: القيم الإنسانية, واعتمد في تحليله المضامين الشعرية على استقصاء دلالات الألفاظ وإيحاءاتهما دونما إغفال لعناصرها الفنية ورصد دلالاتها الحسية من اللون والحركة.

وصنّف الباحث الأشعار في مجموعتين؛ الأولى: الأشعار التي قيلت في مدحه, والثانية: الأشعار التي قيلت في رثائه وهجائه وانتقاده.

ورغم لجوء الباحث إلى الموضوعية في تحليل العديد من الأشعار المنظومة في حق الرشيد ومحاولة تغليبه الحكم الموضوعي على الانطباعي الذاتي في تحليله مضمون الأشعار لاستدراك ملامح شخصيته الرشيد في أنظار شعراء عصره، إلا أنه ظلّ في عرضه تلك النماذج أسيرًا لسياقاتها التاريخية.

وجاءت الأطروحة في تمهيد، وأربعة فصول وخاتمة؛ أمّا التمهيد فعرَضَ لمظاهر الحضارة العباسية في عهد الرشيد, وإبراز مكانته التاريخية والأدبية، في جانبيْنِ؛ الأول بحث مكانة الرشيد التاريخية، ودوره في بناء الحياة السياسية في عصره، والجانب الثاني بحث مكانة الرشيد التاريخية، ودوره في الحياة الثقافية الأدبية في العصر العباسي. وأمّا الفصل الأول، فرصَدَ الجوانب القيميّة لصورة هارون الرشيد في عيون شعراء العصر العباسي من الجانبيْنِ: الإداري الممثّل بصورة القائد، والإنساني الممثل بصورة الخليفة وعلاقته بالرعية. أما الفصل الثاني، فتناول مضامين الصورة الشعرية لشخص هارون الرشيد في مبحثين؛ عرض الأول لمصطلح الصورة الأدبية؛ المصطلح، والأهمية، والتطور، وتحدّث المبحث الثاني عن مضامين الصورة الشعرية لشخصية الرشيد من الجانبين التاريخي والإنساني. وبحث الفصل الثالث مرتكزات الخيال في توليد الصورة الشعرية لشخص الرشيد، في محوريْنِ اثنيْنِ، تناول الأول منهما الصورة القائمة على البعد التجريدي، وعرضَ المحور الثاني للصورة القائمة على البعد الحسي.، ثم ختمت الفصول بالفصل الرابع الذي حلل قصائد ثلاث لأبي العتاهية وأبي

نواس وعلي بن الخليل، الأولى جاءت في وصف حال الخليفة والثانية والثالثة في المدح، وأعقبت الأطروحة بخاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصلت إليها الباحثة، ثم قائمة المصادر والمراجع.

وأشكر ختامًا الأستاذة الدكتورة مي يوسف المشرفة على سعة صدرها، وإتمامها ثغرات ما صعب على الباحثة فهمه، وقد كانت وما زالت مثال الأخت الصادقة والمعلمة الرائدة وما كانت هذه الأطروحة لتكتمل لولا حرصها ودرايتها وإمكانياتها التي سخرتها معي لها، فلها كل الشكر والتقدير.

كما أشكر الأساتذة الدكاترة أعضاء لجنة المناقشة الذين سيقوّمون رسالتي لتستحق وضعها بين رفوف المكتبة العربية، فلهم كل الدعاء بالتوفيق والسعادة.

التمهيد

يجمع المؤرخون على أن للدولة العباسية عصرين يختلف أحدهما عن الآخر اختلافًا عظيمًا؛ العصر الأول، ويعرف بعصر الازدهار، ويمتدّ من أول نشأة الدولة العباسية إلى سنة 132هـ إلى آخر أيام الخلفية المأمون سنة 218هـ، وهو العصر الذي بلغت فيه الدولة العباسية أوج شبابها، وقمة مجدها وترفها، والعصر الثاني ويستمر إلى سقوط بغداد في يد التتار سنة 656هـ.

وكان عهد هارون الرشيد (193هـ-218هـ)[1] أطول عهود خلفاء بني العباس وأزهاها؛ فقد كثر فيه الغزو، واتَّسَعَت الفتوحات، ومن ذلك: " أنه أرسل الفضل بن يحيى* إلى خراسان، فأحسن السيرة فيها، وبنى الرُّبُطَ والمساجد، وغزا ما وراء النهر، واتخذ بها جندًا من العجم سَمَّاهم:

---

[1]. لترجمة حياة الرشيد وأخباره انظر: الجهشياري، محمد بن عبدوس، الوزراء والكتّاب، قدم له: حسن الزين، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، بيروت، 1988م، 114- 179، ؛ والذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط3، 1985م، 9/286-292؛ والمسعودي، أبو الحسن بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به وراجعه: كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2005م، 279/3، 252/4؛ والسيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1952م، 249؛ والطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1407م، 617/4؛ و ابن العمراني، محمد بن علي، تحقيق: قاسم السامرائي، الإنباء في تاريخ الخلفاء، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2001م، 75؛ والزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، 2002م، 62/8.

* الفضل بن يحيى البرمكي، أخو جعفر البرمكي، أحد البرامكة الأجواد المشهور عظيم قدرهم الذين قيل فيهم:

إذا كنت من بغداد في ألف فرسخ * * وجدت نسيم الجود من آل برمك

وكان قد ولاه هارون الرشيد كور الجبال وطبرستان، ودنباوند وقومس وأرمينية، وأذربيجان نزل بالطالقان سنة ست وسبعين ومائة لتدبير أمر يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد ظهر بالديلم واشتدت شوكته، واغتم الرشيد لذلك فلاطفه، وبذل لصاحب الديلم مالاً حتى حمل يحيى على الصلح والخروج إليه وكتب الرشيد له أمانًا وخرج يحيى مع الفضل إلى بغداد. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1987م، 11/12-21. وتاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، 336/12.

العَبَّاسِيَّةَ، وفتح الفضل بلادًا كثيرة، منها كابل وما وراء النهر، وقَهَرَ مَلِكَ التُّرك وكان ممتنعًا، وأطلق أموالاً جزيلة، ثم قفل راجعًا إلى بغداد"[1].

ويعدُّ هارون الرشيد واحدًا من أبرز الخلفاء العباسيين الذين اتّسعت لهم دائرة الشعر؛ حيث حظيت شخصيته باهتمامٍ بالغ لدى الشعراء والمؤرخين على حدّ سواء، إذ بلغت الدولة في عهده أوج اتّساعها وقوّتها.

ويأتي التمهيد مدخلا نظريًا تسلّط فيه الباحثة الضوء على أبرز مظاهر الحضارة العباسية لاستيفاء صورة الرشيد في عيون شعراء العصر العباسي، وإبراز مكانته التاريخية والأدبية.

لذا؛ سيتضمن جانبيْنِ تمهيدًا لفصول الأطروحة:

الأول: مكانة الرشيد التاريخية، ودوره في بناء الحياة السياسية في عصره.

و**الثاني:** مكانة الرشيد التاريخية، ودوره في الحياة الثقافية الأدبية في العصر العباسي.

- مكانة الرشيد التاريخية ودوره في بناء الحياة السياسية في عصره:

أخذ الرشيد مكانته السياسية في تاريخ دولة بني العباس قبل تولّيه الخلافة، والدور التاريخي الذي لعبه في الحفاظ على هيبة الدولة الإسلامية في ظلّ صراعاتها مع الروم لما

[1].ابن كثير، البداية والنهاية، حققه ودقق أصوله: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1988م، 185/10.

أوكلت إليه مهمة قائد الراية (163هـ-779م)[1] في غزوة الخليفة المهدي (169هـ-785م) لبلاد الروم.

والتكليف السابق يعزّز النظر إلى شخص هارون الرشيد بوصفه القيادي الحازم، فكانت تلك إشارة البدء في لفت أنظار العباسيين إلى استحقاقه أمور الخلافة وتولّيه مقاليد الحكم رغم صغر سنه آنذاك.

" وتساءل الناس من سيكون أمير هذه الحملة العظيمة؟ فقيل: الخليفة نفسه، وقيل: أحد أمراء بني العباس المعروفين بقيادة الجيوش... لكنّ بيانًا صدر من بلاط الخليفة على ألسنة المقربين يفيد بأنّ صاحب الراية سيكون هارون بن المهدي، وكان يومئذ في عامه السادس عشر..."[2].

وكان من الروم إعلان استسلامهم إثر المناوشات الحربيّة الطاحنة بين كلا الطرفين (163هـ-779م)، وترك ذلك صدًى كبيرًا لدى المؤرخين في تأريخ ذلك الانتصار، وتبيان الدور الذي التاريخي للتضحيات التي قامت بها أسرة الرشيد في سبيل إعلاء شأن دولة بني العباس إبّان تلك الحقبة؛ وإعلاء صيت الرشيد على طريق البطولات والنصر، وكان الحدث السابق بمثابة التهيئة لولاية عهد الرشيد[3].

---

1. عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1999م، ص77.
2. السابق نفسه، 76.
3. فاروق عمر فوزي، الخليفة المجاهد هارون الرشيد، دار الشؤون الثقافية العامّة، بغداد، 1989م، ص17.

ومن مهمة أمير الجهاد ضد الروم البيزنطيين يقود الرشيد حملة عسكرية جديدة بمساعدة يحيى بن خالد البرمكي عام 165هـ-781م، الذي ختم بالانتصار ضد الروم، وينضاف هذا الحدث لصالح الرشيد في تهيئته بالترشح لولاية العهد[1]

حيث أعلن المهدي (166هـ-782م) هارون وليّا ثانيًا للعهد، وتم تلقيبه بـ (الرشيد) وتمت المبايعة الرسمية له بالخلافة سنة (170هـ-786م)والتي أعقبت وفاة الخليفة المهدي إثر ظروف غامضة (169هـ-785م)، وكان الرشيد حينها في الثالثة والعشرين من عمره عندما غدا خليفةً للمسلمين، وحاكمًا للدولة العربية الإسلامية[2].

"وابتدأ حكمه بتفويض يحيى البرمكي أمور الدولة وتعيينه وزيرًا له، ففتح الرشيد للبرامكة باب المشاركة في السلطتين التنفيذية والتفويضية"[3].

وامتدّ نفوذ البرامكة العجم، فقد كان الفضل بن يحيى البرمكي الساعد الأيمن لأبيه في الأمور الإدارية، وأوكل لجعفر بن يحيى عددًا من المهام السياسية مُنِحَ خلالها خاتم الوزارة، وبدأ

---

1. فاروق عمر فوزي، الخليفة المجاهد هارون الرشيد، 21.

2. استخلف هارون الرشيد ابنه المهدى سنة سبعين ومائة في ربيع الأول، وتوفي سنة ثلاث وتسعين ومائة لثلاث بقين من جمادى الأولى فكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة وشهرين وثلاثة عشر يوما ونحو هذا، وذكرت وفاته ونعاه هارون بن محمد بمدنية السلام يوم الجمعة لست عشرة خلت من جمادى الآخرة وأمه الخيزران، قال أبو بكر السدوسي ومات بطوس وصلى عليه صالح بن الرشيد فتوفى وله ست وأربعون سنة، أخبرنا بن رزق أخبرنا عثمان بن أحمد الدقاق قال حدثنا محمد بن أحمد بن البراء، قال: ومات الرشيد بطوس لغرة جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائة وكان عمره خمسا وأربعين سنة وخلافته ثلاثا وعشرين سنة وشهرين وستة عشر يوما أخبرني على بن احمد بن عمر المقرئ أخبرنا على بن احمد بن أبى قيس حدثنا أبو بكر بن أبى الدنيا قال ومات هارون بطوس ليلة السبت لأربع خلون من جمادى الآخرة من سنة ثلاث وتسعين ومائة ودفن بقرية يقال لها سناباذ وصلى عليه ابنه صالح. الخطيب البغدادي، أحمد بن علي أبو بكر، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، 13/14. وفاروق عمر فوزي، الخليفة المجاهد هارون الرشيد،17-21. وللاستزادة حول مبايعة هارون الرشيد، ابن كثير، البداية والنهاية، 10/ 157، والسيوطي، تاريخ الخلفاء، 246.

3. وليم الخازن: الحضارة العباسية، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1984م، 25.

نفوذهم بالتقلّص بوفاة الخيزران أم الرشيد سنة 173هـ-790م*، حيث كان لها دورٌ كبيرٌ في اتّساع نفوذهم، والتمتع بصلاحيات واسعة في إدارة شؤون البلاد السياسية[1].

ولعلّ جملة الآراء الاعتباطية التي أقرّها البرامكة، وميلهم إلى العجم ومحاولاتهم إدخال مظاهر الحياة السياسية والقيم الفارسية على المجتمع العباسي كانت سببًا في تراجع نفوذهم، وإيغار قلب الرشيد عليهم، فضلا عن اتهامهم بالتآمر ضدّ الدولة وازدياد شكوك الرشيد حولهم، مما أدّى إلى تفويض سلطتهم، حيث أمر الرشيد بالقبض عليهم، ومصادرة أملاكهم وضياعهم 187هـ-803م[2].

وبانتهاء حكم المتنفذيْن في عهد خلافة الرشيد؛ نفوذ أمّه الخيزران من جهة، والنفوذ البرمكي من جهةٍ أخرى، تشتدّ الدولة العباسية صلابةً، وينتفي بها المزاعم التي ذهب إليها المؤرخون بأنّ " الدولة العباسية قسمة بين العرب والفرس" [3].

وتظن الباحثة أن تشتيت صورة الرشيد تاريخيًا بين الرشد والحزم في أمور قيادة الدولة، وبين اللهو والمجون أمر لا مفر منه في ظلّ الثورات والفتن التي تعرضت لها الدولة العباسية

1.: فاروق عمر فوزي، الخليفة المجاهد هارون الرشيد، 22-24.

*زوجة المهدي العباسي، وأم ابنيه الهادي وهارون الرشيد، ملكة حازمة متفقهة، يمانية الاصل، أخذت الفقه عن الإمام الاوزاعي، وكانت من جواري المهدي، وأعتقها وتزوجها. ولما مات، وولي ابنها (الهادي) انفردت بكبار الامور، وأخذ ت المواكب تغدو وتروح إلى بابها. وحاول الهادي منعها من ذلك حتى قال لها: إذا وقف ببابك أمير ضربت عنقه ! وسعى في عزل أخيه (الرشيد) من ولاية العهد، وقيل: إنها علمت عزمه على قتل الرشيد. فأرسلت إليه بعض جواريها، وهو مريض، فجلسن على وجهه حتى مات خنقا. وولي بعده الرشيد (هارون) فحجت وأنفقت أموالا كثيرة في الصدقات وأبواب البر. وتوفيت ببغداد، فمشى الرشيد في جنازتها وعليه طيلسان أزرق وقد شد وسطه بحزام، وأخذ بقائمة التابوت، حافيا يخب في الطين، حتى أتى مقابر قريش فغسل رجليه وصلى عليها ودخل قبرها وتصدق عنها بمال عظيم. تاريخ الطبري،4/609-623، وتاريخ بغداد، 291/5. والبداية والنهاية، 163/10، والأعلام، 328/2.

2. فاروق عمر فوزي، الخليفة المجاهد هارون الرشيد، 28-29.

3 .السابق نفسه، 29.

آنذاك، وأن الصورة المضطربة لشخص الرشيد هي مشكّلات وعي المؤرخين، وسعيهم في تغليب صورة دون أخرى لصالح فئة في عصر غلبت عليه المطامع والفتن... حيث ازدهرت مظاهر الحضارة العباسية جرّاء اتصالهم بالعجم من التجارة وفن العمارة، فبنيت القصور الفخمة وزادت ثروات البلاد؛ فكانت الدولة الإسلامية آنذاك مركزًا للتجارة العالمية "... فكانت تأتيها تجارات الشرق الأقصى وشرق إفريقية من كل نوع عن طريق الخليج العربي، كما كانت تَرِدُ إليها بضائع بلدان البحر الأبيض المتوسط عن طريق الشام ومصر..."[1].

حتى الشعراء فقد كانوا يستميلون البرامكة نحوهم، إذ إنّ البرامكة ظلوا يغدقون الأعطيات والهدايا على الشعراء لكسبهم وامتداحهم،كما لم يسلم أي جانب من جوانب أمور الدولة العباسية من احتواء البرامكة له إداريًا وعسكريًا وعلميًا وأدبيًا، لذلك امتدحهم الشعراء كما الخلفاء.

ويقول في ذلك أبو نواس:

سلامٌ على الدنيا إذا ما فقدتم **بني برمكٍ من رائحيـــــنَ وغـــــادي[2]

وظلَّ نفوذ البرامكة في الاتّساع بأن نافسوا الخلفاء في أبّهتهم وجاههم، وهذا ما اضطر الرشيد إلى القضاء عليهم وعلى زعمائهم، فكانت نكبة البرامكة عام 187هـ [3].

ولم تقف الاضطرابات السياسية الداخلية في عهد الرشيد عائقًا في سبيل تنظيم أمور الدولة السياسية على الصعيد الخارجي، وبرغم أنّ الروم أو البيزنطيين هم العدو الأكبر للدولة

---

[1]. محمد عبد العظيم أبو النصر، الدولة العباسية: التاريخ السياسي والحضاري، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، 2009م، 106.

[2]. أبو نواس (الحسن بن هانئ)، الديوان، شرح وتحقيق وتقديم: علي العسيلي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1997م، ص345، وانظر: ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1981م، 224/1.

[3]. وليم الخازن: الحضارة العباسية، 107.

الإسلامية آنذاك، إلا أنه استطاع بفضل الفتوحات المتوالية أن يظفر بتأمين هيبة الدولة الإسلامية أمام أعدائها في الخارج.

حيث عني الرشيد عناية بالغة بتنظيم المنطقة الحدودية بينه وبين البيزنطيين، وتمكّن من تحصين دولته بخطين دفاعيين على الدود البيزنطية؛ الأول (الثغور) وعرف الثاني بـ (العواصم)[1].

وانقسمت منطقة الثغور التي اهتم بها الرشيد إلى[2]:

- المنطقة الشرقية؛ وتشمل حصون قاليقلا، وكمنح، وقلودية.
- المنطقة الوسطى؛ وتشمل حصون الحدث، وزبطرة، وملطية.
- المنطقة الغربية؛ وتشمل حصون المصيصة، وطرطوس، وأدنة.

وبفضل العلاقات الجيدة التي انشأها الرشيد مع إمبراطور الدولة الرومانية شارلمان (768-814م)[3] تحقق للشرق التفاعل والاتّصال بالغرب منذ وقت مبكر؛ حيث تبادل الرشيد والأباطرة تأمين الحماية والمصالح لكلا الطرفين، وهذا دليل على المركز العالمي الذي كان يتمتع به الخليفة العباسي آنذاك[4].

أما في إفريقية، فقد أمّن الرشيد ثغرًا عباسيًا جديدًا بإقامة دولة مستقلة تدخل في نطاق التبعية للدولة العباسية، وتمكّن الرشيد بذلك من حماية الأطراف الغربية لدولته من أخطار

---

1. فاروق عمر فوزي، الخليفة المجاهد هارون الرشيد، 62.
2. السابق نفسه، 62-63.
3: أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت، 1972م، 89.
4: وليم الخازن، الحضارة العباسية، 50-51.

الخوارج والأدارسة والأمويين والبيزنطيين، كما حظيت دولة الرشيد بالاتّساع الذي أعقب العديد من الفتوحات، وبتلاقي الطرق البرية والبحرية، مما جعلها درّة العالم[1].

وأولى الرشيد كذلك اهتمامًا بالغًا بالقوة البحرية لتأمين الموانئ الشامية وتحصينها أكثر من اعتبارها قواعد هجومية[2].

ورغم ما تميزت به الدولة العباسية في اتّساع النفوذ السياسي، ووصفها بـ " عروس الدنيا وعاصمة أكبر إمبراطورية... ومستودع أضخم بيتٍ للمال، وقبلة الطامحين للثراء السهل" [3]، إلا أنها لم تخل من مظاهر الطبقية والبذخ والترف والتفاوت الطبقي آنذاك، وكان مردّه إلى " نظام الدولة المركزي والتضخّم النقدي الفاحش في بيت المال، ما خلق طبقات اجتماعية واسعة الغنى والجاه والنعمة" [4].

فقد شيع عن الرشيد الترف والبذخ الشديد على آل بيته وحاشيته على حساب بيت مال المسلمين، وقيل إنّ عدد الجواري لدى الرشيد قد ناهز الألفين آنذاك[5].

وتوفّر الغنى والمال والجاه الوفير لكلّ من اتّصل بالبلاط العامر من " حجّاب وكتّاب وقادة وقضاة وجلّاس وشعراء وأدباء وندماء ومطربين..."[6]. أمّا الغالبية التي تمثّل الطبقة الوسطى في المجتمع، فهم من فئة العلماء والفقهاء والأدباء[7].

---

[1] : وليم الخازن: الحضارة العباسية، 43.

[2] : فاروق عمر فوزي، الخليفة المجاهد هارون الرشيد، 64-65.

[3] : عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص 152.

[4] : السابق نفسه، 158.

[5] : جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، دار مكتبة الحياة، بيروت، المجلد الأول، ط2، 1978م، 328.

[6] : عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص 158.

[7] : السابق نفسه، ص160.

إلى جانب ذلك عانت طبقة – مثل كل المجتمعات – من الفاقة والفقر، فظنوا أن العدل لم يطبق في توزيع الثروات[1].

- مكانة الرشيد التاريخية، ودوره في بناء الحياة الثقافية في عصره.

كان للرشيد دورٌ تاريخيٌّ بارزٌ في رفع المكانة الأدبية للبيئة العباسية في عصره، وعُنِي بمجالس الأدباء والعلماء، وله ديوان خاص به وحضور بارز في تنشيط الحركة الفكرية والعلمية في عصره، " فهو الذي حرّر هذه الحركة من عقالها وأطلقها على سجيتها جاعلا منها حركةً رسميّة عن طريق المؤسسات العلميّة التي أنشأها من " بيت الحكمة إلى "بيمارستان" عن طريق النفقات التشجيعية التي أنفقها على المشتغلين بها" [2].

وقد أفاد الرشيد من البرامكة الكثير في التحصيل الأدبي، فأول مصنع للورق في بغداد أنشأه الوزير جعفر البرمكي في عهد الرشيد حتى عمّت مصانع الورق بغداد ودمشق وطبرية وطرابلس والشام[3].

وكان لبيئة الرشيد الدور الأكبر في تحصيله الثقافي، فقد امتلك الثقافة العسكرية من أبيه، في حين امتلك رفاهة الحس من أمّه التي حاولت جاهدةً الاعتناء به في مجمل جوانب شخصيته وتنميتها في جلّ النواحي الثقافية من معرفة بـ " الأدب وفروعه واللغة ومفرداتها، وحَفِظَ –الرشيد– القرآن على الشيخ حمزة الزيات، وعلّمه الكسائي الفقه والنّحو والبلاغة، وعلّمه الشعر والبلاغة العلامة المفضّل الضبّي، وأحاط به المعلمون، فنهل منهم اللغة والعلم والأدب، فبدا

---

[1] : عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص 162.

[2] : ديوان هارون الرشيد، جمع وتحقيق وشرح: سعدي ضنّاوي، دار صادر، بيروت، 1998م، 17.

[3]: وليم الخازن، الحضارة العباسية، 76.

رزينًا في صباه، وقورًا في شبابه، كيّسًا في خلافته، فرتّل القرآن وقرض الشعر ونقده، وخطب في الناس، وقال الحديث، فجالس الفقهاء والأدباء، وخالط المتفكّهين والنجباء"[1].

وقد كان للرشيد ثقافة واسعة بكلّ مفردات الأدب وفروعه، يطرب للشعر، ويتقرب إلى الشعراء، فمما رُوي عن الرشيد اعتناؤه بمجالس الأدب في عصره[2]، ومما ذكر أنّ أول جائزة خرجت من الرشيد لمّا تولّى الخلافة كانت لإبراهيم الموصلي الذي امتدحه لقوله في الرشيد: (الطويل):

ألمْ ترَ أنّ الشّمسَ كانت مريضةً* * فلمّا وَلِيَ هارون أشرقَ نورُها

فألبستِ الدّنيا جمالا بوجههِ* *فهارون واليها ويحيى وزيرُها[3]

فأمر له الرشيد بمائة ألف درهم، وأمر له يحيى بخمسين ألف درهم[4].

وقاد موقع الرشيد إلى هيمنة اللّغة العربيّة وسيادتها في أقاصي البلاد، حيث امتدّت راية الإسلام في عصره " من حدود الصين وأواسط آسيا شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا ومن المحيط الهندي والسودان جنوبًا إلى بلاد الترك والروم البيزنطيين شمالا[5].

---

[1]: حسن عبد الغفار، هارون الرشيد: الخليفة المفترى عليه، مكتبة النافذة، مصر، 2010م، 51.

[2]: للاستزادة في مجالسة الرشيد للأدباء: علي مهنّا، طرائف الخلفاء والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م، 179-208.

[3]: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط2، 253/5، وانظر: الأبشيهي، شهاب الدين محمد، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1986م، 166/2.

[4]: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، 253/5.

[5]: حسن عبد الغفار، هارون الرشيد: الخليفة المفترى عليه، 166.

وقد أدّى انتشار الملل بمختلف لغاتها وأجناسها وثقافاتها إلى نهضة فكرية حقيقية مع المحافظة على سيادة اللغة العربية والعقيدة الإسلامية على جميع الملل.

وأدّت هذه النهضة إلى التنوّع الفكري لما تسرّب من ثقافات وآداب وعلوم ومعارف شتى؛ إذ نمت حركة فكرية شملت جلَّ النواحي الفكرية آنذاك من علوم القرآن كالقراءات السبع والتفسير، وعلم اللغة، والنحو، والرواية الأدبية، وعلم الفقه، وعلم الكلام، والتصوّف فضلا عن حركة الترجمة التي شهدتها البلاد، فقد أسس الرشيد بيت الحكمة أو دار الحكمة أو خزانة الحكمة التي تعد امتدادًا لبيت الحكمة التي أنشأها المأمون عام 830م وتجديدًا لها[1]. فخزانة الحكمة مؤسسة تأليف وترجمة ونشر، وهذا أول أدوارها، " والدور الثاني لهذه المؤسسة هو القيام بالنقل إلى العربيّة؛ لذلك كان يلحق بها مترجمون وكتّاب يساعدونهم، كما يلحق بها نُسّاخ... أما الدور الثالث، فهو التأليف..."[2].

وبتتبع مسار الحياة الفكرية في العصر العباسي عهد الرشيد يتّضح التنوع الثقافي والتجديد، واغتناء الفكر بجلّ العلوم من طبّ وفلسفة وفلك وفقه والآداب من الخطابة والشعر والنثر، وأنّ التنوّع والغنى في مفردات الحياة الثقافية وليدة البيئة العباسيّة الجديدة، وأحد إفرازات التجانس والانصهار بين عدّة مجتمعات، وعدّة ثقافات انضوت تحت لواء دولة بني العباس وسيادتها، فازدهرت صناعة الورق واتّسعت حركات التأليف وتطوّرت الحياة العلميّة بتطوّر البحث العلمي والاعتماد على الاستقصاء العقلي.

ولا تخفى حاجة البحث العلمي إلى الكثير من النفقات؛ " لتأمين مادّة المعرفة والتجربة والقياس ولضمان عيش المشتغلين بها وانصرافهم إلى البحث والتأليف حتى تصبح مهمة التمويل

---

[1]: وليم الخازن، الحضارة العباسية، 76.

[2]: سعدي ضنّاوي، ديوان هارون الرشيد، 180.

من مسؤوليات الدولة الغنية حين تبلغ البحوث مرحلة متطورة جدًا... وقد اهتمّ الرشيد شأن غيره من الخلفاء برعاية الحركات العلمية، وساهم مع وزرائه الأمراء في إحداث نقلة تطوّريّة بما بذلوا لها من أعطيات سهّلت عملية الانصراف إلى العلم والبحث"[1].

وقد ضمن التنوع الثقافي وغناه تعدّدًا في الحركات الفكرية على المستويين الديني والفقهي والأدبي كذلك؛ فعلى المستوى الديني مثلا قاد انتشار الحركات المذهبية وتنوعها، مثل الزندقة والشعوبية ودخول الفلسفة والتصوّف وعلم الكلام إلى مفاهيم خاطئة، وعرفت الدولة العباسية لونًا من الاجتهادات المنحرفة التي تتعارض والفكر الديني، فنشأ من الفقهاء إنعام أكثر دقة في اجتهاداتهم الفقهية التي تنوّعت بتنوّع المسائل المستجدّة.

"وإذا كان هارون قد رعى شيوخ اللغة والرواية وعايش الأئمة الكبار الذين أرسَوْا مذهب السنة ورافق ولاة علم الكلام ومذهب الاعتزال والصوفية فقد كان معظم أقطاب هذه الحركة على علاقة بالبلاط العباسي: علاقة ولاء كما هو الأمر مع الأصمعي والكسائي واليزيدي والأحمر النحوي، أو علاقة احترام متبادل كما كان الأمر مع الإمام مالك والإمام الشافعي في بلاط الرشيد، أو علاقة تحدّ وصراع كما هو الأمر مع الإمام أبي حنيفة في بلاط المنصور والإمام أحمد بن حنبل في بلاطي المأمون والمعتصم[2].

وعلى الوجه المقابل من التعدّدية في الثقافة والفكر التي أنشأتها تلك الحركات وما رافقها من إيجابيات في اغتناء الحركة الفكريّة وتجديدها على جميع المستويات نلحظ الأثر السلبي الذي خلّفته من الزندقة والانحرافات الفكرية حصيلة الاجتهادات الخاطئة.

---

[1]: السابق نفسه، 186.

[2]: سعدي ضنّاوي، ديوان هارون الرشيد، 176.

" فلما كان الخليفة مسؤولا عن المحافظة على الدين الإسلامي وتطبيق أحكامه وإعلاء كلمته لزم عليه مطاردة هؤلاء القوم والقضاء عليهم والحيلولة دون إفسادهم الناس وتضليلهم وقد طارد الخلفاء الأول من بني العباس جموعهم في كلّ مكان وأمعنوا فيهم تنكيلا وتقتيلا، ولم يرحموا أحدًا منهم...إلخ[1].

ومن الملاحظ أنّ تطوّر الحياة الفكرية وتنوّعها بخصب الثقافات وامتزاجها أفرز نوعًا من النزعات التحرّريّة في الأدب على المستوى الشعري، وظهرت أحداث مستجدة راح يصفها الشعراء كالغلمان والخمرة والليالي الفاجرة التي كانت أثرًا لما اختلط في مجتمع الرشيد من: " مجون وخلاعة وسكر وعربدة وتحرر من الكثير من القيود الدينية والتقليدية، فكان لهذا شأن واضح على السنة الشعراء أمثال أبي نواس ووالبة بن الحباب وحسين الضحاك ومسلم بن الوليد ومن على شاكلتهم"[2].

فكان عصر الرشيد من أكثر العصور اغتناء بالقريض ونوابغ الشعر، واتسعت ساحة الأدب في عصر الرشيد نثرا ونظما، وأُثِرَ عن الاهتمام بالأدب المنثور والمنظوم على حد سواء، حيث اعتنى بالخطب الوعظية والكتب والمراسلات بينه وبين الملوك، فضلا عن الوصايا والأقوال المأثورة، وعدد من التوقيعات التي عرف الرشيد من خلالها بمدى حزمه في إدارة شؤون الدولة.

---

[1]: عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص271.

[2]: السابق نفسه، 270.

كما عجّ البلاط العباسي بالمناظرات والمساجلات الشعرية من الإنشاد والاستنشاد للشعر والشعراء.وعُرف في عهد الرشيد مجالس خاصة للطرب والنشيد يحضرها أهل الأخبار والنوادر والأدب والشعر ترويحًا عن النفس وحبّا في المعرفة والاطلاع على آداب العرب وأخبارهم[1].

ومثلما ظهر شعراء المدح ممّن اختصوا بتخليد ذكرى الرشيد ومدحه، وتخليد مآثر بني العباس، برز على الوجه المقابل فئة من الشعراء الذين ينضوون تحت لواء الشعوبيّة يمتدحون الفرس وأمجادهم تخصصوا في مدحهم وإعلاء شأنهم وتفننوا في ذكر الأخبار الموضوعة والمختلقة عن الرشيد، وبالغوا في وصفه بالمجون والخلاعة قصدًا منهم إلى تشويه صورة الرشيد، هذا ما جعل شخص الرشيد مثارَ جدل الكتّاب والمؤرخين، كما صوّره الشعراء في نظمهم، وهذا سيكون موضع تناول الباحثة في فصول الأطروحة، ودراسة صورة الرشيد في عيون شعراء العصر العباسي وجلائها.

[1]: عبد الأمير مهنّا، الطرب والظرف والنشيد في مجالس هارون الرشيد، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1990م، 60.

الفصل الأول

البعد القِيَميّ لصورة هارون الرشيد في عيون شعراء

- المبحث الأول: صورة البعد القيادي والوظيفي للرشيد.
- المبحث الثاني: صورة البعد الاجتماعي والإنساني للرشيد.

المبحث الأول:
صورة البعد القيادي و الوظيفي للرشيد.

تُعنى الباحثة في هذا الفصل باستقصاء الجوانب القيميّة لشخص الرشيد، وبحث تجلياتها في عيون الشعراء دون معزل عن الارتباطات التاريخية والاجتماعية المحيطة في حقبة تُعَدُّ نقطة تحوّل لافتة على الصعيدين السياسي والفني لدى غالبية شعراء العصر العباسي نظرًا للنقلة الفنية التي فرضها الواقع البيئي في ذلك العصر.

اجتمع للرشيد عدد كبير من الشعراء من مختلف الاتجاهات والملل، " وإنّه لم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقضاة والكتّاب والندماء والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد"[1].

- مدح الرشيد القائد:

لقد تهيّأ للرشيد من أسباب القيادة والحزم ما لفت أنظار الشعراء إليه، والتغنّي بأمجاده وانتصاراته في ظل الصراع الدائر مع الروم فقد كان مواظبًا على الجهاد والغزو كمواظبته على الحج، "وكان يلبيس درّاعة قد كُتبَ من خلفها: حاجّ، ومن قُدّامها: غازٍ"[2].

وقال أبو المعالي الكلابي في وصْفه ذلك: (الوافر):

فَمَنْ يطلب لقاءَكَ أو يُرِدْهُ ** فبالحَرميْن أو أقصى الثغورِ[1]

---

[1]()ابن طباطبا العلوي، محمد بن علي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، عني بنشره: محمود توفيق الكتبي، المطبعة الرحمانية، مصر، ص142.

[2]()الجهشياري، محمد بن عبدوس، الوزراء والكتاب، قدم له: حسن الزين، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، بيروت، 1988م، 132.

اجتمع للرشيد في البيت السابق فضيلتَا الحج والغزو، والوصف السابق حول الرشيد يمثل خلاصة ما علق في ذهن الشاعر من تجسيدٍ للمفارقة المائلة بين حرص الرشيد على طلب الآخرة المتمثل بالحج إلى بيت الله وحرصه على التمكين القيادي في الدنيا ولزوم الجهاد.

"وقد أضفت حروبه مع البيزنطيين بهاءً خاصًا على عصره، فهي من مآثر حكمه ورمز بطولته كجنديّ مجاهد"[2].

فلا غَرْو في أن يقف ببابه عدد كبير من فحول الشعراء، وأن يخصّوه بالمدح من كبار فحول الشعراء " فإنّه لم يجتمع بباب أحدٍ من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين كأبي نواس، وأبي العتاهية، والعتّابي، والنمري، ومسلم بن الوليد، وأبي الشيص، ومروان بن أبي حفصة، ومحمد بن مناذر"[3].

خاض الرشيد غمرة الحروب في سنّ مبكرة في عهد أبيه المهديّ، وكان شديد الرغبة في الجهاد وخوض ميادين القتال. وفي جمادي الآخرة (165هـ–781م) ترك هارون الرشيد حدود أبيه المهدي[4]، ".... واتجه نحو أبواب القسطنطينية، وأقسم أن يفتحها أو يموت، وكان فيها الوصّية على عرش الروم (إيريني) زوجة (اليون) وأم الطفل (قسطنطين السادس) فأجرت معه

---

[1]() البيت لأبي المعالي الكلابي في: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، 1952م، 249، وابن كثير، البداية والنهاية، حققه وعلق على حواشيه: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1988م، ج10، ص220. والطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ج4، ص677. وفي تاريخ الإسلام للذهبي، تحقيق: عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1987م، ط1، ج12، ص44 البيت لأبي المعلّى الكلابي. وفي الإنباء في تاريخ الخلفاء لابن العمراني، محمد بن علي، تحقيق: قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2001م، ص75 البيت لابن أبي السعلي.

[2]() عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول، منشورات دار المعلمين العالية، بغداد، ط3، ص113.

[3]() الثعالبي، أبو منصور محمد بن إسماعيل، يتيمة الدهر، مكتبة الصاوي، القاهرة، 1934م، ج3، ص189.

[4]() عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1999،

المفاوضة من أجل الصلح، وإعطاء الفدية، ودفع الجزية في كل عام، فصالحها هارون على ذلك، وشرط عليها إعاشة جيشه في حلّه و ترحاله، وأن تقيم الأدلاء والأسواق في طريق عودته حتى الحدود العربية، لأن هارون كان قد دخل مدخلاً صعبًا، وطرق بلادًا لم يعرفها أحدٌ من أفراد جنده، ثم تبادل الطرفان الأسرى، وجعلا فترة الهدنة ثلاثة أعوام لا يغزو خلالها أحدهما الآخر، وعاد هارون بعد أخذ الجزية محملا بعدد كبير من الغنائم ومصطحبًا جماعة من الروم يحملون الفداء و الهدايا إلى الخليفة في بغداد"[1].

في ذلك قال مروان بن أبي حفصة*[2]:(الطويل):

أطفْتَ بقسطنطينيةِ الرّومِ مسندًا * * إليها القَنا حتّى اكتسى الذلَّ سورُها

وما رمْتَها حتّى أتتْكَ ملوكُها * *بجزيتِها والحربُ تغلي قدورُها

---

[1]() الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص503.

*مروان بن أبي حفصة

105 – 182 هـ / 723 – 798 م

مروان بن سلمان بن يحيى بن أبي حفصة، كنيته أبو الهيندام أو أبو السمط، ولقبه ذو الكمر.شاعر عالي الطبقة، كان جدّه أبو حفصة مولى لمروان بن الحكم أعتقه يوم الدار، ولد باليمامة من أسرة عريقة في قول الشعر، وأدرك العصرين الأموي والعباسي، وقد وفد على المهدي فمدحه ثم الهادي من بعده ثم إلى مديح هارون الرشيد ومدح البرامكة وزراء الرشيد. وعلى كثرة ما أصابه من خلفاء بني العباس وعلى يساره، فقد كان بخيلاً بخلاً شديداً، ضربت به الأمثال ورويت عنه الحكايات. ويمتاز شعره بالعراقة والجودة ومتانة الألفاظ وسداد الرأي ودافع بشعره عن العباسيين ودعى إليهم واحتج على خصومهم وعارضهم.وقد دفع ثمن تعصبه للعباسيين حياته، إذ اغتاله بعض المتطرفين من الشيعة العلويين ببغداد. ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 189/5. أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، 214/23

[2]() مروان بن أبي حفصة، شعره، جمع وتحقيق، حسين عطوان، دار المعارف، القاهرة، ط3، ص60–61، وانظر:ابن كثير، البداية والنهاية، حققه وعلق على حواشيه: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1988م. ج10، ص 157،

وفكَّت بكَ الأسرى الّتي شيَّدْتَ لَها * * محابسَ ما فيها حميمٌ يزورُها

على حينِ أعيا المسلمينَ فكاكُها * * وقالوا: سجونُ المشركينَ قبوُرها

تعدُّ الأبيات السابقة من أقدم المدح الذي قيل في الرشيد، كان يومئذٍ في إحدى المعارك مع الروم في خلافة أبيه المهدي قبل أن يتولّى إمامة المسلمين[1].

ففي الأبيات السابقة يصف الشاعر الذل والهوان اللذين حاقا بالقسطنطينية وكساها الذلّ، واضطرها الرشيد لدفع الجزية، وعتق أسرى المسلمين بدلالات توحي بالقوّة، ففي الفعل (أَتَتْكَ) دلالة على أنّه الملك المؤتى إليه، كما أشار له الشاعر بالفضل لإنجازاته الحربية التي أعيت من سبقه من الخلفاء.

فالرشيد من أولي الفضل الذين يشار إليهم بالبنان في عهده لما عُرف عنه من الحنكة الحربية و الدور القيادي الذي اتّسع ليشمل أقاصي الأرض من بناء للمدن و الحصون والقلاع، حيث " ... بنى الثغور، ومَدَّن المدن، وحَصَّن فيها الحصون، مثل طرسوس وأذنة، وعمّر المصيصة ومرعش، وأحكم بناء الحرب، وغير ذلك من دور السبب والمواضع للمرابطين، واتّبعه عماله، وسلكوا طريقته، وقَفَتْهُ رعيته مقتدية بعمله، مُسْتَنِدة بإمامته، فقمع الباطل، وصور الحق، وأنار الأعلام، وبرز على سائر الأُمم... إلخ"[2]

---

[1]() ياسين عايش خليل، هارون الرشيد في أنظار شعراء عصره، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد32، عدد5، 2001م، ص142.

[2]() المسعودي، أبو الحسن بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به وراجعه: كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2005م، ج4، ص252.

وقال فيه داوود بن رازين:[1] **(الطويل)** :

بهارونَ لاح البَدْرُ في كلِّ ظلْمة* * وقامَ به في عدل سيرته، النَّهْجُ

إمامٌ بذات الله أصبح شُغْلُهُ* * وأكثر ما يُعنى به الغزوُ و الحَجُّ

تضيقُ عيونُ النّاسِ عن نورِ وجههِ* * إذا ما بدا للنّاسِ منظرُه البَلْحُ

وإنّ أمينَ الله هارون بالنّدى* * يُنيل الذي يرجوه أضعافَ ما يرجو

وفي الأبيات السابقة تأكيد على ما عرف به الرشيد من مشاطرة حياته بين الغزو والحج. قال ابن البراء " كان الرشيد يحجُّ عامًا ويغزو عامًا"[2].

ويمكن القول إنّ الغزو والحج كانا موضع عناية الرشيد ومسلكًا نهج عليهما مدّة خلافته، وامتدحه الشعراء بهما، فهذا أشجع بن عمرو السُّلمي[3]يصور الرشيد بعد قدومه من الحج بصورة مكررة عند من مدحوه فقال[1]:

---

[1]() داود بن رزين: أبو حيي الواسطي مولى عبد القيس، كان شاعرًا محسنًا، ورد بغداد وعاشر بها أبا نواس وغيره من الشعراء، وكان راوية بشار بن برد، وله أخبار في كتب أهل الأدب، وانظر: الخطيب البغدادي، أحمد علي أبو بكر، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، 359/8.

قنيتو، عبد الرحمن إبراهيم، خلاصة الذهب المسبوك، مختصر من سير الملوك، تصحيح: مكي السيد جاسم، مكتبة المثنى، بغداد، ص108.

[2]() العكري الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، 1406هـ، 296. ابن طباطبا العلوي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، عني بنشره: محمود توفيق الكتبي، المطبعة الرحمانية، مصر، 140. سعدي ضناوي، ديوان هارون الرشيد، دار صادر، بيروت، 1998م، ص217.

([3]) أشجع السُّلمي: شاعر مدح البرامكة، فقرّبوه من الرشيد، فأعجب به، توفي نحو سنة 195هـ، وهو: أشجع بن عمرو السلمي، أبو الوليد، من بني سليم، من قيس عيلان: شاعر فحل، كان معاصرًا لبشار، ولد باليمامة ونشأ في البصرة، وانتقل إلى الرقة واستقر ببغداد. مدح البرامكة وانقطع إلى جعفر بن يحيى، فقرّبه من الرشيد،

أَلفَ الحَجَّ والجهادَ فما يَنْفَكُّ* * من سَفْرَتيْن في كُلّ عام

طَلَب اللهَ فهو يَسْعى إليه* * بالمَطايا وبالجِياد السَّوامِي

وقد أجزل الرشيد العطاء من الدراهم لممتدحيه من الشعراء، وقيل إنّ أول جائزة خرجت للشاعر إبراهيم الموصلي في مدح الرشيد إبّان توليه الخلافة، حيث أمر له الرشيد بمائة ألف درهم، وأمر له يحيي البرمكي بخمسين ألف درهم؛ لقوله[2]: (الطويل) :

ألمْ ترَ أنّ الشّمْسَ كانت مريضةً* * فلمّا وَلِي هارونُ أشرق نُورُها

فأُلبستِ الدّنيا جمالًا بوجهةٍ* * فهارونُ واليها ويحيي وزيرُها

يرى الشاعر في الأبيات السابقة أن الظلمة قد تبدّدت بولاية الرشيد، وأن ما سبقه من ولايات كان بمثابة الممهّد لولايته، وبداية لمرحلة التأسيس والتمكين، فقد حظيت الدولة العباسية بانتظام صفوفها عندما آلت الخلافة للرشيد، وأصبحت غارات المسلمين أكثر تنظيمًا على معاقل البيزنطيين، ومردُّ ذلك انتظام الأحوال الداخلية للبلاد في عهد الرشيد، فقد كانت ولاية من سبقوه تتركز في إخماد الثورات و الفتن، "وكانت الغارات و الغزوات عند أواخر الدولة الأموية وبدايات الدولة العباسية غير منتظمة، وذلك لانشغال الخلفاء بالصراعات الداخلية وإخماد الفتنة، وكذلك كان الحال بالنسبة لأباطرة الفرس"[3].

فأعجب الرشيد به، فأثرى وحسنت حاله، وعاش إلى ما بعد وفاة الرشيد ورثاه. أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط2، 220/18.

([1]) الأصفهاني، الأغاني، ج 18، ص 256.

[2]() السابق نفسه، ج5، ص253.

[3]() حسن عبد الغفار، هارون الرشيد: الخليفة المفترى عليه، مكتبة النافذة، مصر، 1989م، ص141.

الأمر الذي مكن الرشيد من تأسيس الدويلات والتوغّل في إقليم آسيا الصغرى والحصول على الكثير من الغنائم[1].فانعكس ذلك الأثر إيجابًا على صورته في أعين الشعراء ممن امتدحوه.

ومن أشد الوقائع تأثيرًا في نفوس الشعراء حادثة انتصار الرشيد في معركة هرقلة (187هـ/803م) على نقفور عظيم الإمبراطورية البيزنطية، والذي أعلن نفسه إمبراطورًا عليها إثر صراعٍ دائر على عرش بيزنطة بين ثلاثٍ من القوى، قوة الإمبراطورة إيرين وابنها الملك قسطنطين، وقوة ثالثة انحصرت في بطانة العرش، وقادات الجيوش ووزراء الدولة الساخطين على الإمبراطورية البيزنطية[2].

فكان من آثار وقعة هرقلة تلك انتصار الرشيد على نقفور وفرض الجزية عليه كل سنة، إلا أنّ نقفور نقض عهده للرشيد[3]، الذي استفزه ذلك النقض، فبعث إليه بخطاب ابتدأ بشتيمة موجهة إلى نقفور ناعتًا إيّاه: (كلب الروم) [4].

---

[1]() مدح الرشيد في معركة هرقلة (187هـ-302م).

[2]() معركة هرقلة: الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص132-132، والمسعودي، مروج الذهب، 250/1،

[3]() الطبري، تاريخ الأمم والملوك، 669/4.

[4]() السابق نفسه، 669/4، وانظر: محمد بن ناصر الملحم، العلاقات السياسية بين الدولة العباسية الدولة البيزنطية في عهد الخليفة هارون الرشيد، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية، مجلد 12، عدد 20، 2000م، ص14.

وفي ذلك يقول الحجّاج بن يوسف التيميّ[1]: (الكامل):

نقضَ الذي أعطيْته نقفور * *وعليه دائرة البوارِ تدورُ

أبشرْ أميرَ المؤمنين فإنّه* * غُنْمٌ أتاكَ به إلاله كبيرُ

فلقد تباشرتْ الرعيةُ أن أتى* * بالنَّقْض عنه وافدٌ وبشيرُ

ورَجَتْ يمينك أن تُعجِّل، غزوةً* * تشفي النفوسَ مكانها مذكورُ

أعطاكَ جِزْيَته وَطأطأَ خدَّهُ * * حذَرَ الصوارمِ والرَّدى محذورُ

فأَجَرْته من وقعها وكأنّها* *بأكفِّنا شُعَل الضِّرامِ تطيرُ

وصَرفْتَ بالطَّوْلِ العساكر قافلا* * عنه وجارُكَ آمنٌ مسرورُ

يُبدي الشاعر سروره في الأبيات السابقة، وكأنّه يزفُّ البشرى للخليفة الرشيد بنقض نقفور العهدَ، ما ترتّب عليه فرصة للاغتنام والنيل، وتعكس الأبيات الحزم الذي عرف فيه الرشيد في ولايته الخلافة، فلا سبيل للرد إلا بالسيف لإذعان نقفور وخضوعه لشرط الجزية ثمنًا لأمنه.

فمن الملاحظ أنّ التيمي بدا مستاءً من نقض نقفور للعهد وجعله عرضةً للسخرية والازدراء، ومن ذلك أيضًا قوله[2]:

لجّت بنقفور أسبابُ الرّدى عبثًا * * لما رَأتْهُ بغيلِ الليْثِ قد عَبَثا

ومن يَزُرْ غيْلهُ لا يَخْلُ من فَزَعٍ * * إنْ فات أنيابه والمِخْلبُ الشَّبِثا

---

[1] الطبري، تاريخ الطبري، ج4، ص669، وانظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، تاريخ الخلفاء، 249.

[2] السابق نفسه، ج4، ص670.

خان العهود ومَنْ ينكث بها فَعَلى* * حوبائِهِ لا على أعدائه نكثا

كان الإمامُ الذي تُرْجى فواضلُهُ* * أذاقهُ ثمر الحلمِ الذي وَرِثا

وفي اللوحات الشعرية السابقة تجسيد لمدى استياء الشعراء من نقض نقفور عهده للرشيد، فقد غضب الرشيد من خطاب نقفور الذي أرسله إليه، فكتب إليه على ظهره رسالة، قال فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم: قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه"[1].

ويتّضح من الخطاب السابق شدةُ الإرادة والحزم اللذين كان يتمتع بهما الرشيد في ولاية عهده، حيث استجمع قوة جيشه في الحال للرد على نقض نقفور، وخرج بجيش يزيد على مائة وثلاثين ألف جندي بين نظامي ومتطوع، واتّجه متوغّلا نحو بلاد الروم فحاصرها ورماها بالنفط والنار حتى فتحت أبوابها[2].

وسمح الخليفة الرشيد للشعراء الإنشاد بين يديه، "ولأول مرّة بعد زمنٍ طويل يجلس في قصره مجلسًا عامًا، ويسمح للشعراء الإنشاد بين يديه"[3].

فمن الشعراء الذين تغنّوا بالنصر لدى الرشيد أبو العتاهية، في قوله[4]:

ألا نادت هِرَقْلةُ بالخراب* * من الملك المُوفَّق بالصّواب

غدا هارون يُرعدُ بالمنايا* * ويُبْرقُ بالمذكرّة القِصاب

---

[1]() الطبري، تاريخ الطبري، ج3، ص696.

[2]() عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص439.

[3]() السابق نفسه، ص441.

[4]() أبو العتاهية (إسماعيل بن القاسم)، ديوانه، قدم له وشرحه: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، 1995، ص440، وانظر: الطبري، تاريخ الطبري، ج4، ص670، وانظر : السيوطي، تاريخ الخلفاء، 249.

ورايـاتٍ يحلُّ النَّصْرُ فيها* * تَمُرُّ كأنّها قِطَعُ السَّحاب

أميرَ المؤمنين ظَفِرْتَ فاسلمْ* *وأبشرْ بالغنيمة والإياب

ويلحظ في نبرة الشاعر المتصاعدة قوة الرشيد وحزمه. ونعته بأمير المؤمنين له دلالة خاصة توحي بتركيز الرشيد هذه الفترة على حماية راية الإسلام والمسلمين أكثر من كونه راعيًا لحمى بني العباس ودولتها.

وتستحضر الباحثة في هذا الصدد قول سعدي ضنّاوي الذي يقول فيه " إن شخصية الرشيد الأسطورية تكوّنت من ردّة فعله على النكبة ومن أمجاد الحروب والانتصارات، إذ أصبح عليه بعد نكبة البرامكة أن يقوم بأعمالٍ جليلة تحفظ له الصورة المجيدة التي بدا عليها أيام البرامكة، فكانت حروبه وغزواته، وأنه جسّد في هذه المرحلة دور الأب الديني الذي يحمي الإسلام من المشركين؛ ليثبت أنه ما زال الرشيد الموفّق بتأييد من الله، ولكي يُذهب خوف الكثيرين من زوال عزّ الدولة بعد غياب البرامكة[1].

ويلاحظ التضخيم والمبالغة لدى الشعراء في وصفهم الرشيد وانتصاره في تلك الغزوة، وإقرانهم عددًا من الألفاظ على المستوى اللغوي بالسّماء، وكأنما انتصارات الرشيد محفوفة بعناية من الله.

وأكد ذلك غير باحث، ومن ذلك ما ذهب إليه أحدهم في تحليله لمضمون أبيات أبي العتاهية، في قوله: "نلحظ أن الشاعر يلجأ على المستوى اللغوي إلى تفعيل الاسم أي نقله من الاسم إلى الفعل في قوله "يرعد"، "ويُبرق" وذلك لشحنه بالحركة وبعث الحياة فضلا عن أنها

---

[1]() سعدي صناوي، موسوعة هارون الرشيد، دار صادر، بيروت، 2001م، ج3، ص703 – 704.

أفعال ذات علاقة بالسماء ليدلّل على أنّ وراء ما يفعله الرشيد قوة إلهية تحفظه وتمنحه القوة والتأييد"[1].

كما تُلحظ المبالغة في تضخيم إنجازات الرشيد وانتصاراته في غزواته في عديد من المصادر الأدبية، المتضمنة قصائد مدح الرشيد كالصولي[2]، والأصبهاني[3]، وارتفاع وتيرة المدح حد المبالغة في تضخيم نتائج غزواته[4].

فها هو أبو العتاهية يصوِّر الرشيد بالمهدي المنتظر[5]: (الطويل):

إمامُ الهدى أصبحت بالدّين معنيًا * *وأصبحت تسقي كلّ مُسْتَمطِرٍ ريًّا

لك اسمان شقّا من رشادٍ ومن هدى * * فأنت الذي تدعى رشيدًا ومهديا

.....

وكان قضاء الله في الخلق مقضيًّا * *وأصبحَ نقفورُ لهارونَ ذميًا

من الملاحظ أن الشعراء قد سخّروا في مدحهم للرشيد جلّ الاقترانات اللغوية اللصيقة بالدين، وإبراز حماسته للدين، ونصرة الإسلام أكثر من كونه خليفة للدولة العباسية، وعرض مسؤوليته في حماية الدين تشبّهًا بالخلفاء الراشدين، لذا فإنّ نصرته على عدوّه بات أمرًا مقضيًا

---

[1]() صالح علي الشتيوي، صورة هارون الرشيد الجادة في شعر العصر العباسي الأول، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد 29، عدد 3، 2002م، ص746.

[2]() الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى (335هـ – 946م) أخبار الشعراء المحدثين، تحقيق ج، هيورث، ط2، دار المسيرة، بيروت، 1979، ص80 – 81.

[3]() الأصفهاني، الأغاني، ج18، ص250.

[4]() سعدي ضناوي، موسوعة هارون الرشيد، ج2، ص352 – 369.

[5]() أبو العتاهية (إسماعيل بن القاسم)، ديوانه، ص440.

موكول الفاعلية في الدلالة لله عز وجل، وممدودًا بنصرته الحريّ باستحقاقه لطالما كان هدف المعركة في سبيل الله لا سبيل الدنيا.

وظلت هذه النظرة للرشيد في غزوه الروم وانتصاره فيها متواترة في عيون الشعراء، ومن ذلك نستحضر أبياتًا لأبي الشيص الخزاعي[1]، يقول[2]: (الطويل):

شددْتَ أميرَ المؤمنين قوى المُلكِ * *صدعْتَ بفتح الرومِ أفئدة التُّرْكِ

قَرَيْتَ سيوف الله هامَ عدوّهِ * *وطأطأتَ بالإسلامِ ناصية الشِّرْكِ

أأصبحتَ مسرورًا وغيرك ضاحكًا* * وأصبح نقفورٌ عَلَى ملكه يبكي

ونلحظ مما تقدّم من أبيات إشارة واضحة إلى التصاق الغزو في أذهان الشعراء برفع كلمة الله، وأن قتال الرشيد بسيف الله وفي سبيل الله لرفع راية الإسلام ودحض راية المشركين.

ويبدو مما تقدم من أبيات أنّ لنظرة الشعراء تلك بعديْن لهما المساس في الإرث التاريخي والديني المتجذّر في أذهان الشعراء بما توارثوه من الخلافة على مر العصور الإسلامية السابقة لعهد الرشيد؛ البعد الأول: تاريخي بتوارث الخلافة من عهد الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فكان

([1]) أبو الشِّيص الخُزاعي الشاعر المشهور (196هـ)، كان من مداح الرشيد، ولما مات رثاه ومدح ولده الأمين. وهو: محمد بن علي بن عبد الله بن رزين بن سليمان بن تميم الخزاعي: شاعر مطبوع، سريع الخاطر رقيق الألفاظ. من أهل الكوفة. غلبه على الشهرة معاصراه صريع الغواني وأبو نواس. وانقطع إلى أمير الرقة (عقبة بن جعفر) الخزاعي، فأغناه عقبة عن سواه. وأبو الشِّيص لقب، وكنيته أبو جعفر.وهو ابن عم (دعبل) الخُزاعيّ. عُمي في آخر عمره. وتنسب إليه الأبيات التي يغنى بها، وأولها:

وَقَفَ الهَوَى بِي حيثُ أَنْتِ، فلَيْسَ لي ... مُتَأَخَّرٌ عَنْهُ ولا مُتَقَدَّمُ

خير الدين الزركلي، الأعلام، 271/6. ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 270/2. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بيروت، 23/11.

([2]) أبو الشيص الخزاعي، ديوان دعبل بن علي، شرح: حسن محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994، ص92.

العباسيون يزعمون بأن الرسول قال لجدهم العباس "الخلافة في ولدك"[1]، والبعد الثاني: ديني يجري في أذهان الشعراء بمقتضى عدّ الخلافة الإرث المقدس المتوارث من الرسول عليه الصلاة والسلام، وأنهم الورثة الشرعيون لتلك الخلافة.

ونستحضر في ذلك قول شوقي ضيف "...أقام العباسيون خلافتهم على أنهم أحق الناس بإرث الرسول عليه السلام ومضوا يحيطون أنفسهم بهالة كثيرة من التقديس... ونعجب أن نرى الفقهاء والأنقياء الذين كانوا يعارضون بني أمية ويعدّونهم دنيويين ظالمين، ينصاعون انصياعًا أعمى للعباسيين، ويعدّونهم رؤساء شرعيين للأمة من الناحيتين الزمنية والروحية"[2].

لعب الرشيد دورًا تاريخيًا مهمًا في هذه الموقعة التي كانت بهدف حماية الثغور الإسلامية، وفتح حصن الصفصاف الذي حاصره، وبعد ذلك سحقه بالكامل، وفي ذلك يورد الطبري أبياتًا لمروان بن حفصة[3]، يصور فيها بطولة الرشيد في اثنين وعشرين بيتًا، ومنها [4]: (الطويل):

وَسُـدَّتْ بِـهَـارُونَ الثُّغورُ فَأُحْكِمَتْ * * بِـهِ مِـنْ أُمُـورِ المُسْلِمِينَ المَرائِرُ

مـا انْـفَـكَّ مَعْقُـودًا بِنَـصْرٍ لِـوَاؤُهُ* * لَـهُ عسكرٌ عنـهُ تشظـى العساكـــــرُ

تردد لدى الشاعر غير لفظ يَدُلُّ على استحقاق الرشيد وِلْيه أمور المسلمين ...، فَسُدَّت الثغور بخلافة الرشيد، وتأتّى بحزم ويقظته وفطنته الحربية، وخوض غمارها التمكين للمسلمين

---

[1]() ابن طباطبا العلوي، محمد بن علي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص101.

[2]() شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، ص20.

[3]() انظر للاستزادة عن مروان بن حفصة: الطبري، التاريخ، ج5، ص16.

[4]() مروان بن أبي حفصة، شعره، ص34.

في الأرض بين الولايات الأخرى، وقد تكرّرت الصورة السابقة لدى غير شاعر، مع مزيد من المبالغات التي كان شعراء هذا العصر يتحلون بها، ومن ذلك قول أبي نواس[1]: (الوافر) :

بَراكَ اللهُ لِلإسلامِ عِزًّا * * وَحِصنًا دونَ بيضَتِهِ حَصينا

لَقَد أَرهَبتَ أَهلَ الشِركِ حَتّى* *تَرَكتَهُمُ وَما يَتَذَمَّرونا

تَزورُهُمُ بِنَفسِكَ كُلَّ عامٍ* * زِيارَةَ واصِلٍ لِلقاطِعينا

اقترنت صورة الرشيد في ذهن الشاعر بالعزّة للإسلام ونصرته على أهل الشرك، وصوّر وصْلهُ في غزوِ أعداءِ المسلمين كلَّ عامٍ على نحْوٍ من تآلف المتنافرات بين قطبَيْ الاستعارة، وأنّ غاراته على معاقل المشركين بمثابة وصل للقاطعين على غرار واصل الرحم بأن يخشى مغبّة قطعهم.

ولم يكفّ الشعراء عن إضفاء صفة الشرعية على خلافة الرشيد وإمامته، بل أكثروا من ذلك، كقول مروان بن أبي حفصة[2]: (الرجز):

موسى وَهارونُ هُما اللَذانِ * * في كُتُبِ الأَخبارِ يوجَدانِ

مِن وَلَدِ المَهدِيّ مُهدِيّانِ * * قُدّاً عِنانَينِ عَلى عِنانِ

قَد أَطلَقَ المَهدِيُّ لي لِساني* *وَشَدَّ أَزري ما بِهِ حَباني

---

[1]() أبو نواس (الحسن بن هانئ)، الديوان، ص559.

[2]() ابن أبي حفصة، شعره، ص110.

بيّن الشاعر أنّ خلافة العباسيين حقٌّ متوارث منقول في الأخبار ومبشّرٌ بهم في الكتب، وقدكرر الشاعر – مثل غيره من الشعراء – لفظة (المهدي)إيحاء إلى اللقب الذي كان يدّعيه العباسيون لأنفسهم بعد قيام دولتهم[1]، ومن ذلك قول أبي نواس[2]: (الرجز):

في كلِّ عامٍ غزوة ووفادة * * تنبتُ بين نواهما الأقران

حجٌّ وغَزْوٌ، مات بينهما الكرى * * اليَعمُلاتِ شِعارُها الوَخَدانُ

يَرمي بهنَّ نياطَ كلِّ تَنوفَةٍ[3] * * في اللهِ رَحّالٌ بِها ظَعّانُ

حتى إذا واجهْنَ إقبال الصفا * * حتى الحطيم، وأطت الأركان

يصلي الهجير بغرَّة مهدية * * لو شاء صان أديمَها الأكنانُ[4]

وفي الأبيات تأكيد الصورة **المكررة** الحاضرة في أذهان الشعراء حول شخصية الرشيد، في جعل حياته عامًا بين شطرين؛ الغزو والوِفادة، وهذا مما قد عُرِف به الرشيد في سنوات خلافته بأن كان يحجّ عامًا ويغزو عامًا.

وبرز الشاعر منصور النمري في وصفه الخليفة وفرسه على إثر وقعة الصفصاف، بقوله:[5] (الطويل) :

---

[1]() صالح علي الشتيوي، صورة هارون الرشيد الجادة في شعر العصر العباسي الأول، ص751.

[2]() أبو نواس، الديوان، ص561.

([3]) التَنُوفةُ الأَرضُ القَفْرُ، وقيل: البعيدةُ الماء، قال الجوهري: التَّنُوفةُ المَفازةُ. الجوهري، إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، مادة(تنف).

([4]) الهجير: اشتداد الحرّ. الأديم: الجلد. الأكنان: الستر.

[5]() الطيب العشاش، شعر منصور النمري، دار المعارف للطباعة، دمشق، 1981م، ص82.

مُضِزٌّ[1] على فأسِ اللجامِ كأنّهُ * * إذا ما اشتكت أيدي الجيادِ يطِيرُ

فظلَّ على الصّفصاف يومٌ تباشرتْ * * ضِباعٌ وذُؤبانٌ به ونسورُ

فأقسِمُ لا يَنْسَى لك اللّه أجرها * * إذا قُسِّمت بين العبادِ أجورُ

ويلحظ مما تقدّم من أبيات أن صورة الخليفة الفارس الفذّ لا تبارح أخيلة الشعراء في جلّ تشكيلاتهم التصويرية، حتى فرس الخليفة كان لها في صورهم نصيب. وجعل الشاعر أجر الخليفة موصولا بالله لا بين العباد كناية عن العظمة والديمومة لمواقف الرشيد في غزواته واستحقاقه النصر.

(1) يقال أَضَرَّ الفرسُ على فأْسِ اللَّجامَ إذا أَزَمَ عليه مثل أَضَزَّ بالزاي وأَضَرَّ فلانٌ على السَّيرِ الشديدِ أَي صَبَرَ، وإنه لَذُو ضَرِيرٍ على الشيء إذا كان ذا صبْر عليه. ابن منظور، لسان العرب، مادة (ضرر).

2- صورة مدح الرشيد في الجانب الإداري /الوظيفي:

حرص الرشيد منذ ولاية عهده على انتقاء كبار مسؤولي الدولة من القادة العسكريين والوزراء ومتنفذي الرأي في الدولة، وانبنت صلة روحية بين الرشيد ومعلّمة الأول يحيى بن خالد البرمكي[1] الذي سرعان ما منحه الرشيد خاتم الوزارة لما رآه فيه من الحنكة والكفاية من الناحية السياسية.

وكان لاتّساع نفوذ البرامكة أثرٌ في أخيلة الشعراء في امتداحهم الذي اقترن بخلافة الرشيد، ومن ذلك قول مروان بن أبي حفصة: (الطويل):

ظَفِرْتَ فلا شُلَّت يدٌ برمكيّةٌ * *رتَقْتَ بها الفتْق الذي بين هاشمِ

على حين أعيا الراتقين التئامة * * فكفّوا وقالوا ليس بالمتلائمِ

فأصبحتَ قد فازت يداك بخطّةٍ * * من المجد باقٍ ذكرها في المواسمِ

وما زال قدْحُ الملك يخرج فائزًا * * لكم كلّما ضُمَّت قداحُ المساهمِ

تعيش صورًا أربعة في ذهن الشعراء المادحين للرشيد هي:

1- صورة امتداد سلطان الرشيد.

([1]) يحيى البرمكي(120 - 190 هـ = 738 - 805 م) يحيى بن خالد بن برمك، أبو الفضل: الوزير السري الجواد، سيد بني برمك وأفضلهم، وهو مؤدب الرشيد العباسي ومعلمه ومربيه. ولما ولي هارون الخلافة دفع خاتمه إلى يحيى، وقلده أمره، فبدأ يعلو شأنه. واشتهر يحيى بجوده وحسن سياسته. واستمر إلى أن نكب الرشيد البرامكة فقبض عليه وسجنه في " الرقة " إلى أن مات، فقال الرشيد: مات أعقل الناس وأكملهم. ترجمته في: ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد: وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م، 243/2، وابن كثير، البداية والنهاية، 10/ 204، خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، 2002م، 144/8.

2- صورة حكمته في اختيار رجال دولته.

3- صورة حنكة وزرائه ومنهم البرمكي واقتدارهم في حلّ النزاعات.

4- مدح الرشيد وهو يفوز بأمثالهم.

وصورت الأبيات قدرة الوزير يحيى البرمكي في إخماد ثورة يحيى بن عبد الله بن الحسن العلوي الذي خرج في الديلم سنة 176هـ، وقدرته في تسوية الخلاف بين أبناء هاشم في الوقت الذي عجز فيه غيره عن ذلك[1].

وبالغ الشعراء في مدحهم رابطين بين الرشيد ووزرائه من البرامكة، فها هو أحد الشعراء يذكر الرشيد وجعفر[2] ولد يحيى بن خالد البرمكي، إذ يقول[3]: (الكامل):

قد تُقطَع الرَّحِمُ القريبُ وتُكفَر * * النُّعمَى ولا كَتَقارُب القَلْبينِ

يُدْنِي الهَوَى هذا ويُدْنِي ذَا الهَوَى * * فإذا هُما نَفْسٌ تُرَى نَفْسَيْنِ

---

[1]() الأصفهاني، الأغاني، ج17، ص 26.

([2]) جعفر البرمكي (150 - 187 هـ = 767 - 803 م) جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، أبو الفضل: وزير الرشيد العباسي، وأحد مشهوري البرامكة ومقدميهم. ولد ونشأ في بغداد، واستوزره هارون الرشيد، ملقيا إليه أزمة الملك، وكان يدعوه: أخي. فانقادت له الدولة، يحكم بما يشاء فلا ترد أحكامه، إلى أن نقم الرشيد على البرامكة، نقمته المشهورة، فقتله في مقدمتهم، ثم أحرق جثته بعد سنة. وكانت لجعفر توقيعات جميلة. وهو أحد الموصوفين بفصاحة المنطق وبلاغة القول وكرم اليد والنفس، قالوا في وصف حديثه: (جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة، وإفهاما يغنيه عن الإعادة) وكان كاتبا. في ترجمته: الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، 62/9. وخير الدين الزركلي: الأعلام، 130/2-131.

[3]() صريع الغواني (مسلم بن الوليد)، شرح ديوان صريع الغواني، تحقيق: سامي الدهان، دار المعارف، مصر، ص7. الأصفهاني، الأغاني، ج 18، ص 210.

غالى الشاعر في وصف القرب الروحي بين الرشيد وجعفر وشدة المداناة لبعضهما وكأنهما باتا نفسًا واحدًا، وقد أشاد مسلم بن الوليد بحكمة الرشيد في تعيينه يزيدَ بن مزيد الشيباني قائدًا للجند، يقول[1]: (البسيط):

نابَ الإمام الذي يفترُّ عنه إذا* * ما افترَّت الحرب عن أنيابِها العُصُلُ[2]

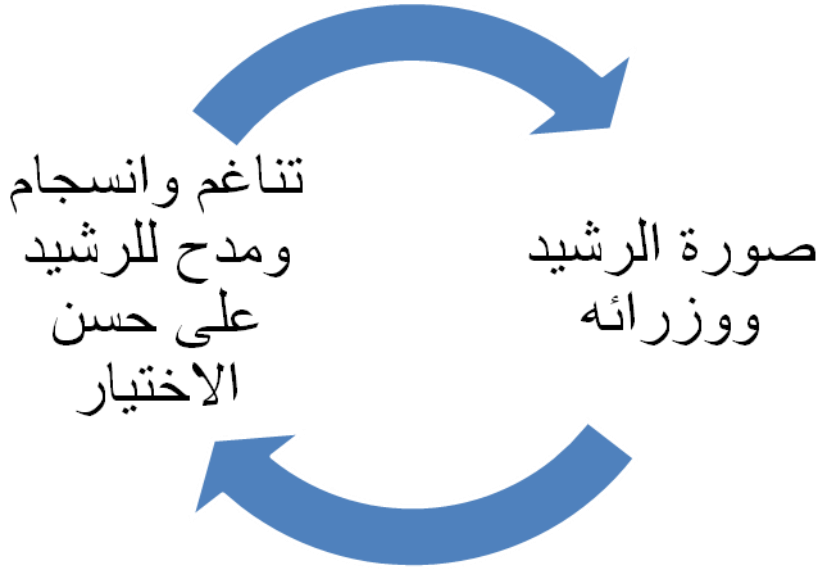

ولكلثوم العتابي قصيدة يظهر فيها يقظة الرشيد في ولاية أمور الرعية وحفاظه على الدين، يقول[3] : (الطويل) :

إِمَامٌ لَهُ كَفٌّ يَضُمُّ بَنَانُهَا * * عَصَا الدِّينِ مَمْنُوعًا مِنَ الْبَرْيِ عُودُهَا

وَعَيْنٌ مُحِيطٌ بِالْبَرِيَّةِ طَرْفُهَا * * سَوَاءٌ عَلَيْهِ قُرْبُهَا وَبَعِيدُهَا

---

[1]() محمد بن شاكر، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1974م، ج4، ص 138.

([2]) أنيابها العصل: أي المعوجّة.

3() الأصفهاني، الأغاني، ج13، ص139.

وأسمعُ يقظانا يبيتُ مُناجيا * * له في الحشر مستودعات يكيدها

سميعٌ إذا ناداه من قعر كربةٍ * * منادٍ كفته دعوة لا يعيدها

يصور العتابي الرشيد بصورة الحارس للدين والرعية والمسؤول عن حمايتهما، وأن له دعوة لا تُردُّ، كما قرن بشخص الرشيد اليقظة والمناجاة أي السعي والتوكل وهو وصف لا يخلو من الحضور القوي لالتزام الرشيد وتقواه في مخيلة الشعراء.

ولم يخل الأمر لدى بعض الشعراء من الجنوح إلى تقريع الرشيد في بعض الأشعار فيما يخصّ البرامكة، وولاة العهد تحديًدا، ستعرض لهما الباحثة في سياق هذا الفصل.

فمن حيث الجانب الإداري الممثّل بظفر البرامكة بالوزارة وبدافع قربهم من الرشيد، أصبحوا من أولي الطول في التصرف بأمور الخلافة منذ تفويض الرشيد الأول ليحيى بن خالد البرمكي لتوليه وزارة الدولة سنة (178هـ/ 794م) [1]، الذي كان بسبب مساعدتهم له للوصول إلى منصب الخلافة[2].

ولا يخفى ما لإدارة البرامكة من إصلاحات وتدابير سياسية واسعة جعلت الدولة العباسية في مصاف الدول التي يشار له بالبنان، فقد قيل: "إن أيامهم عرس وسرور دائم لا يزول"[3]، كما وصفت وزارتهم بالدولة: "وكان مدة دولة البرامكة وسلطانهم وأيامهم النضرة الحسنة من استخلاف هارون الرشيد إلى أن قتل جعفر بن يحيى بن خالد ابن بَرْمَكٍ سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يومًا، وقد رثتهم الشعراء بمَرَاثٍ كثيرة، وذكرت أيامهم"[4].

---

[1]() الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص637.

[2]() الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص114، و كذلك المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص280.

[3]() المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص310.

[4]() السابق نفسه، ج3، ص313.

وتزامنت مساعي الرشيد الإدارية في عهد البرامكة بإصلاحات أخرى عمرانية وفكرية على أوسع نطاق. "فقد عزلت الثغور عن الجزيرة...، وجعلت حيزًا واحدًا مستقلا سُمّي (العواصم) أي القِلاع والمدن التي يعتصم بها الجند المعدُّ في ساعة للجهاد، والتي أصبحت حدودًا عسكرية ثابتة للدولة، يغزو منها المسلمون بلاد الروم في كل عام دون انقطاع، بعد أن كانت حدوداً تمتد وتتقلص بحسب الغارات التي كانت تُشَنُّ من المسلمين وجيوش الروم"[1].

إلا أن ما سبق لم يَحُلْ دون تدخل البرامكة في شؤون الدولة المباشر لسطوتهم على الرشيد، فقد تداولت الأخبار البذخ غير المبرر لهم خاصة فيما يتعلق بأمر استمالة أفراد الدولة إلى جانبهم، مما يعكس استهتارا منهم وسوء تصرف في إدارة أموال الرعية التي كانت تهدر دون وجه حق، مما عرّض شخص الرشيد لانتقاد الشعراء في بعض أشعارهم دون التصريح بأسمائهم مغبّة التعرض للمساءلة، ومن ذلك قول الشاعر[2] :

وما تصنعُ بالسَّيْفِ * * إذا لم تَكُ قتّالاً؟

فكسِّرْ ذهبَ السّيف * * وصِفْهُ لكَ خلخالاً

ففي البيتين السابقين ما يشي بشعور تولّدَ لدى البعض بامتعاض الحق في بيئةٍ ذهب مترفوها من ولاة ووزراء وإداريين إلى التنعم والبذخ والإسراف حدّ المبالغة.

فثمة سخرية لاذعة في البيتين السابقين لمظاهر البذخ والترف اللذين عرفت بهما الطبقة الحاكمة من أولي الطول في السلطة من البرامكة تحديدًا.

وكان البذخ والترف نتيجة التضخم النقدي الفاحش لدى فئة من ولاة أمور الدولة، وكان ذلك مأخذًا من المآخذ التي أخذها الشّعب على الرّشيد في ولايته.

---

[1]() الطبري، تاري الأمم والملوك، ج4، ص620.

[2]() عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص155.

"ولم يستطعْ بعض أقسام الطبقة الوسطى من هذا المجتمع أن يصمد أمام هذه التيارات العارمة من البذخ والإسراف في اللذائذ والتمتع، فانجرف معها وإن لم يستطع مجاراتها، فكثر الدائن والمدين، والراهن والمرتهن والمرابي، وانتعشت طبقة الصيارفة، وكان جلّ أفرادها من اليهود الذين أدّوا دورا خطيرا في هذا المجال لامتصاص أموال بعض هذه الطبقات، عن طريق الربا والقروض التي تُستردُّ بربح باهظ، قيل إنه بلغ حد النصف ما اضطر حكومة الرشيد إلى تعيين (المحتسبين) لمراقبة أعمالهم، وتفتيش حساباتهم، والإشراف على معاملاتهم لتكون جارية على سنن الشريعة والعدل[1]، فضلا عن استغلال البرامكة لنفوذهم السياسي وكسبهم حق التصرف في أموال الدولة دونما حساب أو رقيب.

وقد أبدى غير شاعرٍ قلقه من علاقة الرشيد بالبرامكة، واتّساع سطوتهم في البلاد، ومن ذلك قول الشاعر[2] : (السريع):

هذا ابن يحيى قد غدا مالكًا * * وأمره ليس له ردُّ

وقد بنى الدار التي ما بنى الـ * * فرس لها مثلا ولا الهند

والدُّرُ والياقوتُ حصباؤها * * وتربها العنبر والند

ونحن نخشى أنّه وارثٌ * * ملكَكَ إن غيَّبَكَ اللَّحْدُ

ولن يُباهي العبدُ أربابهُ * * إلا إذا ما بَطِرَ العبْدُ

---

[1]() عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص 159.

[2]() ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد: وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، ج1، ص335.

لفت الشاعر نظر الرشيد إلى دولة البرامكة الآخذة بالتطاول والاتساع، ويحاول أن يزج في تلك الأبيات تمريرات تومئ بسياستهم التي غدت في التطاول تماثل ملك العباسيين، ويبدي الشاعر كذلك خَشْيته من أطماع البرامكة وتقدير مدى خطورتها على الدولة وهيبتها.

ومن اللافت كذلك في الأبيات آنفة الذكر– على حد قول ياسين عايش – : "عدم ذكر قائلها، والمظنون أن صاحبها خشي على نفسه فأشاع القصيدة، وكتم الاسم، لأسباب هي:

1– أنّ المهم عنده أن يصل مضمونها إلى الخليفة.

2– انكشاف مضمون الرسالة حتى لكأن قائلها من جمهور المتأدبين صاغ رؤيته في قوالب شعرية وحسب، ولم يلتفت إلى جماليات الشعر وأساليبه.

3– معرفة القائل وتفطنه إلى ما يستثير في الرشيد كل مكامن الاستشارة على البرامكة من تصرف في أموال الدولة، وبناء الدور الفخمة، وتسيير شؤون الحكم دون الرجوع إلى الخليفة"[1].

ورغم أن البرامكة كانوا خاضعين لحكم الدولة العباسية وهيمنتها وسيادة لغتها العربية ودينها الإسلامي إلا أنهم لم ينحلوا من نزعة التطرف، والانتصار للأقليات غير العربية "فهناك الأسر الفارسية التي كانت تفتخر بعنصرها، وفي مقدمتهم وزراء الدولة من البرامكة وغيرهم من رجال حاشية الرشيد، وكبار التجّار ومشاهير العلماء، كما أنهم كانوا يتكلمون الفارسية فيما بينهم، وفي بيوتهم، وفي الأسواق، وكثير منهم من كل يفضل قوميته على القومية العربية، ويؤزار الشعوبية ضد العنصر العربي"[2].

---

[1]() ياسين عايش خليل، هارون الرشيد في أنظار شعراء عصره، ص153.

[2]() عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص160.

وفي ظل تكدّس تلك الفئات ظهرت فئة ناقمة على الطبقة الحاكمة وأولي الأمر من البرامكة الذين نهجوا في سياستهم نهجًا وصل حدّ التوغّل الطبقي بين أفراد الشعب؛ فبرزت فئة من المعوزين الذين عانوا من جريرة الفقر في مقابل الترف والبذخ الماثل في آل برمك الذين كانوا يتمتعون بصلاحيات إدارية وتجارية واسعة، ووصلوا حد الثراء الفاحش مما أثار عليهم النقمة، ومن ذلك قول أبي العتاهية في أبيات يشكو فيها غلو الفقر وقسوة الحاجة[1]: (مجزوء الكامل) :

مَن مُبلِغٌ عَنّي الإما * * مَ نَصائِحاً مُتَوالِيَه

إِنّي أَرى الأَسعارَ أَس * * عارَ الرَعِيَّةِ غالِيَه

وَأَرى المَكاسِبَ نَزرَةً * *وَأَرى الضَرورَةَ فاشِيَه

وَأَرى غُمومَ الدَهرَ را * * ئِحَةً تَمُرُّ وَغادِيَه

وَأَرى المَراضِعَ فيهِ عَن * * أَولادِها مُتَجافِيَه

وَأَرى اليَتامى وَالأَرا * *مِلَ في البُيوتِ الخالِيَه

مِن بَينِ راجٍ لَم يَزَل * *يَسمو إِلَيكَ وَراجِيَه

يا ابنَ الخَلائِفِ لا فُقِد * * تَ وَلا عَدَمتَ العافِيَه

إِنَّ الأُصولَ الطَيِّبا * * تِ لَها فُروعٌ زاكِيَه

أَلقَيتُ أَخباراً إِلَي * * كَ مِنَ الرَعِيَّةِ شافِيَه

---

[1]() السابق نفسه، ص162

يشكو أبو العتاهية في هذه الأبيات للإمام، مبتدئا باستفهام يفيد التبليغ "من مبلغ الإمام عني"، ونستشف من هذه المناجاة أن الشاعر لم يفقد الأمل في عدل الرشيد، وهو يتوسم فيه خيرًا في رفع المظالم، ويتوسل بأصله الطيب في الاستماع لأخبار الرعية.

أمّا فيما يتعلق بأمر ولاة عهد الرشيد، فقد عرف عن الرشيد أنه كان يميز في المعاملة بين أولاده، وكان "يفضل البعض بشكل مبالغ فيه، لدرجة أنه تمنّى زوال صفة حسنة من أحد أولاده لآخر كان يحبه"[1]. حيث كان يتمنى بلاغة محمد الأمين لعبد الله المأمون[2]. ففي عام (175هـ /791م) اقتضى الأمر من الرشيد تعيين ولي للعهد كي يخلفه؛ فليس له من يرث عرشه سوى أبنائه، فاتجهت الأنظار إلى عبد الله بن مراجل (المأمون) بحكم أنه الابن الأكبر للرشيد، لكنّ زبيدة زوجة الرشيد أرادت الولاية لابنها محمد الأمين وأصرّت على ذلك، محتجّة بأنه هاشمي الأبوين، وأنه من امرأة حرة لا من جارية كما المأمون، ولاقى مطلبها تأييدًا من حاشية البلاط المقربين لها، فانقسمت الآراء بين التأييد والمعارضة. وانتهت البيعة لصالح محمد الأمين ابن زبيدة على الرغم من أن المأمون ولد قبل الأمين بحوالي ستة أشهر[3]. فانقسم الشعراء إلى حزبين متعارضين من موقف الرشيد الذي سيؤدي فيما بعد إلى التباغض والانقسام والتحزّب والتضليل.

---

[1]() الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى ت335هـ / 1946م، أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، تحقيق: ج، هيورث، (د.ت) ط2، دار المسيرة بيروت، 1979م، ص93.

[2]() التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد (ت414هـ 1023م)، البصائر والذخائر، تحقيق: داوود القاضي، دار صادر، بيروت، د.ت، ج6، ص214 – 215.

[3]() الطبري، تاريخ الطبري، ج8، ص233.

فكان إعلان ولاية الأمين سنة 175هـ، وضمّ إليه الرشيد الشام والعراق[1]، وكانت مبايعة المأمون سنة 182هـ وليا ثانيًا للعهد[2] : (السريع) :

قد وفق الله الخليفة إذ بني * * بيت الخلافة للهجان الأزهر

فهو الخليفة عن أبيه وجده * * شهدا عليه بمنظر وبمخبر

قد بايع الثقلان في مهد الهدى * * لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر[3]

قيلت الأبيات السابقة في محفل أقيم أمام الأمين وبين يدي الرشيد ألقاها الشاعر سلم الخاسر، ومما يذكر أن زبيدة طلبت أن يُملأ فوه الشاعر بالجواهر فملئ[4].

وفي بيعة الرشيد لأبنائه ما يشي بالتناحر والاقتتال، ومن الرواة من أنبأ بوقوع الفتنة بين الإخوة في المستقبل ما يشي بنقص حكمة الرشيد، ففي هذا الجانب يقول المسعودي: "أقول: إن السيوف سَتُسلّ، والفتنة ستقع، والتنازع في الملك سيظهر.. أما ترى البعير واقفًا، والرجلان يتنازعان، والغرابان قد وقفا على الدم والتطخا به، وإليه لا يكون آخر هذا إلا محاربةً وشرًا"[5].

ومن الذين سفّهوا صنيعة الرشيد في ذلك، العُماني[6]، بقوله[1]: (الرجز):

1() السابق نفسه، ج8، ص240.

2() اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، طبعة ليدن، 1883م، ج2، ص415.

3() الطبري، تاريخ الطبري، ج4، ص626.

4() الأصفهاني، الأغاني، ج7، ص123.

5() المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص292-293.

(6) محمد بن ذؤيب بن محجن بن قدامة العماني الراجز، يكنى أبا العباس، وهو أحد بني فقيم بن جرير بن دارم بن مالك بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم، واشتهر بالعماني لأنه كان شديد صفرة اللون.. وهو شاعر راجز من مخضرمي الدولتين، بصري المنشأ، عمر طويلاً، روى الأصمعي: أنه مات وهو ابن ثلاثين ومائة سنة، وهو من أهل الجزيرة وقيل من ديار مصر وإنما خرج إلى عمان فأقام بها أعوامًا مديدة ثم عاد، وهو أحد شعراء الرشيد، وأخباره معه كثيرة.

ما الناسُ إلا غنمٌ تُنشَّرُ * * إن لم تداركْهم براعٍ يخطرُ

على قواصي طرقها ويستر * * ويمنع الذئب فلا ينفَّرُ

فامنُنْ علينا بيدٍ لا تُكْفَرُ * * مشهورةٍ ما دام زيتٌ يعصر

لا خير في مجمجم لا يظهرُ * * ولا كتابِ بيعةٍ لا يُنْشَرُ

إلا أنه حينما سمّى الرشيد محمدًا وليا للعهد انحرفت رؤية الشاعر في هذا الجانب، يقول:[2] (الرجز):

وقُلِّدَ الأمرُ الأغرُّ الأزهرُ * * وابتهجَ النَّاسُ واستبشروا

وهلَّلوا لربِّهم وكبّروا * * شكرًا ومن حقِّهم أن يشكروا

إذا ثُبِّتَ أوتادُ مُلْكٍ يُعْمَرُ * *والله والله الذي يُسْتَغْفَرُ

لأنْ يموتُ معشر ومعشرُ * * خيرٌ لنا من فتنةٍ تُسَعَّرُ

وقد اتخذت عدد كبير من الأشعار المنحى المؤازر والمؤيد لما ذهب إليه الرشيد، لكنّ ذلك سرعان ما تبدّد لما نشأ من خلاف بين الأخوين بسبب خرق الأمين استقلالية المأمون في خراسان وما نشب بينهما من خلاف[3]، مما حدا ببعض المؤرخين إلى تغليب روح التحزّب

انظر: الأغاني، 326/18، والمبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، 104/3، وانظر: السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، 1952م، 249/1، والخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 270/5.

[1]() الأصفهاني، الأغاني، ج18، ص232.

[2]() الأصفهاني، الأغاني، ج 18، ص 321.

[3]() اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص434.

والانتصار للمأمون، والإشارة والتضخيم لشخصه مقابل المبالغة بالأمين المخلوع الذي حُمِّل بأسوأ الصفات، ورُمي بكل قبيح.

ومن خلال ما تقدم تستنتج الباحثة غلواء الشعراء في مدح شخص الرشيد، وأن صورة الممدوح المبالغ في تضخيمها لا تبارح أخيلتهم إلا ما ندر؛ حيث يستثنى منها بعض الأشعار التي تأخذ عليه بعض المآخذ، ولكن لا على سبيل التعريض والمباشرة، وإنما جاءت على استحياء لاغزٍ وحذر، أو من قبيل بث الشكوى، الذي يندرج تحت ظاهرة قناعة الشعراء بعدل الرشيد وإنصافه على ما غلفها من مؤشرات خارجية أنها لم تحد بصورة الرشيد حدا في أن يجاهره الشعراء بنقاط الضعف بشخصه أو القدح بولايته بوصفه الخليفة، والقائد على إمرة المؤمنين ورعاية مصالح الرعية.

المبحث الثاني:
صورة البعد الاجتماعي والإنساني للرشيد.

تميز الرشيد بعدد من الصفات الإنسانية التي لفتت إليه أنظار المؤرخين والشعراء على حدّ سواء.

ومن ينعم النظر في أقوال الشعراء في شخصية الرشيد يجدها محاطة بهالةٍ من التعظيم لشخصه، والصورة المثلى التي حظي بها ما ينبئ عن حسّ عالٍ لدى الرشيد بالقيم الروحية والإنسانية.

1. التقوى والزهد عند الرشيد:

عُرف الرشيد بتقواه وكانت هذه من أبرز الصفات التي اشتهر بها، فمما عرف عنه أنه كان يحج عامًا ويغزو عامًا[1].

وأشار الطبري إلى ذلك في معرض حديثه عن فتح الرشيد مدينة هرقلة سنة (190هـ، 806م) أنه أتخذ قلنسوة مكتوبًا عليها "غاز حاج" [2].

وفي ذلك يقول أبو نواس[3]: (الكامل):

هارونُ أُلِّفَنا اِئتِلافَ مَوَدَّةٍ * *ماتَت لَها الأَحقادُ وَالأَضغانُ

في كُلِّ عامٍ غَزوَةٌ وَوِفادَةٌ * *تَنبَتُّ بَينَ نَواهُما الأَقرانُ

---

[1]() الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص132، وما بعدها.

[2]() الطبري، تاريخ الطبري، ج4، ص 677، الذهبي، شمس الدين، تاريخ الإسلام ، تحقيق: عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1987م، 44/12، وانظر: الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص132.

[3]() أبو نواس، الحسن بن هاني، ديوان أبي نواس، تحقيق: أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، ص404.

حَجٌّ وَغَزوٌ ماتَ بَينَهُما الكَرى * * اليَعمُلاتِ شِعارُها الوَخَدانُ

يَرمي بِهِنَّ نِياطَ كُلِّ تَنوفَةٍ * * في اللهِ رَحّالٌ بِها ظَعّانُ

يحرص الشاعر على إبداء الجانب الإيجابي في شخص الرشيد، والمبالغة في ذلك حدّا جعل حياته مشاطرة بين الغَزْوِ والحَجّ.

وهنالك بعض النصوص التاريخية التي أوردت أوصافا مبالغا بها أثناء تأدية الرشيد مناسك الحج كتأزره ومشيته التي وصف من خلالها بالجلالة والمهابة[1].

يقول أبو نواس في ذلك: (الكامل) :

إنّ العُيونَ حُجِبْنَ عنكَ بهيبةٍ * * فإذا بدأت بهنّ نُكّسَ ناظِرُ[2]

فمن الملاحظ أن للرشيد مهابة تجلب الأنظار، وتنكّسها لبهوه ولحضوره إجلالا وتهيُّبًا من شخصه.

كما يصوره العماني، بقوله[3]: (الرجز):

يا ناعِشَ الجَدّ إذا الجَدُّ عَثَرْ * * وجابِرَ العَظْمِ إذا العَظْمُ انْكَسَرْ

---

[1]() الجاحظ، عمرو بن بحر ت (255م، 868م)، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، (د.ت)، دار اليل، بيروت، د.ت)، ج1، ص126 و كذلك، التوحيدي أبو حيان علي بن محمد (ت 414هـ، 1023م)، البصائر والذخائر، تحقيق: وداد القاضي، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ج6، ص38. و كذلك: الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (ت538هـ / 1143م)، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق: مجموعة من المحققين، الهيئة المصرية العامة للكتابة، القاهرة، 1980م – 1992، ج2، ص574. و: المبرد، محمد بن يزيد (285 / 898م)، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل، والسيد شحاتة، (د.ط)، مكتبة النهضة، القاهرة، 1956، ج2، ص163.

[2]() أبو نواس، ديوانه، ص257.

[3]() الأصفهاني، الأغاني، ج18، ص318.

أنتَ ربيعِي والرَّبيعُ يُنْتَظَرْ * * وخَيرُ أنواءِ الرَّبيع ما بَكَرْ

فالأبيات السابقة تدلل على حسن الرشيد للخلق والمحتاجين، وسعيه الدؤوب لأن يعمَّ الخير ويجبر ما كسر.

ومن الروايات التي حملتها كتب التراث عن تقوى الرشيد ما صوره أشجع بن عمرو السلمي عندما دخل على هارون الرشيد حين قدم من الحج وقد مطر الناس يوم قدومه، فصوره يقول منها [1]:

فيَداهُ يَدٌ بمكَّة تدْعوهُ * * جَلَب الغَيْثَ من متونِ الغمامِ

ومما عُرف عن الرشيد رهافة حسه، وتأثره بأحوال الخلْق، وحرصه على مصالح رعيته، حيث ورد عن المسعودي رواية لسفيان بن عيينه ت (198هـ) أن أحد الوعاظ المعروف بابن الفضيل بن عياض وعظ الرشيد فأبكاه[2].

ولم يقتصر دور الرشيد بوصفه واليًا، وإنما كان إمامًا عادلا يتوخّى العدل لاستقامة أمور الرعية، وقد صور الموصلي استقامة أمور الدولة بعدل الرشيد بسكون الظباء إلى الحرم.

ولم يكن ذلك الوصف من باب المجاملة للخليفة، فمما أورده الجاحظ عن الرشيد: "كان الرشيد أشد الملوك بحثا عن أسرار رعيته وأكثرهم بها عناية وأحزمهم فيها أمرا"[3].

كما صور يوسف بن الحجاج[1] الرشيد بأعذب صفة، وهي غوث المحتاجين، يقول[2]:

([1]) الأصفهاني، الأغاني، ج 18، ص 256.

[2]() حدث سفيان بن عُيَيْنَةَ قال: دعانا الرشيد، فدخلنا عليه ودخل الفضيل آخرنا مقنعًا رأسه بردائه، فقال لي: يا سفيان، أيهم أمير المؤمنين؟ فقلت: هذا، وأومأت إلى الرشيد، فقال له: أنت يا حَسَنَ الوجه، الذي أمر هذه الأمة في يدك وعنقك، لقد تَقَلَّدْتَ أمرًا عظيمًا، فبكى الرشيد، :المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص293.

[3]() الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص233.

أيَاغيثًا تحملُ النا * * قةُ أم تحملُ هارونا

أم الشَّمْسُ أم البدرُ * * أمِ الدُّنيا أم الدِّينا

ألا كلَّ الذي عدّدْ * * تُ قدْ أصبحَ مقرونا

على مفرِقِ هارونَ * * فداهُ الآدميّونا

فالغيث في الأبيات السابقة جعله الشاعر المعادل الموضوعي لشخص الرشيد بإعانته للرعية وغوثهم، والتلهّف لنصرتهم، فمما روي عن الرشيد: "أنه كان في أيام استقرار أموره، يقسِّم أعماله في ليالي أسبوعه؛ فليلة للوزراء، يذاكرهم في أمور الناس ويشاورهم في المهم منها، وليلة للكتّاب يجمع رؤساءهم ويحاسبهم عما لزم من أمور المسلمين، ويرتب لهم ما ظهر من صلاح أمورهم، وليلة للقوّاد وأمراء الأجناد، يذاكرهم في شؤون الأمصار، ويوقفهم على ما تبين من صلاح الكور، وسدّ الثغور، وليلة للعلماء والفقهاء، وليلة للقرّاء والعبّاد، وليلة يخلو فيها لنفسه لا يعلم أحدٌ – قربَ أو بَعُدَ– ما يصنع ولا يشكّ أحد في أنها خلوة عبادة واستغفار"[3].

ولا يخفى ما لتلك الروايات من تكريس المنظور القيمي حول تقوى الرشيد عهد خلافته التي تآزرت معه بالضرورة رؤية الشعراء في جلاء أخلاق الرشيد وورعه وتقواه.

([1]) يوسف بن الصقيل: هو يوسف بن الحجاج الصقيل الكوفي، كان يصحب أبا نواس ويأخذ عنه ويروي له، وأبوه الحجاج بن يوسف، محدّث لبق ثقة، توفي نحو سنة 200هـ.كان كاتبًا ظريفًا، يُغنّى في كثير من أشعاره. أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، 227/23.

([2]) الأبيات عند ابن المعتز، طبقات الشعراء، 43/1، وانظر: الأصفهاني، الأغاني، 227/3.

([3]) الدينوري، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، اعتنى بتصحيحه: محمد محمود الرافعي، مطبعة النيل، 1904م، ج2، ص292.

يقول ربيعة الرقى[1]، في امتداحه أخلاقَ الرشيد[2]:

وقد علم العُدْوان والجَوْرُ والخَنَا * * بأنّك عيّافٌ لهنّ مُزايِلُ

ولو علِموا فينا بأمرك لم يكن * * يَنال برِيًّا بالأذى متناولُ

لنا منكَ أرحامٌ ونعتدُّ طاعةً * * وبأسًا إذا اصطكَّ القنا والقنابلُ

وما يَحفظ الأَنسابَ مثلَك حافظٌ * * ولا يصِلُ الأرحامَ مثلك واصلُ

جعلناك فامنعنا مَعَاذاً ومَفْزَعًا * * لنا حين عَضَّتْنا الخطوبُ الجلائِل

وأنت إذا عاذت بوجهك عُوَّذٌ * * تَطامنَ خوفٌ واستقرّت بَلابِلُ

في الأبيات السابقة يصوّر الشاعر الرشيد بأجود الصفات التي لا بد للخلفية أن يتمتع بها من رفعٍ للمظالم، واستغاثةٍ للمستجير، والمحافظة على الرعية، والتواصل الدائم معهم، وأن يكون عونا لهم، ومفزعا عند اشتداد الخطوب.

وقد وردت روايات تاريخية تدلّل على حزم الرشيد في ولاية أمور رعيته، والأخذ بالمظالم، وعدم الاستهانة بحاجات الناس على نحو بالغ التنظيم والدقة، "ومن دلائل حزمه، وحسن تدبيره اهتمامه بأمر البريد، فالبريد... شبكة من المراقبة لشؤون الرعية تصل زوايا الدولة بالعاصمة، وتخبر الخليفة عن كل صغيرة وكبيرة تحدث في أطراف البلاد سواء كان ذلك من قبل العمال

---

[1]() ربيعة الرقي: هو ربيعة بن ثابت الأنصاري، ابن لجأ بن العيزار بن لجأ الأسدي أبو شبانة، ويقال أبو ثابت، من أهل الرقة، شاعر كان ضريرًا يلقب بالغاوي وتوفي عام (198هـ)، انظر: الأغاني، 16 / 271- 274.

[2]() ربيعة الرقي: ديوان شعر ربيعة الرقي، تحقيق: موسى الصالح، بغداد، 1998م، ص 57، وانظر: عبد الأمير مهنا، الطرب والظرف والنشيد في مجالس هارون الرشيد، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1990م، ص307.

والمستخدمين أم من تصرفات العامة، وكان الرشيد يختار أصدق عمّاله وأخلصهم لإدارة هذه المؤسسة المهمة، وكثيرا ما كان يعنى بتنظيمها، وتسهيل الطرق للإسراع في أداء واجباتها والبدل على إصلاحها... إلخ"[1].

ولذلك فقد جاء الجزء الأكبر من القصيدة "في مدح الرشيد فأثنى على حسن تدبيره لشؤون رعيته، فقد أحل الوئام والائتلاف بينهم محل الأحقاد والأضغان... إلخ"[2].

وكان للرشيد ديوان خاصٌ بالمظالم، وكان لا يرد من يشكو إليه ظلما، فمن ضمن توقيعات الرشيد ما وقعه على رقاع المظالم لرجل يشكو أحد عمال الخليفة، ويطلب الإنصاف منه، فرفع عنه الظلم[3].

وعرفت عنه جملة من الخطب في حث الرعية على تقوى الله، ومن ذلك قوله:

"أوصيكم بتقوى الله، فإنَّ في التَقوى تَكْفيرَ السيئات، وتَضْعيف الْحَسنات، وفوزاً بالجنّة، ونَجاةً من النار. وأُحذّركم يوماً تَشْخص فيه الأبصار، وتُبلى فيه الأسرار... إنكم لم تخلقوا عبثا، ولن تتركوا سدى، فحصّنوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع وصلاتكم بالزكاة، إنكم سفراء تجتازون وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة وإلى الرحمن بالتقوى..."[4].

ففي الخطبة السابقة يتّضح مدى وعي الخليفة بضرورة حثّ الناس على تقوى الله؛ لأن في صلاح الناس صلاحًا للأمة نفسها، وتعميرًا للأرض.

وكان الرشيد حريصا على تبيان الدور الجلل الذي خلق الناس لأجله عابدين لا عابثين وبأنهم مجرد سفراء في هذه الدنيا وضيوف مغادرين لها ومجاوزوها إلى يوم الحساب.

1() عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص180.

2() ياسين عايش خليل، هارون الرشيد في أنظار شعراء عصره، ص146.

3() عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص197.

4() ابن عبد ربه، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1404هـ، ج4، ص190.

إن حرص الرشيد في حث رعيته لا ينفصل عن دوره كخليفة؛ فهو مؤتمن على مصالحهم ورعاية شؤونهم فيما يرضي الله، وأحد مكونات وعي الخليفة الثقافي النهوض بالرعية في مجال الدين؛ فصلاحهم يضمن للدولة الصلاح والبقاء.

ورغم ما كان يحثّ عليه الرشيد من التديّن والتقوى، إلا أنه عرفت بدولته حرية الاعتناق، وإقامة الألفة بين الناس مهما اختلفت أديانهم، فهم مجورون في ذمة بني العباس مأمونون في حمى الخليفة، وللتدليل على ذلك ما يستشف من أبيات لعلي بن الخليل[1] في مدح الرشيد، وقد كان زنديقا فامتدحه بخير الصفات من البر والإحسان وطهارة النفس، يقول[2]: (السريع):

خيْرُ البَرِيَّة أنت كلّهِمُ * * في يومك الغادي وفي الأمْسِ

وكذاك لن تنفكَّ خيرَهُم * * تمسِي وتصبح فوق ما تُمسِي

للهِ ما هارون من ملك * *بَرّ السريرة طاهرِ النَّفس

تمّت عليه لربّه نِعَمٌ * *تزداد تزداد جِدَّتُها على اللُّبسِ

([1]) هو رجل من أهل الكوفة مولى لمعن بن زائدة الشيباني، ويكنّى أبا الحسن، وكان يعاشر صالح بن عبد القدوس لا يكاد يفارقه فاتهم بالزندقة وأخذ من صالح ثم أطلق لما انكشف أمره. دخل على الرشيد وقد جلس بالرافقة للمظالم وهو متوكئ على عصا وعليه ثياب نظاف وهو جميل الوجه حسن الثياب في يده قصة فلما رآه أمر بأخذ قصته، فقال له يا أمير المؤمنين أنا أحسن عبارة لها فإن رأيت أن تأذن لي في قراءتها فعلت، قال: اقرأها، فاندفع يصوره فيها قصيدته: يا خير من وَخَدَت بأَرْحُلِه ... نُجُبُ الرِّكابِ بِمَهْمَهٍ جَلْسِ، فاستحسنها الرشيد، وقال له: من أنت قال أنا علي بن الخليل الذي يقال فيه إنه زنديق، فضحك، وقال له أنت آمن وأمر له بخمسة آلاف درهم وخص به بعد ذلك وأكثر مدحه. الأصفهاني، الأغاني، ج14، ص 173.

([2]) عبد الأمير مهنا، الطرب والظرف والنشيد في مجالس هارون الرشيد، ص319. الأصفهاني، الأغاني، ج 14، ص 174.

تحكي خلافته ببهجتها* * أنق السرور صبيحة العرسِ

من عِترةٍ طابت أَرومَتُهُمْ * * أهلِ العفاف ومنتهى القُدْسِ

نُطُقٍ إذا احتُضِرت مجالسُهم * * وعن السفاهة والخنا خُرْسِ

فقد صوره الشاعر بأجمل تصوير ووصفه بأعذب الأوصاف، وهو زنديق لا ملة له، ورغم ذلك، فإن للرشيد وهرة في قلوب الشعراء، وله حظوة كبيرة في نفوسهم، حيث جرّد الشاعر الرشيد مما لا يليق به السفاهة والفحش، ووصفه بأجمل صفات التدين والتقوى والعفاف وطهارة النفس والألفة والأمان بمجلسه.

ويقول أبو نواس في امتداحه أخلاق الرشيد وتبيان تقواه[1]: (السريع):

لكنَّهُ في الله مبتذلٌ لها * * إنّ التّقِيَّ مُسَدَّدٌ ومُعانُ

ألفت منادمة الدماء سيوفُه * * فلقلّما تحتازُها الأجفانُ

يصور الشاعر في الأبيات السابقة أن للرشيد مداد عون من الله عز وجل وهو خير السند، والبيتان السابقان من قصيدة امتدح بها أبو نواس الخليفة مبتدئا بنهج القصيدة التقليدية:

حَـيِّ الدِيارَ إِذِ الزَمانُ زَمان * *وَإِذِ الشِباكُ لَنا خَوىً وَمَعانُ

ونهج الالتزام السابق يوحي بمدى هيبة الخليفة وقوة حضورها في نفوس الشعراء باعتبار أبي نواس متمردًا على نهج القصيدة التقليدية في التزامها وقفة الطلل دونما إغراق في وصف الرحلة.

[1]() أبو نواس، ديوانه، ص404.

ومما عُرف عن الرشيد أنه كان سريع البكاء، رقيق النفس، شديد الاستمالة نحو الدين في محضر الوعظ والترهيب، ومن ذلك ما رواه الأصمعي عن بكاء الرشيد عند سماعه أبياتًا لأبي العتاهية، يقول فيها[1]: (مجزوء البسيط) :

هل أنْتَ مُعتبرٌ بمن خَلِيَت * * منه غَدَاةَ مضى دساكره

وبمن أذلَّ الموت مصرعه * *فتبرأت منه عشائره

أين الملوك وأين غيرُهم؟ * * صاروا مصيرا أنت صائره

نَلْ ما بدا لك أن تنال من * * الدنيا فإن الموت آخره

وحملت كتب التاريخ ما روي عن الرشيد إزاء تذكيره بالآخرة في معرض الوعظ بما أوتي من شعور ديني عميق، ورقة في القلب وميل نحو الخشوع واستحضاره الدائم للذكر والخشية من الله وحسابه؛ إذ زعم البعض أنّ "ما رؤي أغزرُ دمعًا عند الذكر من ثلاثة: الفضل بن عياض، وأبو عبد الرحمن الزاهد، وهارون الرشيد"[2].

ولكن حتى في هذا الباب مما روي عن الخليفة، فلا يفوتنا الغلو في ترداد مثل تلك المقولات التي وإن صحت، فقد أثبتت روايات أخرى ما يدلّل على حرص الرشيد استجلاب اللذائذ المشروعة، والتمتّع بما توفّر له من الترف والنعيم، ستعرض له الباحثة في حديثها عن مجالس الأنس والغناء في بلاط الرشيد.

1() المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص303-304.

2() تاريخ بغداد، ج14، ص8.

2. صور من العفو والتسامح عند الرشيد:

عُرف الرشيد بعفوه وتسامحه كما عرف بعدله وتقواه، وكان ذلك من أبرز خصاله التي طالما تحدث بها المؤرخون وامتحدها الشعراء، وهي صفة لصيقة بأمير فذّ مثل الرشيد الذي عرف بقوته وسماحته، فالمنظومة القيمية التي يتمتع بها الرشيد مردها إلى الثقافة الدينية التي كان يتسلح بها، وصفتا العفو والتسامح اللتان تمتع بهما الرشيد لا تنبت عن الصفات الأخرى، وإنما عدت من مدارج البحث عن كمال الخلق وسعة الصدر ومن مكتملات شخصيته، بوصفه إنسانا قبل أن يكون خليفة للرعية، فكان "من أرقّ الخلفاء وجهًا، وأكثرهم حياء، وأخشعهم قلبًا وأغزرهم دمعًا عند الموعظة الحسنة"[1].

وصفتا العفو والتسامح من إفرازات القيم المثلى السابقة وإحدى مخرجاتها. ومما ورد كذلك عن الرشيد أنه حتى لو كان في أشد الغضب فإنه قلما يفرط في العقوبة إلا لسبب يتعلق بتهديد الملك أو ما فيه اعتداء على الرعية.

فإنه "سريع العفو بعد الغضب، قريب المغفرة إذا شعر بأنه جاوز الحد في إنزال العقاب، أو كان سبب الغضب قد ضعف بعد مرور الزمن الكافي عليه، أو كان جواب المذنب على جانب من حسن الاعتذار والمنطق السليم"[2].

يقول أبو نواس[3]: (الطويل):

---

[1]() الطبري، تاريخ الطبري، ج3، ص618,

[2]() عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص175.

[3]() أبو فراس، ديوانه، ص403، وانظر: ملحق كتاب الأغاني، أخبار أبي نواس،ج27،1.

بعفوك بل بجودك عذت لا بل * * بفضلك يا أمير المؤمنينا

فلا يتعذّرنّ عليّ عفوٌ * * وسعت به جميع العالمينا

فقد بالغ الشاعر في وصف عفو الرشيد بأنه قد وسع جميع العالمين.

ومما روي عن الرشيد أنه رفض وعظ أحد الواعظين؛ لتشدده في طرح العظة، إلا أن الرشيد تبنى معه أسلوب الحوار، وأبدى التسامح في رفضه تلك العظة "فحاوره الرشيد متعجبا من أسلوبه المتشدد في طرحه تلك العظة مبررا صحة موقفه وخطأ هذا الناسك، لأن الله عز وجل طلب من نبيه موسى بأن يكلم فرعون بكلام لين، والرشيد خير من فرعون، ودافع الرشيد عن نفسه بأنه يحافظ على العبادات، وأعمال الخير مما أدى إلى تراجع الواعظ"[1].

وقد كشفت شخصية الرشيد جملة من المواقف التي تبرز صفتي التحرر والتسامح وحب الدعابة، خاصة فيما يتعلق بمجالس الشرب والشعر، وبلغت هذه النزعات أوجها في عصره، إذ "لم تكن نزعة التحرر لتبلغ مداها وتصل إلى أوجها لولا استجابة الجمهور الذوّاق وتجاوبه معها، ولولا روح التسامح، ولربما التساهل – على المستوى الأخلاقي والعقائدي – الذي ساد حياة العراق في العصر العباسي، وخاصة منذ عهد الرشيد، فقد كان هذا الروح غير مختص بالمثقفين، بل شمل أولي الأمر، وكان ذلك عاملا حاسما أعطى الظرف دفعا عظيما، وحقق له انطلاقا مطّردا"[2].

---

[1]() الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج8، ص358.

[2]() البشير المجذوب، الظرف بالعراق في العصر العباسي فيما بين القرنين الثاني والرابع للهجرة، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1992م، ص37.

ومن قبيل التسامح الذي عرف به الرشيد ما ورد أن مسلم بن الوليد صريع الغواني رمي عند الرشيد بالتشيّع، فأمر بإحضاره، وقال له: إيه يا مسلم أنت القائل[1]: (الكامل):

أنس الهوى ببني العمومة في الحشا

وأراه يطمح عن بني العباس

فاستدرك مسلم قائلاً: (الكامل) :

أنس الهوى ببني العمومة ما في الحشا

مستوحشًا من سائر الأيناس

وإذا تكاملت الفضائل كنتم

أولى بذلك يا بني العبـــاس

فتعجّب الرشيد من سرعة بديهته وأرضاه وعفا عنه.

وإنّ ما ورد بخصوص قتل الرشيد لمتشيعي علي ابن أبي طالب وآل بيته تدحضه الكثير من النصوص التي صورت الرشيد بصورة المتسامح المتعاطف مع قضيتهم، فكانت نظرة الرشيد لآل علي إيجابية في كثير من الروايات التاريخية، فقد ذكر الخطيب البغدادي وابن الجوزي أن الرشيد كان يقدّر خلافه علي بن أبي طالب، وهذا تبدّى في حوارٍ دارَ بين الرشيد وأبي معاوية أثبت فيه الرشيد خلافة علي بن أبي طالب، وتوعّد من ينكرها بالعقاب الشديد[2].

---

[1]() محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في العصر العباسي، دار العالم العربي، القاهرة، 2011م، ص404 – 405. و كذلك، ابن عبد ربه، العقد الفريد، 54/2.

[2]() ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (597هـ، 1200م)، المنتظم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م، ج8، ص324 – 325.

كما أورد السيوطي بخصوص ذلك عن إسحاق الهاشمي أن الرشيد كان يحب علي بن أبي طالب وأولاده[1].

وقد تبدت سياسة العفو والتسامح في الجوانب الإنسانية لدى الرشيد، ومن قبيل ذلك علاقة العفو التي سادت بينه وبين الشعراء، ومن ذلك قصيدة استعطاف نظمها علي بن الخليل في الرشيد، يقول فيها[2]: (الرجز)

إني إليك لجأتُ من هربٍ * * قدْ كان شرَّدني ومن لَبسِ

واخترْتُ حكمَك لا أجاوزُهُ * * حتى أوسَّدَ في ثَرَى رَمْسي

لما استخرتُ الله في مَهَلٍ * *يَمَّمتُ نحوَكَ رحلةَ العَنْسِ

كم قد قطعتُ إليك مُدَّرِعًا * *ليلاً بَهيمَ اللَّونِ كالنَّقسِ

إن هاجني من هاجسٍ جزعُ ** كان التوكل عنده تُرسي

فمن الأبيات السابقة يستشف ما خالج وجدان الشاعر من مشاعر الخوف والتي انتهت بالملاذ إلى حمى الخليفة والفوز بأمنه وعفوه.

وورد الكثير من الروايات التي تظهر الرشيد في صورة الحليم المتسامح إزاء ما كان يطعن فيه وبأهل بيته، ومن ذلك ما أورده ابن قتيبة في دخول بيت الفضل بن عياض متنكرا وبكائه لوعظه[3].

فبينما كان الرشيد يجلس في مجلس محمد بن السمّاك سمع من بعض أهل المجلس عن تقوى الفضل بن عياض وعن حديثه وعلمه ووعظه، فتهافتت نفسه إلى النظر إليه، وذهب إليه

---

[1]() السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص466.

[2]() الأصفهاني، الأغاني، ج14، ص175.

[3]() ابن قتيبة، عبد الله، الإمامة والسياسة، 187/2.

قاصدا ومعه عبد الله بن المبارك، فعندما دخلا عليه، سأل ابن المبارك الفضل أإذا كان يعرف هذا –يقصد الرشيد– فأجابه: لا، فقال: هذا هارون الرشيد أمير المؤمنين، فسرعان ما التفت إليه الفضل، وقال: هذا الوجه الجميل يسأل غدا عن أمّة محمد ويؤاخذ بها، لئن كان العفو والغفران يسعك مع ما أنت فيه، إن هذا لهُوَ الفضل المبين. ثم برح الفضل يعظ الرشيد ويخوّفه حتى بكى الرشيد بكاء شديدا، فقال ابن المبارك: ما رأيت أحدا يبكي بكاء الرشيد، ولما أفاق الرشيد من بكائه، أخذ الفضل يذكر مثالبه ومثالب أهل بيته ورداءة سيرته، ثمّ لم يدع شيئا إلا وقد عابهم به، ولا أمرا إلا وانتقصهم فيه. فقابله الرشيد بالعفو ورحابة الصدر والتسامح، وبرّر ذلك من قبيل التسامح الديني، فديننا يقبل الله فيه الحسنات ويعفو عن السيئات، وأعقب ذلك بقوله:

"إني والله ما كنت لأخيّر بين شيء وبين الله إلا اخترت الله تعالى على ما سواه الله الشاهد على قولي، والمطّلع على نيتي وضميري، وكفى به شهيدا، وأنا مع هذا إلى الإصلاح بين الناس والجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..."[1].

وبكاء الرشيد بين أيدي واعظيه مما كان يعرف به، وتآزرت على إبراز هذه الصورة مصادر عديدة فضلا عن الأشعار التي كانت تلقى في استعطاف الرشيد والتوسل بعفوه.

ومن أكثر الشعر الذي قيل في هذا المجال ما جاء على لسان أبي العتاهية حين حبسه الرشيد فنظم العديد من الأشعار في الزهد عن الدنيا والتحذير من الاغترار بها.

وورد أنه كان يتجرأ على شخص الرشيد ويحذره مغبة الظلم حين يلقى الله، وقرن في كثير من أشعار خلاصه من الحبس بخلاص الرشيد من عذاب يوم عظيم[2].

ومن ذلك قول أبي العتاهية[1] :

---

[1]() عبد الأمير مهنا، طرائف الخلفاء والملوك، ص204 – 205.

[2]() ياسين عايش خليل، هارون الرشيد في أنظار شعراء عصره، ص154.

ألاَ يأيّها الملك المُرَجَّى

عليه نَواهِضُ الدنيا تَحومُ

أَقِلْني زَلَّةً لم أَجْرِ منها

إلى لَومٍ وما مثلي مَلومُ

وخَلِّصْني تُخَلَّصْ يومَ بَعْثٍ

إذا للناس بُرِّزت الجَحِيمُ

فمن الواضح من الأبيات السابقة أن أبا العتاهية يرى في شخص الرشيد الخليفة المرجو أو من يُبتغَى منه العفو والخلاص، وهذه القناعة استحكمت أفئدة الشعراء بشدة، ويبرز ذلك من خلال المفردات التي ينتقونها بعناية في مجال استعطاف الخليفة كما في (أَقِلْني، وخَلِّصني).

وورد عن كلثوم بن عمرو العتابي قصيدة كان قد نظمها في استجداء عطف الخليفة والرحمة به، يقول العتابي[2]: (الطويل):

جعلْتُ رجَاء العفوِ عذراً وشُبْتُهُ * * بهيبةِ إمَا غافِرٍ أو مُعَاتبِ

وَكنتُ إذا ما خفْتُ حادث نَبْوةٍ * *جعلتك حِصْنًا من حِذَارِ النوائبِ

فأَنزلَ بي هجرانُك اليأس بعدما * * حللتُ بوادٍ منك رَحبَ المشاربِ

حيث تراوح استعطاف الشاعر في الأبيات السابقة بين طلب المغفرة والعتاب مستحضرا في نفسه هيبة الرشيد وجلاله، بجدب المرعى بعدما كان يحظى بالناضب ورحب المشارب في

---

[1]() الأصفهاني، الأغاني، ج4، ص69.

[2]() الحصري، إبراهيم علي، زهر الآداب، تحقيق زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، 1972، ج3، ص678.

ظلّ الخليفة. يقدم الشاعر صورة عميقة المغزى في احترامه شخص الرشيد، وطمعه بعفوه وسماحته.

3. صور من البذل والعطاء عند الرشيد:

عرف الرشيد ببذله وعطائه، فهو كما يقول صاحب تاريخ بغداد: "كان الرشيد يقتفي أخلاق جده المنصور ويعمل بها إلا العطاء والجوائز فإنه كان أسنى عطية، ابتداء وسؤالا، وكان لا يضيع عنده يد ولا عارفة ولا يؤخّر عطاء اليوم إلى الغد"[1].

وكان الرشيد يكره البخلاء كرها شديدا، ويعدّ البخل منقصة تزري بصاحبها، وقد قيل إنه عدل عن الزواج بابنة العباس بن محمد الهاشمي حين علم بأن العباس بخل على شاعر فهجاه[2]، يقول الشاعر في بذل الرشيد[3]: (مجزوء الكامل):

هارونُ أنتَ خليفةٌ * * صُوِّرتَ مِنْ كَرمٍ وجودِ

والناسُ مِنْ طينٍ وأنْـ * * تَ البَدرُ في فلكِ السّعودِ

يقدّم الشاعر صورة مثلى للرشيد مشمولة بالكرم والسخاء. وقد حظي الشعراء لدى الرشيد بمنزلة عالية؛ فكان يفرق عليه العطاء، فالشعر كان أحد وسائل كسب الرأي العام وداعما لكيان الدولة السياسي[4].

---

[1]() عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص224.

[2]() الأصفهاني، الأغاني، ج15، ص40. ابن كثير، البداية والنهاية، 177/10، السيوطي، جلال الدين، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب، مصر، ط1، 1967م، 19/2.

[3]() ابن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، ص151. والأبيات لعمر بن سلمة، وهو المعروف بابن أبي السعلاء، قالها عندما قدم الرشيد قافلًا من غزاته وقد ظفر بهم وغنم.

[4]() عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص 209.

ومما روي عن الرشيد أنه أمر بحفر نهر لبعض أهل السواد وقد كان خرب وبطل ما عليه، فقال أشجع السلمي يمدحه[1]: (مجزوء البسيط):

جادَ عليه بِرِيقٍ فيهِ ** وسِرّ مَكْنُونه الفُراتُ

أَلْقَمَه دَرَّة لَقُوحًا * * يَرْضَع أَخْلافَهَا النَّباتُ

ومما يروى أن الرشيد كان يحث الشعراء على قول الشعر ويستنشدهم، وله مجالس خاصة في ذلك، وكان يجزل لهم العطايا، ومما ورد في ذلك الباب أنه عندما انقطع أبو العتاهية عن شعر الغزل، وتحوّل عنه إلى شعر الزهد، ولبس الصوف، فقصّر في النظم والإنشاد، ولذلك أمر الرشيد بحبسه[2].

ومن أمثلة بذل الرشيد ما أعطاه لمروان بن أبي حفصة حين عودته من غزوة الروم، وصوره قصيدته الشهيرة[3]: (الطويل) :

وسُدّت بهارونَ الثغورُ فأُحكِمَتْ * * بهِ من أمورِ المسلمينَ المرائرُ

فأعطاه الرشيد خمسة آلاف دينار وكساه خلعه وأمر له بعشرة من رقيق الروم الذين تم أسرهم في تلك الحملة[4].

ومما ذكر في تأريخ جود الرشيد وسخائه أن أعرابيا قدم مستجديا عليه، فلم يتمكن من الدخول، ولم يؤذن له، فأعطى الأعرابي الحاجب كتابا من أربعة سطور:

السطر الأول: الضرورة والأمل قاداني إليك.

([1]) الأصفهاني، الأغاني، ج 18، ص257.

([2]) السابق نفسه نفسه، ج4، ص96.

([3]) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، 16/5.

([4]) عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص208.

والثاني: العُدْم يمنع من الصبر.

والثالث: الانقلاب عنك بلا فائدة شماتة للأعداء.

والرابع: فإمّا (نعم) مثمرة وإمّا (لا) مريحة

فلما وصل الكتاب يد الخليفة، واستطلع ما في الأمر، قيل له: هذا رجل قد ساقته الحاجة ووصلت إليه الفاقة، فأمر الرشيد بإدخاله، ورفع حاجته بين يديه، وأمر له الرشيد بكل حاجاته وحويجاته التي طلبها وقضاها له[1].

ويذكر أن الرشيد كان من "أندى الخلفاء يدا وعطاء للناس ولا سيما أولئك الذين كانوا يبدعون في إنتاجهم الفكري والغني من كبار الشعراء والرواة وأصحاب العزف والمغنين"[2].

وذهب جود الرشيد والتغني بفضل سخائه حدا مبالغا فيه, فمثلا ورد أنه وهب " قريتين عظيمتين يقدّر ريعهما السنوي بأربعين ألف دينار... ورأيناه مرة ينثر على من حوله ستة ملايين درهم في جلسة واحدة... ولم نقرأ عن خبر عن شاعر صوره فآنسه، أو عالم أفاده فأعجبه، أو مطرب غناه فأطربه إلا نال من جائزة أو مال تقدّر بآلاف الدراهم أو الدنانير...[3].

وكانت أول جائزة منحت من الرشيد عقب توليه الخلافة لإبراهيم الموصلي عندما مدحه، بقوله: (الطويل):

ألم تَرَ أنّ الشمسَ كانت مريضةً * * فلمّا وَلِي هارونُ أشرق نُورُها

فأُلبستِ الدّنيا جمالاً بوجهه * * فهارونُ وَاليها ويحيى وزيرُها

---

[1]() عبد الأمير مهنا، الطرب والظرف والنشيد، ص339 – 340.

[2]() عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص222.

[3]() السابق نفسه، الصفحة نفسها.

حيث أمر له الرشيد بمائة ألف درهم، وأمر له يحيى البرمكي بخمسين ألف درهم[1].

وقد حظي الموصلي في مجالس الرشيد بمنزلة لا ينازعه فيها أحد، وكان الرشيد يصله من جوده كلما امتدحه.

ومن قبيل ذلك المدح ما صوره الموصلي في حضرة الرشيد ممتدحا جوده وسخاءه[2]:(الطويل):

وآمرةٍ بالبخل قلتُ لها اقْصُرِي

فذلِكِ شيءٌ ما إليه سبيلُ

أرى الناس خُلاّنَ الكرامِ ولا أرى

بخَيلاً له حتّى المماتِ خليل

ومن خير حالات الفتى لو علمتِه

إذا نال خيرًا أن يكون يُنِيل

وكيف أخافُ الفقر أو أُحرَمُ الغِنَى

ورأيُ أمير المؤمنين جميل

فمن الواضح أن الموصلي في الأبيات السابقة يستثير كرم الرشيد ويستفز سخاءه، إذ يمتدحه أنه غاية في البذل والعطاء فلا سبيل للبخل إلى نفسه، فإذا أصاب الرشيد مدحًا من أحد الشعراء يوفي إليه، ويجزل بالمدح أضعافا.

ومن ذلك أيضا القصيدة التي امتدح بها أشجع السلمي الرشيد، يقول فيها[3]: (الطويل) :

([1]) الأصفهاني، الأغاني، ج 5، ص 253.

[2] () السابق نفسه، ج5، ص 331-332.

[3]() الأغاني، ج18، ص220.

إلى مَلِك يَستغْرِقُ المالَ جُودُه * *مكارِمُه نَثْر ومَعْروفُه سَكْبُ

وما زالَ هارونُ الرّضا بنُ مُحمَّد * *له من مياهِ النَّصْر مَشْرَبُها العَذْبُ

متى تَبلُغ العِيسُ[1] المَراسيلُ بابَه * *بنا فهناك الرُّحبُ والمنزلُ الرَّحْبُ

حيث يصور الشاعر أن سخاء الرشيد وبذله قد استغرق جميع ماله لشدة كرمه، وأنه إذا طرقت الفاقه باب أحد الخلائق، فإن منزله مطروق لكل ذي حاجة، ومُرحَّب بنزوله وقضاء حوائجه.

4. صور من الأنس ببلاط الرشيد:

امتازت دولة الرشيد بالانفتاح الحضاري الذي جلب معه التنوع الثقافي على جميع المستويات ومنها الفنية، وكانت له مجالس خاصة للسمر والمنادمة والطرب.

وفي الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني سلسلة متواترة الأحداث حول مجالس الندماء والشرب والسفه والخروج عن الوقار[2]. وعلى الرغم من الروايات المتعارضة التي ذكرت في هذا الشان إلا أنه يمكن لمن يستطلع الأشعار التي قيلت في مجلس الرشيد أن يخرج منها بصورة وافية عن حياة الترف واللّهو والتنعم بلذائذ الدنيا في عهد الرشيد، وإن شابها الكثير من الغلوّ إلا أنها تفصح عن الكثير من صور الحياة اللاهية التي كانت يعيشها الخلفاء عصر الندماء والجواري.

([1]) العِيس: الإبلُ تَضْرِبُ إلى الصُّفْرَة ، رواه ابنُ الأَعْرَابِيّ وَحْدَه ، وقيلَ : هي كَرَائمُ الإبِلِ. الزبيدي، تاج العروس، مادة (عيس).

([2]) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، انظر الأجزاء والصفحات التالية، 166/15، 94/5، 195/6، 166/13، 170/13، 303/19.

ويؤكد ابن خلدون أن "حال الرشيد في اجتناب الخمر كانت معروفة عند بطانته وأهل مائدته... وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق، وفتاويهم فيها معروفة، وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها ولا تقليد الأخبار الواهية فيها"[1].

ومما عرف عن الرشيد اعتناؤه بالعلم وأهله مع حبه للدعاية والظرف والتلطف، وكان حريصا على مجالسة العارفين وأهل العلم الذين عُنوا بأخبار العرب ومعرفة أنسابهم، ويميل إلى أخبار الظرفاء ومكايد المجّان، وكانت مجالسه تزخر كذلك بالشعراء والمغنيين[2].

ومما روي عن حب الرشيد للغناء أنه كثيرًا ما كان يخرج متنكرًا في لباسه ليلا يخرج مع أحد وزرائه، والقليل من الحرس "لحضور المجتمعات الشعبية التي كانت تقام في الأفراح والأعياد؛ ليشارك شعبه ويتلمس عن قرب أحزانه ومسراته، وقد أفسحت هوايته هذه مجالا واسعًا لأقلام الكتّاب وأخيلتهم، فألفوا منها القصص الشيقة والنوادر الطريفة والمحاورات الظريفة بينه وبين الأعراب أو السوقة أو كبار التّجار مع شيء من المغامرات مع النساء"[3].

وكان إبراهيم الموصلي من أكثر المغنيين وصولا بالرشيد وحضور مجلسه، فالرشيد يأمر والموصلي يغني، فيظهر – وإن كان مختلفًا عليه – سماح الرشيد للتغني في حضرته، ما يشي باستظرافه، ولو على سبيل التندر.

وروي عن الرشيد– وغالبه عند الأصفهاني – أشعارًا نسبت له في التغزّل بجواريه، ومن ذلك[4]: (الكامل) :

---

[1]() سعدي ضناوي، ديوان هارون الرشيد، ص17.

[2]() عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص218 – 219.

[3]() السابق نفسه، هارون الرشيد، ص229

[4]() الأغاني، ج16، ص373.

مَلَكَ الثَّلاثُ الآنساتُ عِنانِي * * وحَلَلْن من قلبي بكلِّ مَكانِ

ما لي تُطاوعني البريةُ كلها * *وأطيعُهُن وهنّ في عصياني

ما ذاك إلا أن سُلْطان الهوى * * وبه عَزَزْن أعزّ من سلطاني

فتبدو عاطفة الرشيد تجاه جواريه، وتبدو لجواريه قدرتهن في السطو على قلبه، والاستيلاء عليه حيث يصف الرشيد استحكامهن في قلبه ويجعله يفوق عزّ سلطانه !!

ومما ورد عن الرشيد ميله للطرب، فعن عبد الله بن العبّاس بن الفضل بن الرّبيع، قال: خرج رسول الرشيد ذات ليلة إلى المغنين، وقال لهم: دَنُّوا[1]: (الخفيف):

يا خليليَّ قد مَلِلْتُ ثَوائِي * * بالمُصَلَّى وقد سَئِمتُ البَقِيعا

بلِّغانِي ديارَ هندٍ وسُعْدَى * *وأرجِعاني فقد هَوِيتُ الرجوعَا

فالبيتان السابقان يكشفان ازدواجية شخص الرشيد؛ بانقسام نفسه بين العبادة والصلاة، وميله إلى الطرب واللهو والإمتاع.

فمما ورد عنه أنه كان محبًّا للغناء متعشقًا للطرب منذ الصغر، ويقال إنه كان له جارية تدعى دنانير في بيت يحيى بن خالد البرمكي، فكَلُفَ بها الرشيد حبًا، وأصبح يتردد على بيت يحيى ليسمعها، وعندما التجأت لبعض الهاشميين، ألحوا عليه لتركها[2].

([1]) الأغاني، ج5، ص238.

([2]) الأغاني، ج16، ص137.

ومن الواضح أنّ مثل هذه الرواية مبالغ فيها، وربما كانت موضوعة في مسألة ملاحقة الرشيد للجواري.

وربما كان اطّلاع الرشيد على دخائل هذا الفن وتذوقه له السبب في مبالغته بإكرام المغنيين في حضرته، ومنحه إياهم الهبات الكبيرة التي لم يهبها قبله أحد من الخلفاء، والتي ربما جاوزت المألوف[1].

[1]() عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص214.

الفصل الثاني

البُعدُ الفَنِّيّ لتشكّل صُورة الرشيد في عيون الشعراء

- المبحث الأول: مفهوم الصورة الفنية وتشكلها.
- المبحث الثاني: الرشيد في موضوعات صور الشعراء ومضامينها.

المبحث الأول:

مفهوم الصورة الفنية وتشكلها.

- الصورة الفنية بين القدماء والمحدثين :

ستعنى الباحثة في هذه الفصلة بتقديم معنى الصورة لغة واصطلاحًا، وعرض أهم ما ورد ذكره عن الصورة الشعرية في بعض كتب النقد والبلاغة عند النقاد العرب القدماء والنقاد المحدثين من العرب وغيرهم، معتنية بالتسلسل التاريخي للمصطلح قدر الإمكان. ثم ليس من صنع المؤلفة في التمهيد تتبع أقوال النقاد عن الصورة، بل إن عرضها هدفه تثبيت فكرة تناول النقاد العرب القدماء لمصطلح الصورة الشعرية في بعض تعريفاتهم، وتقديم وجهة نظرهم لها، وقد نقلت الباحثة ما نسجه النقاد من حالة نقدية تهم الرسالة فقط، كما تهدف الفصلة التمهيدية لصنع بسطٍ نظريٍّ تمهد به لدراستها التطبيقية في الفصول القادمة.

وإنّ للتجارب المحيطة بالشاعر، والتي تتنامى داخله معززة بخبرات متجددة رسمًا في الذهن، يثير حالة إبداعية منظومة يبنيها الشاعر بشكل خاص، فتتمايز بذلك من شاعر لآخر؛ لتعزز طابع الشخصية المبدعة المتفردة، وترقى بالعمل الأدبي إلى مكان شديد الصلة بما هو أدبي يبتعد أو يقترب بحال من الأحوال من الواقع؛ ليقدم رسالة فنية من نوع خاص.

ولقد ترافقت الصورة مع الشعر منذ أقدم عصوره إلى عصرنا هذا؛ إذ تُعدُّ ناقلةً لتجربة الشاعر المكونة من: أفكار وعاطفة وخيال وتداع، وهي متطورة عبر الأزمان وعبر الأشكال الشعرية.

ويرتبط مصطلح الصورة غالبًا بحاستي الإبصار والسمع اللتيْنِ تمدان الخيال بالحركة والانطلاق، فما "يتجلى أمام العقل من صورة خيالية وعاطفية... يرتبط بالسمع والبصر أكثر من ارتباطه بباقي الحواس؛ فالسمع ندرك به الجمال الموسيقي، والبصر ندرك به جمال التصوير[1].

(1) صلاح الدين عبد التواب: الصورة الأدبية في القرآن الكريم، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ص12، ومحمد حسن عبد الله: الصورة والبناء الشعري، دار المعارف، القاهرة، 1981م، ص29-30، و الزبيدي, محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس, مجموعة من المحققين, دار الهداية , مصر، ج12، ص358.

- **معنى الصورة لغة:**

جاء في لسان العرب أن الصُّورة: تَرِدُ في كلام العرب على ظاهرها وعلى معنى حقيقةِ الشيء وهيئته وعلى معنى صفته، يُقال: صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته[1].

وجاء في كتاب المثلث للبطليوسي الأندلسي أن الصُّورة (بالضم): هي شكل كل شيء مُصَّور، وتستعمل الصورة أيضًا بمعنى:النوع، لأن النوع صورة في الجنس، كما أن الشكل صورة في الجسم، وتستعمل بمعنى الصفة [2].

- **الانطلاق من تحديد مصطلح(الصورة) بين العربية والإنجليزية:**

يرتبط التخيل عند الفلاسفة بالتصوير، ويطلق التخييل في معجم التهانوي على تصور وقوع النسبة، وعلى الإيهام، وعلى قسم من الاستعارة[3] ، وإن مؤرخي نظريات الخيال المتعاقبة في الفكر الأوروبي يذهبون إلى أن مصطلح "الخيال" هو أحد المصطلحات التي انتقلت من

---

(1) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري: لسان العرب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط (1)، 1990م، مج (4)، مادة "صور"، ص 473.

(2) ابن السيد البطليوسي: المثلث، تحقيق ودراسة: صلاح مهدي علي الفرطوسي، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، سلسلة كتب التراث (111) ، دار الرشيد للنشر، 1981م، مادة "صور"، ص288.

(3) محمد التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون، دار الرسالة، بيروت، 1988م، 453/2. وإلى ذلك أشار مري (Marry) في قوله " إن الشاعر عندما يحاول تحديد انفعالاته و مشاعره إزاء الأشياء يضطر إلى أن يكون استعاريًا" :

J. MiddlentonMurry: The Problem of style, Oxford Univ. Press. London, 1930, P.78

مجال الفلسفة إلى مجال الأدب بعد أن تحددت قسماته في ظل مباحث فلسفية محددة وهي الفكرة ذاتها التي يمكن أن تنطبق على التراث النقدي عند العرب، وأصبح مصطلح(الصورة) يستخدم للإشارة إلى فاعلية الشعر وخصائصه، ويصف طبيعة الإثارة التي يحدثها الشعر في المتلقي، وأصبح يستخدم كصفة تميز الاستعارات والتشبيهات عن بعضها الآخر، وعند الصوفية يختلف إدراك الخيال عن إدراك العقل للصورة[1]، والخيال عند ابن عربي خاصة هو أعظم قوة خلقها الله"فليس للقدرة الإلهية فيما أوجدته أعظم وجودًا من الخيال فيه ظهرت القدرة الإلهية والاقتدار الإلهي... فهو أعظم شعائر الله على الله... إن الخيال وان كان من الطبيعة فله سلطان عظيم الطبيعة بما أيده الله من القوة الإلهية"[2] .

وفكرة الخيال عند –خليل أحمد خليل– في حديثه عن (زمان الأسطورة الصوفية) تأخذ استعادة لماضٍ سحيق، وتكرارًا "بالحلم الاعتقادي" لجميع ذكريات المعجزة الزمنية[3].

أما عن صلة الخيال بالعقل، فإنَّ الخيال عند ابن عربي بعدّه نموذجًا ناضجًا للتفكير الصوفي ليس هو مصدر الخطأ في مقابل العقل الذي يخطئ " وإنَّ هؤلاء الذين يصفون الخيال بأنه خيال فاسد لا يدركون حقيقته؛ ذلك أن الخيال إذا أدرك شيئا فإنما يدركه بنوره، والنور لا يخطئ في كشفه عن الأشياء"[4].

---

(1) محمود قاسم، الخيال في مذهب محيي الدين بن عربي، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة 1969م، ص8–9.

(2) ابن عربي، الفتوحات المكية، دار المكتبة، القاهرة، 1984م، ط(6)، 508/3 .

(3) خليل أحمد خليل، مضمون الأسطورة في الفكر العربي، دار الطليعة، بيروت، 1973م، ص 9.

(4) السابق نفسه، ص 8–9.

كذلك ترتبط الكلمة الأجنبية (Imagination) على مستوى الاشتقاق بعلاقة وثيقة بين الخيال والصورة الشعرية، وإن علاقة الاشتقاق بين كلمتي (Imagination) و(Imagery) تشي بالصلة الوثيقة بين كلتيهما، وتوضح أن مفهوم الصورة لا يمكن أن يقوم إلا على أساس مكين من مفهوم متماسك للخيال؛ فالصورة هي أداة الخيال، ووسيلته، ومادته الهامة التي يمارس بها، ومن خلالها فاعليته ونشاطه[1] .

(1) جابر عصفور، الصورة الشعرية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط(3) 1992م، ص14.

- **الصورة عند فلاسفة العرب:**

عرّف الفلاسفة العرب الصورة ضمن كتب (الحدود) ، ومنهم جابر بن حيان الذي ربط الصورة بالمعاني وجعل تعرفك للمعاني مرتبطًا بتعرفك للصور الدالة عليها[1]، كما جعل الكندي[2] الهيولى: هي المادة الموضوعية لحمل الصور[3].

والصورة عند الخوارزمي [4] هي هيئة الشيء وشكله التي تتصور الهيولى بها وتسمى الصورة الشكل والهيئة والصيغة، وترتبط بالحواس الخمس، والصورة عند ابن سينا[5] ترتبط بالتذكر، أو الخيال في كونهما حالة "تمثل الصور المحفوظة في الحس المشترك، وقوة مدركة لصور المحسوسات، وتمثل المعاني المحفوظة وقوة مدركة للمعاني.

---

(1) جابر بن حيان، حدود الأشياء، تحقيق: عبد الأمير الأعسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1989م، ص177-184.

(2) الكندي، الحدود والرسوم للكندي، تحقيق: عبد الكريم الأعسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1989م ، ص187-203.

(3) الهيولى، تعريب (hyle) بمعنى الأصل وهي عند أرسطو طاليس بمعنى مادة أو الجوهر، من السابق نفسه، هامش رقم (13)، ص191.

(4) الخوارزمي، الحدود الفلسفية للخوارزمي، تحقيق: عبد الأمير الأعسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1989م، ص205-228.

(5) ابن سينا، الحدود، تحقيق: عبد الأمير الأعسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1989م، ص229-263.

والصورة عند الغزالي[1] من المصّورة وتسمى الخيال وهي عبارة عن قوة مرتبة في مؤخرة التجويف الأول من الدماغ من شأنها أن تحفظ ما يتأدى إليها، ويربط عند الفارابي بين الصورة والخيال في كونه هو القوة التي تحفظ الصور المرتسمة في الحس المشترك إذا غابت تلك الصور عن الحواس الباطنة[2].

- **الصورة عند النقاد العرب القدماء :**

لقد بدأ ذكر الصورة أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت: ٢٥٥ هـ) أثناء حديثه عن الشعر وأنه "ضرب من النسج، وجنس من التصوير"[3]، فلا يستقيم الشعر من دون الصورة فيه.

ويعد نص الجاحظ من أقدم النصوص في هذا المجال، وقد أعطى الشعر قيمة فنية وجمالية، لا يمكن لا للمبدع ولا للمتلقي الاستغناء عنها؛ فحينما يكون الشعر جنسًا من التصوير يعني هذا " قدرته على إثارة صور بصرية في ذهن المتلقي، وهي فكرة تعد المدخل الأول للعلاقة بين التصوير والتقديم الحسي للمعنى" [4].

(1) الغزالي، الحدود للغزالي، تحقيق: عبد الأمير الأعسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1989م ص265-388.

(2) محمد التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، دار الرسالة، بيروت، 1988م، 451/2 .

(3) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، دار ابن رشد، بيروت، 1976م، ط(4)، ص١٣٢.

(4) جابر عصفور، الصورة الشعرية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص316 .

وعدّ ابن طباطبا (ت:322هـ) الصورة ضربًا من تشبيه الشيء بالشيء وأنها ذات هيئة [1]، وعدّ قدامة بن جعفر (ت:٣٣٧هـ) الصورة نصًّا وعدها الهيكل في مقابل المادة والمضمون، فقال الشعر كالصورة[2]، وربط أبو هلال العسكري (ت: ٣٩٥ هـ) بين الصورة وأقسام التشبيه[3].

وعرّف أبو حيان التوحيدي (ت:400هـ) الصورة، فقال " فإن قيل: فما الصورة؟ قال: التي بها يخرج الجوهر إلى الظهور"، ثم ذكر أنواعها بأنها : إلهية، وعقلية، وفلكية، وطبيعية، ونفسية، ولفظية، وبسيطة، ومركبة، وممزوجة، وصافية، ويقظية، ونومية، وغائبية، وشاهدية [4].

ودرس ابن رشيق القيرواني(ت:456هـ) الصورة من خلال دراسته لقضية اللفظ والمعنى التي أفاض النقاد العرب القدماء فيها، فقال بأن المعنى يكون بالصورة، واللفظ يكون بالكسوة، "فإن لم تقابل الصور الحسناء بما يشاكلها، ويليق بها من اللباس فقد بخست حقها، وتضاءلت في عين مبصرها " [5].

ونصل إلى عبد القاهر الجرجاني(ت: ٤٧١ هـ) الذي قال عن الصورة إنها تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا فما رأينا البينونة بين أحاد الأجناس تكون من جهة

(1) محمد بن أحمد بن طباطبا، عيار الشعر، شرح وتحقيق: عباس عبد الساتر، مراجعة : نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط(1)، 1982م، ص 23 .

(2) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: محمد المصعبي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، ص41.

(3) أبو هلال العسكري، الصناعتين، دار الثقافة العربية، بيروت، تحقيق: محمد الصاحب، 2007م، ص 34.

(4) أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزين، القاهرة، لجنة التأليف، 1944م، ص 911.

(5) ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، مطبوعات الجيل، بيروت، ط(4)، 1972م، 254/2 .

الصورة[1]، ولقد عبّر ابن الأثير (ت: ٦٣٧ هـ) عن الصورة من خلال علاقتها بالمحسوس[2]، وختامًا فمن النقاد العرب القدماء من ذكر الصورة لفظًا وعرفها، ومنهم من ذكرها درج الكلام، أو من خلال تعريف آخر، ومن النقاد من استفاد ممن سبقه، ومنهم من لم يذكر من سبقه وهم الغالب في شأن تعريف الصورة، ومنهم من جعل الصورة أداة مساندة لتقديم المعنى، ومنهم من جعلها مادة أساسية لتقديم المعنى، ومنهم من جعلها من عمود الشعر، ومنهم من جعلها سببًا في الإعجاز، وهكذا.. ومنهم من لم يذكرها، ومن هؤلاء المرزوقي عندما حدد عمود الشعر العربي.

وقيل إن المرزوقي استفاد مما كتبه القاضي الجرجاني والآمدي في تأليفه لعناصر عمود الشعر، فقد جاءت عناصر عمود الشعر عند الآمدي(ت:370هـ) في كتابه (الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، ت:284هـ) خالية من (الصورة الشعرية) وهي جودة السبك، وسلامة التأليف، ونصاعة ديباجة الشعر وحلاوة اللفظ، والآمدي هو الذي ذكر مصطلح "عمود الشعر" لأول مرة في تاريخ النقد الأدبي، ثم لقد تناول القاضي الجرجاني (ت:392هـ) قضية عمود الشعر في كتابه (الوساطة بين المتنبي وخصومه)، أثناء حديثه عن العناصر التي تفاضل من خلالها العرب الشعراء، وهي الأسس التي يتكون منها عمود الشعر، وخلا ذكره لها من الاهتمام بالصورة الشعرية، وذكر منها شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته[3].

---

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، دار الرواق، بيروت، 1999م، ص ٣٦٥.

(2) ضياء الدين نصر بن محمد بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2010م، 78/1.

(3) أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط(2)، 1972م، 18/1، والمرزوقي: شرح ديوان الحماسة، 1/ 8، وهذا الرأي

وباختصار فقد كان خط سير النقاد العرب القدامى يسير إلى احترام الأصالة والتمسك بالموروث والنفور من التغيير، وهو ما عرّفنا به المرزوقي بأسس عمود الشعر العربي، وهي الأسس التي توارثها الشعراء وخلفوها وراءهم وقد عدّها النقاد علامة من علامات الطبع، ومدح النقاد من التزم بها وذموا من خرج عنها، وإذا ما أخل الشاعر بشيء منها عدّ بعيدًا عن الذوق العربي السائد ورفض الرواة رواية شعره. يقول المرزوقي عن عناصر عمود الشعر العربي في مقدمة شرحه لديوان الحماسة ما لم يحتو ذكرًا للصورة الشعرية، فقال: " إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة، كثرت سوائرُ الأمثال، وشوارد الأبيات، والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها، على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى، وشدة اقتضائهما للقافية، حتى لا منافرة بينهما، فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر" (1)، فذابت الصورة في الالتئام، والتشبيه والاستعارة والمعنى واللفظ والوصف، واليوم تذيب الصورة الشعرية كل تلك المفاهيم في مفهوم واحد هو (الصورة الشعرية).

وإلى ذلك يذهب ابن خلدون(ت:808هـ) في قوله عن الوظيفة الشعرية أو الصناعة الشعرية أنها " ترجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة باعتبار انطباقها على تركيب خاص، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال،ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبناء، فيرصها فيه رصًّا

لإحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق، عمان، 2006م، ص22، وفصّل بالقضية نوح أحمد عكبل: المصطلح النقدي والبلاغي عند الآمدي في كتابه الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري(رسالة ماجستير)، عمادة الدراسات العليا، جامعة مؤتة، مؤتة، 2006م، ص 65 وما بعدها.

(1) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، 9/1، مقدمة الشارح.

كمايفعلـه البنـاء فـي القالـب أو النسـاج فـي المنـوال حتـى يتسـع القالـب بحصـول التراكيبالوافيـة بمقصود الكلام"[1].

[1]ابن خلدون، المقدمة، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1967م، ص 47.

- **الصورة عند النقاد المحدثين :**

عرف (فان van) الصورة بأنها : " كلام مشحون شحنًا قويًّا، يتألف عادة من عناصر محسوسة، خطوط، ألوان، حركة، ظلال، تحمل في تضاعيفها فكرة أو عاطفة أي إنها توحي بأكثر من المعنى الظاهر، وأكثر من انعكاس الواقع الخارجي، وتؤلف في مجموعها كلاً منسجماً " [1]، وعرف (بوند Bund) الصورة بأنها " ما ينقل عقدة فكرية أو عاطفية في لحظة زمنية"[2]،

وانقسم النقاد العرب المحدثين إلى قسمين من حيث الاعتراف بفضل النقاد العرب القدماء في تعريف الصورة، أو إنكار أية صلة لهم بموضوع الصورة؛ ومن اعترف فرق بين ما كانوا يرونه في الصورة وما آلت إليه الصورة الحداثية اليوم.

ولعل أول دراسة تحمل في عنوانها مصطلح (الصورة) عند العرب المحدثين هي دراسة مصطفى ناصف, والتي ظهرت في أولى طبعاتها عام1958م عن دار مصر للطباعة، وقد أنكر ناصف جهود القدماء في ابتكار المصطلح، وأنكر أن يكون العرب قد عرفوا الصورة الشعرية " بحجة أن النقد العربي القديم لم يعرف الاحتفال بالقوى النفسية ذات الشأن في إنتاج الشعر" كما أنكر اهتمام العرب بالخيال, فيقول : "والحق أن لدينا قرائن أخرى تكشف عن إهمال الخيال في النقد العربي! "، وهذا ما لم يظهر عند تتبع الباحثة للخيال عند فلاسفة العرب على وجه الخصوص، ويعرف ناصف الصورة بقوله : " إنها منهج فوق المنطق لبيان حقيقة الأشياء"،

---

(1) روز غريب، تمهيد في النقد الحديث، مطبعة دار غندورة، بيروت، ط(1)، 1971م، ص 192.

(2) السابق نفسه، ص١٩٢.

ويرى ناصف أن الصورة تستعمل للدلالة على كل ما له صلة بالتعبير الحسي، وتطلق أحيانًا، مرادفة للاستعمال الاستعاري[1].

وتبعه محمد غنيمي هلال الذي يرى أن ندرس الصور الأدبية في معانيها الجمالية, وفي صلتها بالخلق الفني والأصالة, ولا يتيسر ذلك إلا إذا نظرنا لاعتبارات التصوير في العمل الأدبي بوصفه وحدة, وإلى موقف الشاعر في تجربته, وفي هذه الحالات تكون طرق التصوير الشعرية وسائل جمال فني مصدره أصالة الكاتب في تجربته وتعمقه, ويكون مظهره في الصور نابعًا من داخل العمل الأدبي، أما الصورة عنده فهي "الوسيلة الشعرية الجوهرية لنقل التجربة .. في معناها الجزئي والكلي.. فالصورة جزء من التجربة، ويجب أن تتآزر مع الأجزاء الأخرى في نقل التجربة نقلا صادقًا فنيًّا وواقعيًّا، وهذا قدر مشترك بين المذاهب الأدبية الحديثة"، ثم نظر هلال في اختلاف نظرة المذاهب للصورة الشعرية ففي الرومانتيكية تعتمد الصورة على التجربة الذاتية تصوير ذلك الفيض التلقائي من العواطف الجياشة لدى المبدع، وأما المذهب الواقعي فإنه يعنى بالصور الشعرية من خلال صياغتها، ويرى بأن الصورة الشعرية تعكس جوهر الأشياء، وأما الرمزية فترى في الصورة الشعرية إيحاء، وترى أنه لابد للشاعر أن يلجأ إلى وسائل تهتم بإظهار اللغة الوجدانية، كي تقوى على التعبير عنه، ليتوفر بذلك صفات إيحائية للصور الشعرية التي ابتكرها الشاعر الرمزي[2].

---

(1) مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، 1989م، ص ٣-13.

(2) محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1977م، ص398، وص 417.

وجاء بعدهما نفر كثير منهم جابر عصفور الذي يرى أن الصورة الشعرية طريقة خاصة من طرق التعبير، أو هي وجه من أوجه الدلالة، وتنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير، ولن تغير الصورة من طبيعة المعنى في ذاته، وإنها لا تغير إلا من طريقة عرضه، وكيفية تقديمه"[1].

وحضر إحسان عباس في غير مشهد في كتبه ليتحدث عن الصورة بعدما أفاض الحديث عنها من خلال تبيان قضايا النقد العربي القديم في طيات كتابه الشهير (تاريخ النقد الأدبي عند العرب) وظهرت الصورة عنده في غير مرة بأنها مشهد قوامه الكلمات، من خلال ما تقدمه من لوحة فنية تتضافر على إخراجها الألفاظ، سواء بمدلولها الحسي، أم بمدلولها الإيحائي، ولها حركة متصلة في قلب العمل الأدبي تتبصر بها في دوائره ومحاوره ومنعطفاته، وننتقل بواسطتها داخل العمل الأدبي من مستوى تعبيري إلى مستوى تعبيري آخر، حتى يتكامل لدينا البناء الأدبي كائنًا عضويًّا حيًّا[2].

وعدّ أحمد الشايب الصورة من الوسائل التي يحاول بها الأديب نقل فكرته وعاطفته معًا إلى قرائه وسامعيه [3]، و ربط داود سلوم الصورة الشعرية بامتزاج المعنى والألفاظ والخيال، وعلى الناقد أن يبحث فيها مرة واحدة عند نقد النص[4]، والصورة عند روز غريب هي تعبير عن حالة محسوسة، وهي لوحة مؤلفة من كلمات، أو مقطوعة وصفية في الظاهر لكنها في التعبير

---

(1) جابر عصفور، الصورة الشعرية في التراث النقدي والبلاغي، ص ٣٩٢.

(2) إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 91.

(3) أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، دار الفرقان، بيروت، 1998م، ص ٢٤٢.

(4) داود سلوم، النقد الأدبي، دار البلاد، القاهرة، ط(2)، 1987م، ط(١) ، ص٨١.

الشعري توحي بأكثر مما هو ظاهر، وقيمتها ترتكز على طاقتها الإيحائية، فهي ذات جمال تستمده من اجتماع الخطوط والألوان والحركة ونحو ذلك من عناصر حسية، وهي ذات قوة إيحائية تفوق قوة الإيقاع لأنها توحي بالفكرة كما توحي بالعاطفة[1].

ونصل إلى من جمّع دراسات النقاد العرب من قدماء ومحدثين، وهكذا صنع عبد الإله الصائغ الذي له عدة دراسات تحمل في عنوانها مصطلح (الصورة) وتعالج قضاياها في أصالة وعمق, وقد تناول الصائغ معرفة النقاد العرب القدماء للصورة الفنية واهتمامهم بها, وتعرض لجهود النقاد العرب المحدثين, ثم تناول الصورة الفنية في شعر الأعشى من خلال الموضوع, والزمان, والمكان, والذات, والأسلوب, والحقيقة, والمجاز, ثم تعرض لسلطان الحواس وتأثيره على الصورة, ثم تناول النغم الشعري عند الأعشى، وعرف الصورة الشعرية بكونها تسعى إلى تقديم نسخة جزئية أو كلية للواقع (الحسي أو الشعوري) كما تساهم مع الشاعر فيخلق أسلوب أدبي مؤثر يقدمه الشاعر في نسخة جمالية يستحضر فيها لغة الإبداع الحسية أو الشعورية منطلقًا من صياغة جديدة تمليها قدرة الشاعر وتجربته(2).

ولقد اتخذت دراسات عبد القادر الرباعي من الصورة عنوانًا لها, وقد عدّ الصورة أساس العمل الأدبي وتولدت عنده منذ التقاها أنها الوسيلة الفنية الجميلة التي يرى أنها يمكن أن تكون قلب كل عمل فني, ومحور كل نقاش نقدي، والصورة عنده ابنة للخيال المتميز الشعري الممتاز الذي يتألف عند الشعراء من قوى داخلية تفرق العناصر وتنشر المواد ثم تعيد ترتيبها وتركيبها لتصبها في قالب خاص حين تريد خلق فن جديد متحد منسجم، والقيمة الكبرى للصورة الشعرية عنده في أنها تعمل على تنظيم التجربة الإنسانية الشاملة للكشف عن المعنى الأعمق للحياة

(1) روز غريب، تمهيد في النقد الحديث، ص ١٩٠.

(2) عبد الإله الصائغ، الصورة الفنية معيارًا نقديًّا، دار التراث، بغداد، 1989م، ص 45، وما بعدها.

والوجود المتمثل في الخير والجمال من حيث المضمون والمبنى بطريقة إيحائية مخصبة، واستعرض الرباعي آراء بعض النقاد غير العرب في الصورة وقال إن هذه الآراء وأمثالها تعزز ثقتنا بهذه الوسيلة الجمالية وتدفعنا للاعتماد عليها في حركتنا نحو اكتشاف المعنى الأشمل للحياة, فالصورة بنضارتها وتكثيفها وقوة الاستدعاء فيها تتولد بعد مواجهة حقيقة من الشاعر للعالم, وإقبال روحي عليه, واندماج كامل فيه, ولذا تصبح رؤيته فيها خاصة, وأقل ما توصف به أنها رؤية داخلية متميزة لعالم جديد متميز، وعرفها فقال: هي " هئية تثيرها الكلمات الشعرية بالذهن، شريطة أن تكون هذه الهئية معبرة وموحية في آن " [1].

ويميل نعيم اليافي إلى أن دراسة الصورة الشعرية، فيشعر الحداثة، يمكنها أن تبين مدى الاختلاف بينه وبين الشعر العربي الكلاسيكي والتقليدي المعاصر، وذلك من منظور أن الصورة الشعرية جوهرية في الشعر عامة، فيما أن الصورة، على هذا النحو من الأهمية، فإن تبيانها وتبيان علائقها، عبر المدارس الشعرية، يؤدي بالضرورة إلى تبيان الاختلاف الجوهري بين هذه المدارس[2].

وأخيرًا درس صالح أبو إصبع أنماط الصورة الشعرية (المفردة، والمركبة، والكلية)، وأما الصورة المفردة فهي أبسط مكونات التصوير، وأما الصورة المركبة فهي مجموعة من الصور المفردة تستهدف تقديم فكرة أو موقف على قدر من التعقيد أكبر من أن تستوعبه الصورة المفردة،

---

(1) عبد القادر الرباعي، الصورة الشعرية في النقد الشعري " دراسة في النظرية والتطبيق" ، مكتبة الكتاني، إربد، ط(2)، 1995م، صفحات متفرقة 85 – وما بعدها.

(2) نعيم اليافي، مقدمة لدراسة الصورة الشعرية، وزارة الثقافة، دمشق، 1982م، ص 8.

وأما الصورة الكلية فيمكن تصورها من خلال الوحدة العضوية لصور القصيدة كلها إضافة لما تتخلل هذه الصور من تقنيات تساهم في توصيل المعنى[1]، كما أشار نعيم اليافي إلى أن الصورة لا تعني ما هو جزئي وحسب، بل تعني ما هو كلي أيضًا، بمعنى أن ثمة صورًا جزئية، كما أن ثمة صورًا كلية[2].

وكذلك درس صالح أبو إصبع أنواع الصورة الاستعارية (التجسيدية والتشخيصية والتجريدية)، فأما التجسيدية فتلك التي تكسب المعنى صفات محسوسة مجسدة، وأما التشخيصية فتخلع الصفات الإنسانية على كل معنى محسوس ومادي، وأما التجريدية فيتم تشكيلها بإضفاء صفات معنوية على الصور المحسوسة فتنهار الفوارق بين المعنى الحسي وذاك المعنوي[3].

وينطلق نعيم اليافي من أن الأشكال البلاغية القديمة إنما هي "أبنية مهدمة استنفدت طاقاتها، وخلقت جدتها، وطال عليها الزمن"، وهي لذلك لم تعد ملائمة لهذا العصر بخلفيته الثقافية، مما يقتضي تعاملاً صوريًّا جديدًا وهو ما أنجزه الشعر الحديث[4].

وأما الصفات التي تتصف بها الصورة الشعرية الحداثية، بحسب نعيم اليافي، فيمكن إجمالها بالأمور التالية:

---

(1) صالح أبو إصبع، الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط(1)، 1979م، الصفحات 42، 60، 75.

(2) نعيم اليافي، مقدمة لدراسة الصورة الشعرية، ص 8.

(3) صالح أبو إصبع، الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة، الصفحات 44، 45، 53.

(4) نعيم اليافي، مقدمة لدراسة الصورة الشعرية، ص 8.

1- تعد الصورة الشعرية أحد مكونين اثنين، في القصيدة المعاصرة، وقد عبرت عن تجارب الشعراء رؤية وبناء، أما المكون الثاني فهو الإيقاع.

2- إن أساس الصورة الشعرية يكمن في الخلق، لا في المحاكاة، كما كان سائدًا في الشعر العربي، ومن ذلك ، فقد تخلت الصورة المعاصرة عن وظائف الصورة التقليدية في الشرح والتزيين.

3- أضحت الصورة، في الشعر المعاصر، وسيلة الخلق والكشف والرؤيا وأداة التعبير الوحيدة عن العلاقة المتشابكة المعقدة مابين الأنا / والآخر = الداخل / والخارج.

4- تلاحمت الصورة بشكل أوضح وأقوى مع أنساقها الخارجية والداخلية.

5- من الصعوبة الحديث عن بنية عامة ثابتة للصورة،في القصيدة المعاصرة[1].

وفي الختام فعلى الناقد أن يبحث عن هيئة الصورة الشعرية منطلقا مما يأتي:

1- أنواعها البلاغية: وتسمى الصورة باسم نوعها البلاغي فنقول صورة تشبيهية, أو صورة استعارية ...

2- مادتها التي صنعتها: فنقول صورة رمزية , أو صورة إشارية, أو صورة بنيوية أو صورة بصرية أو لمسية أو ذوقية (نسبة للحواس) . .

3- معطياتها الإبداعية وحقولها التي تنتمي إليها فنقول صورة نفسية أو صورة أسطورية . . . وهكذا.

---

[1] نعيم اليافي، الصورة في القصيدة العربية المعاصرة، مجلة "الموقف الأدبي"، العدد 256/255. دمشق، 1992م، ص46.

4- بواعثها التي بعثت الصورة من خلالها, فنقول صورة أخلاقية أو صورة اجتماعية أو صورة سياسية.

وقد ترتبط الصورة ارتباطاً كاملاً أو جزئياً بنوعها أو باعثها أو مادتها لكنها لا تتفوق عليها إلا بكونها تحتويه وأن لها الفضل في تشكيل المعنى الذي يبحث الناقد عنه, ثم ينسب إليه باعثاً ما أو نوعاً ما.

إذن، فالصورة هي تلك التي تتجسد أو تتشكل من الواقع والأحداث ومستودعها اللغة بما فيها من معتقدات وأساطير وتصرفات اجتماعية وأفكار تلح على خيار الشاعر فيختار بوعيه ما يتناسب مع إبداعه مادة يشكل منها صورته بتعبير يشكل فكر الصورة، ومغزى يوحي بأثرها الأدبي[1].

وترى الباحثة أنه يمكن استخلاص سمات الصورة الشعرية كما يلي:

- لها قوة خلاقة.
- قادرة على نقل الفكرة.
- تعبر عن الحالة النفسية.
- تعبر عن التفاعل الداخلي للمبدع.
- تعد الضوء الكاشف عن كفاءة المبدع الشعرية.

ثم إن الصورة الحداثية كما سمّاها نعيم اليافي قد ألغت معادلة التعبير عن المعنى المعروفة :

[فكرة + صورة = معنى]

[1] عماد الخطيب، في الأدب الحديث ونقده، دار المسيرة، عمان، 2006م، ص 187، وما بعدها.

وجعلت التعبير عن المعنى وفكرته يتم من خلال الصورة فقط[1].

وإذا ما قابلنا هذه الصفات بصفات الصورة التقليدية،فإن التطور في الصورة المعاصرة يغدو أكثر وضوحًا، أما هذه الصفات فهي: التعارض بين الفكرة والصورة، والتزينية، وطغيان الصور المفردة الجاهزة والمكررة والثابتة، وطريقة تفكيكها والتراكمية والتناقض من خلال تشكلها ومن ثم شرحها وتحليلها[2].

علاوة على الثنائية التي تقوم عليها الصورة التقليدية التي هي محاكاة أولاً، وبهذا المعنى، فإن القفزة النوعية التي قام بها الشعر المعاصر، تجد صداها الأساسي، في الصورة الشعرية، ولا غرابة في ذلك، إذ إن الصورة في الشعر هي أداته الرئيسة في الخلق والإبداع[3].

غير أن ما تنبغي الإشارة إليه، في هذا المجال، هو أن اليافي لا يرى في الصورة وفي تطويرها مسألة فنية فحسب، بل إنه يرى فيهما أيضاً إحالة على الإطار المعرفي للعصر. أو كما يقول "يعد الإطار المعرفي الفلسفي والثقافي والاجتماعي والفني المهاد التي تأسست عليها تقنيات القصيدة عامة وتقنيات الصورة خاصة"[4]، فتطور الصورة إذًا، لا ينهض مما هو فني وحسب. بل ينهض أيضاً من كل ما ينطوي عليه العصر الحديث وبذلك، فإن الصورة الشعرية تمثل

---

[1] نعيم اليافي، الصورة في القصيدة العربية المعاصرة، ص 26.

[2] نعيم اليافي: تطور الصورة الشعرية في الشعر العربي الحديث، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1983م، ص 364.

[3] نعيم اليافي، الصورة في القصيدة العربية المعاصرة، ص46.

[4] السابق نفسه، الصفحة نفسها.

المبدع، بقدر ما تمثل عصره، على كل الأصعدة، ولاشك في أن هذه النظرة تتسم بالحيوية والجدلية. وذلك من خلال ربطها بالصورة الشعرية بمجمل العلائق الداخلية والخارجية، وعدم النظر إلى الصورة على أنها ذات مستوى فني وحسب، ولكن اهتمامها الشديد بالصورة، يجعل منها ذات بعد جزئي،على الرغم من محاولة هذه النظرة توسيع مفهوم الصورة، ليشمل النص الشعري الحداثي عامة، في أحد مستوياته.

وهكذا نلحظ أن النسق الصوري يرى أن تطور القصيدة المعاصرة ينهض من تطور تقنيات الصورة الشعرية، ولا يمكن لأي تجديد، مهما يكن مستواه، إلا أن ينعكس في الصورة، أو الأصح: لا يمكن إلا أن يطال الصورة أولاً، وما ذلك إلا لأن الصورة هي الأداة الرئيسية أو الجوهرية في الشعر.

ويذهب النسق الرؤيوي إلى أن ما هو جوهري، فيشعر الحداثة، يكمن أولاً في الرؤيا. فالرؤيا الحداثية هي التي تسوغ وجود الحداثة،وليس المستويات الشعرية أو الشكلية، ويتم التوكيد في هذا النسق، أن الشعر العربي الكلاسيكي هو، في المقام الأول، شعر رؤية؛ على حين أن شعر الحداثة هو شعر رؤيا،ويؤكد غالي شكري "أن كلمة الرؤيا . إذا شئنا الدقة في التعبير والتأريخ لا تنطبق أبعادها إلا على هذا الشعر الحديث"[1].

ويربط غالي شكري بين الرؤيا المأساوية القاتمة وبين الغموض الذي يتسم به هذا الشعر، مؤكداً أن "ليس التلاعب بالأوزان أو اللغة أو الصور هو السر الكامن وراء هذا الغموض، وإنما هي الرؤيا المأساوية القاتمة في جوهرها العميق"[2]، ومن ذلك فإن أهمية هذا

---

[1] غالي شكري، شعرنا الحديث إلى أين؟، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط(2)، 1978م، ص 13.

[2] السابق نفسه، ص 12.

الشعر وتميزه يقومان أولاً على تحوله من الرؤية إلى الرؤيا. ولعل هذا ما دفع أدونيس إلى تعريف الشعر الحداثي بقوله:" إنه رؤيا. والرؤيا بطبيعتها قفزة خارج المفهومات السائدة. هي، إذن، تغيير في نظام الأشياء وفي نظام النظر إليها"، وبما أن الأمر على هذا النحو، فلا ينبغي [1]"أن نبحث في القصيدة الجديدة عن الصورة أو الفكرة بحد ذاتها. بل عن الكون الشعري فيها وعن صلتها بالإنسان ووضعه"[2].

ويوجد ربط بين تشكيل الصورة وبين تجسيدها لرؤية رمزية، فالشاعر يخلق عالمه الشعريّ، ويبدع منه صورًا لا يتمكن من إبداعها في عالم الواقع، فتكون الصور الجديدة ليست نتاجًا لعالم الواقع وحده ولا نتاجًا لعالم الشعر وحده ولكنها مزاج من الواقع والشعر[3].

وصورة المجاز المرسل صورة إشارية[4]، ناب فيها شيء عن شيء لعلاقة فعلية بينهما، وارتفاع بها عن الأسلوب المباشر، والصورة الإشارية التي تسيطر على العقول ببساطة من الناس الذين تقترب صورهم من العبارات المباشرة ، مع ما تحمله هذه الصورة في ألفاظها من معتقدات دينية وأساطير وتصرفات اجتماعية، وتتمثل الصورة الإشارية في باعثها البلاغي من الكناية أو المجاز المرسل، فإذا ما انطلقنا إلى مخيلة الشاعر ذات الاختيار الواعي التي تحول تفكيره السطحي إلى فكرة أكثر عمقًا وقادرة على الاحتكاك مع فكرة أخرى فالفكر والشعور كلاهما يشكلان (مادة الصورة) التي هي لغة الشعر، والتي قد نرى فيها المعتقدات والأساطير ووالعادات

---

(1) أدونيس، زمن الشعر، دار العودة، بيروت ، ط(3)،1983 م، ص9.

(2) السابق نفسه، ص 12.

(3) مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، ص 153.

(4) عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية عند أبي تمام، مطبوعات جامعة اليرموك، إربد، 1980م، ص 161-164 .

والأساليب الشعرية؛ لذلك يجب دراسة الصورة الشعرية من واقع دراسة الشعر جنبًا إلى جنب مع دراسة الفكر المبثوث بين ثنايا القصيدة.

ومن ثم تصبح الصورة بتكرارها نمطًا يستدعي لدى الشاعر غيره من الصور، فتصير هذه الصورة كالرمز البؤريّ تحتاج إلى صور تنمو في شكل رموز تتكامل وتتماسك وتتلاقى الفروع أو الرموز الصغرى في رنين واحد[1].

ولقد بدأت الصورة الأسطورية في الوجود من خلال إحساسنا بأزمة الشعور الميثولوجي التي نشأت مع وجود الإنسان وعلاقته بالكون من حوله، فهل الطقوس هي الأصل الذي تطورت عنه الفنون والآداب في الحضارات المختلفة ؟ وبذلك يمكن عد الأسطورة المرحلة البدائية لتشكل الصورة الشعرية والفكر المنبثق عنها.

ولما ربطت الدراسات النقدية تشكيل الصورة بالخيال، والمجاز، وخَلَفَت الرؤية الرمزية بقايا اعتقادات قديمة ومزجت بين عالم الشعر، وعالم الواقع، أقول لما ربطت الدراسات معًا، تكشَّف للشاعر كم تكشف للناقد من خلال ما شكله شعراء العرب المحدثون مكنونات لا شعورية تربط هموم العربي مع بعضها البعض إلى حدٍّ كبير، ثم يعبَّر الشاعر العربي من أي بقعة جغرافية وفي لحظة شعورية عمَّا في فكره من صور ومشاهد وأحداث كان قد رآها النقاد في اللحظة الشعورية الإبداعية تذكرها [صورة – صورة]، لترسم أسطورة / أو مجازًا تستوعبه في الغالب لغة الاستعارة.

وهكذا ترى الباحثة أن محددات الصورة تجمع بين محددين (المحدد المهاري / التقني، والمحدد التوليدي/ الذي منه تولدت الصورة) وتكمن تلك المحددات في التالية :

---

[1] مصطفى ناصف، الصورة الأدبية ، ص 166.

- الإدراك.
- الاستعارة.
- الإيحاء.
- المجاز.
- الرمز.
- التشبيه.

وإن من التقنيات التي يستخدمها الشاعر في توليد صوره:

- إتقان العرض أسلوبي.
- اختيار التعبير المناسب وترتيبه.
- رسم خصوصية التأثير على ذهن المتلقي.
- النظر فيما توجده الصورة من تعدد في وجوه الدلالة.
- بعث المتعة الذهنية.
- إبداع التصوّر التخييليّ.

وختامًا فإن أهمية الصورة الشعرية في النص الشعري تكمن في قدرتها على [1]:

- تشكيل علاقات جديدة في صياغة جديدة.
- اعتماد عنصر المغايرة في تشكيل البناء.
- إرسال الحيوية في التجربة الشعورية.
- توحي للمتلقي بالحركة اللغوية الدلالية.

---

(1) استفادت الباحثة من إحسان عباس، فن الشعر، دار الثقافة، بيروت، ط(5)، 1957م. ص260، فايز الداية: جماليات الأسلوب (الصورة الشعرية في الأدب العربي)، دار الفكر، دمشق، 1990م، ط(2)، ص114.

- تمثل تفاعل السياق وتركيب الجملة.
- تترجم الحالة التي يعيشها الشاعر.

المبحث الثاني:

موضوعات صور الشعراء ومضامينها.

يعدُّ هارون الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم، كان يحج سنة ويغزو كذلك، مدة خلافته إلا سنين قليلة، وكان يتشبه في أفعاله بالمنصور إلا في بذل المال، فإنه لم ير خليفة أسمح منه بالمال، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخر، وكان يحب الشعر والشعراء، ويميل إلى أهل الأدب والفقه ويكره المراء في الدين، وكان يحب المديح لاسيما من شاعر فصيح، ويجزل عليه العطاء[1].

1- صورة الرشيد وتوليه الخلافة:

تغنى الشعراء بتولي الرشيد الخلافة، وعدوا ذلك حدثًا متميزا في تاريخ الخلافة الإسلامية، وتخيل الشعراء ما ستؤول إليه أحوال المسلمين بعد توليه الخلافة، ومن ذلك ما قاله أبو العتاهية بعد توليه الخلافة[2]: (المتقارب) :

أتته الخلافة منقادةً * * إليه تجرّر أذيالها

---

[1] ابن طباطبا العلوي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، عني بنشره: محمود توفيق الكتبي، المطبعة الرحمانية، مصر، 140.

[2] ابن عبد ربه ,العقد الفريد ,346/6.

فلم تك تصلح إلاّ له * * ولم يك يصلح إلاّ لها

ولو رامــها أحدٌ غيره * * لزلزلت الأرض زلزالها

يبالغ الشاعر في تصوير الخلافة تنقاد للرشيد، على نحو من التضخيم والمبالغة ولم يكتف بانقيادها، بل أتى بصفة الإرغام؛ لتدل على قوة سلطته,كما استعار ما يجسد به الخلافة وهي (تجرر أذيالها)،واستدعاء التناص القرآني في (تزلزل الأرض زلزالها) دل على ثلاثة أمور:

1- القوة .

2- السلطة.

3- الاستمرارية.

ودخل أشجع بن عمرو السلمي على هارون الرشيد حين قدم من الحج وقد مطر الناس يوم قدومه فصوره قائلا[1]: (الخفيف) :

إنَّ يُمْنَ الإمام لَمَّا أتانا * * جَلَب الغَيْثَ من متونِ الغمامِ

فابْتِسامُ النَّباتِ في أثر الغَيْثِ * * بنُوَّاره كسُرج الظَّلام

مَلِكٌ من مَخافة الله مُغْضٍ ** وهو مُغضًّى له من الإعظام

ألف الحَجَّ والجهادَ فما يَنْفَكُّ * * من سَفْرَتيْن في كُلّ عام

سَفَرٍ للجهاد نحـــو عَدُوٍّ * * والمطايا لسَفْــرَةِ الإحرام

---

[1] أبو الفرج الأصفهاني , الأغاني ,256/18.

اتسمت الصورة في الأبيات السابقة بطابع الفلسفة التجريبية التي تعتمد على الحواس في إيصال المعرفة وبنت قضاياها على التجربة,"فالحواس منافذ المعرفة, وبها نرى الأشياء ونسمعها ونشمها ونذوقها ونلمسها وتنطبع صور المحسوسات في الذهن وتتولد منها الأفكار"[2].

يصور الشاعر قدوم الخليفة بالنبات الذي يبتسم لقدوم الغيث ومجيء المطر وزيادة على الغيث النور الذي يشع منه ليهديه إلى النور ويبعده عن الظلام وكأنه يجسد النبتة ويضفي عليها البسمة ليخاطبها كما يخاطب الإنسان لنستشعر لذة قدوم الإمام والمهابة الدينية التي اسدلها على قيامه بالعبادة، فيقول النمري في الرشيد[1] : (البسيط) :

خَليفَةَ الله إن الجُودَ أودِيَةٌ * * أحلَّك اللَّهُ منها حيث تجتمعُ

مَنْ لم يكن بأمين الله مُعتصِمًا ** فليس بالصلوات الخمس ينتفعُ

لا تخلو الأبيات السابقة من التشبيه التمثيلي فهو يشبه صفة الكرم والجود لدى الخليفة مثل الأودية الجارية نظراً لان الكرم لا ينقطع فكذلك الأودية, ثم يظهر صورة سمحة أخرى فيصف الخليفة بصفة الدين والالتزام والاعتصام بحبل الله ومن لم يتشبه بالرشيد فلا تفيده الصلوات الخمس شيء، فصور أشجع السلمي الموقف قائلا[2]: (الطويل) :

إلى مَلِك يَستغْرِقُ المالَ جُودُه * * مكارِمُه نَثْر ومَعْروفُــه سَكْبُ

وما زالَ هارونُ الرِّضا بنُ مُحمَّد * * له من مياهِ النَّصْر مَشْرَبُها العَذْبُ

---

[2] أبو علي, محمد بركات حمدي, فصول في البلاغة, دار الفكر للنشر والتوزيع , عمان , 225.

[1] أبو الفرج الأصفهاني , الأغاني ,81/19.

[2] أبو الفرج الأصفهاني , الأغاني ,220/18.

متى تَبلُغ العِيسُ المَراسيلُ بابَه * * بنا فهناك الرُّحبُ والمنزلُ الرَّحْبُ

لقد جُمِعت فيكَ الظُّنون ولم يكن * * بغيرك ظَنٌّ يستريِح له القَلْبُ

نلحظ في الأبيات السابقة استخدامه الأسلوب الخطابي من خلال الحواس , (الشرب, الظنون, القلب) ليرسخ في الذهن صورة الرشيد فهو(الكريم – الشجاع المقدام – المضياف – من يستريح له القلب – وتبعد عن الشكوك والظنون) أوغل الشاعر في تجسيد صورة الرشيد في أذهان المتلقين .

وهذا النمط البلاغي من مشكلات وعي الشاعر التي سادت عصر البناء التقليدي للقصيدة العربية آنذاك، يقول أبو العتاهية[1]: (الرجز):

تَفْدِيكَ نَفْسِى من كلِّ ما كَرِهَتْ* *نفْسُكَ إِنْ كُنْتُ مُذْنِبًا فاغْفرْ

يا لَيْتَ قَلبى مُصَوَّرٌ لَكَ ما* *فيه لِتَسْتَيْقِنَ الَّذِى أُضْمِرْ

البيتانِ السابقان مما رواه ابن قتيبة في حبس الرشيد لأبي العتاهية، ومن الملاحظ فيهما ما ساد تاريخيًا في عصر الرشيد من سلطة قائمة على استعطاف الولاة وطلب الرحمة والمغفرة، وهذا من إفرازات القمع السلطوي آنذاك، فمدح الشعراء ملوكهم واستعطافهم بالمدح لم تكن صورة عابرة ، وإنما هي حصيلة تراكمية للتسليم المطلق بشرعية الخلفاء التامة، يقول إبراهيم الموصلي[2]: (الطويل) :

---

[1] الدينوري، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: مصطفى السقا، مطبعة المعاهد، القاهرة، 169/1.

[2] الطبري , تاريخ الطبري , 233/8, وانظر : ابن الأثير, الكامل في التاريخ ,274/5.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ كَانَتْ سَقِيمَةً * * فَلَمَّا وَلِيَ هَارُونُ أَشْرَقَ نُورُهَا

بِيُمْنِ أَمِينِ اللَّهِ هَارُونَ ذِي النَّدَى * * فَهَارُونُ وَالِيهَا وَيَحْيَى وَزِيرُهَا

صوّر الشاعر صورة تشبيهية للخليفة بالشمس، ولم يأت بها صورة مباشرة، بل احتال على الصورة لصالح الممدوح وهيبته، فاختفت الصورة وتبطنت لتظهر مع معرفتنا لصورة الممدوح (هارون) فلو لم يكن للمتلقي معرفة بشخص الممدوح لم تصل فكرة الصورة عنده..واجتمع الثلاثي المطلوب في صورة شعر المدح:

1- هيبة شخص الممدوح.

2- قوة الشاعر المادح أمام هيبة الممدوح.

3- مادة الصورة وتماثلها بين المشبه والمشبه به.

الشمس هي مصدر الإلهام والأشعة والطاقة والقوة، وتتويجٌ لجسد الخلق الذي أؤتمر عليهم الخليفة، وتتنامى الصورة أكثر قوة عند وصف الشمس بالسقيمة قبل مجيء الرشيد لكنها بكرم الرشيد وجوده أصبحت معطاءة كثيرة الخير.

لقد اكتسب الرشيد مكانته السياسية في تاريخ دولة بني العباس قبل تولّيه الخلافة، والدور التاريخي الذي لعبه في الحفاظ على هيبة الدولة الإسلامية في ظلّ صراعاتها مع الروم لما أوكل إليه من مهمة قائد الراية في غزوة الخليفة المهدي لبلاد الروم، كما سبق في تمهيد هذه الرسالة، إذ كُلّف بأمور الخلافة وهو في السادسة عشرة.

فكان للانتصار الذي أحرزته أسرة الرشيد ضد الروم، صدى كبيرٌ لدى المؤرخين في تأريخ ذلك الانتصار،غزا المسلمون غزوة مشهورة، وعليهم هارون الرشيد وهو صبي أمرد، وفي خدمته الربيع الحاجب، فافتتحوا ماجدة من الروم، والتقوا الروم وهزموهم، ثم ساروا حتى وصلوا إلى خليج القسطنطينية، وقتلوا وصالحتهم ملكة الروم على مال جليل. فقيل إنه قتل من الروم في هذه الغزوة خمسون ألفاً وغنم المسلمون الغنائم الكثيرة [1]، وفي ذلك يقول الشاعر[2]: (الطويل):

هَوَتْ هِرَقْلَةُ لَمَّا أن رأتْ عَجَبًا * * حوائمًا تَرْتَمِي بالنِّفط والنَّارِ

كأنَّ نِيرَانَنا في جَنْب قَلْعتِهِـــم * * مُصَبَّغاتٌ على أَرْسانِ قَصَّارِ

رأى في السَّما رَهْجا فيَمَّم نحوَه * * يجُرُّ رُدَيْنِيًّا وللرَّهْجِ يَسْتَقْرِي

تناولتَ أطرافَ البلادِ بقُدرَةٍ * * كأنَّك فيها تَقْتَفي أَثَر الخِضْرِ

الصورة في الأبيات السابقة استحضار مماثل للبعد المهيب في أهمية السلطة، وأنّ الحفاظ عليها مرهون بحقن الدماء بين الأخوين، ولم شتاتهما من مغبّة التفريط بالسلطة، واعتمد الشاعر في بنية الصورة السابقة على إحلال المعادل الموضوعي لمقوضات السلطة التي عبر عنها عبر سلسلة من البني الاستعارية في تشبيه قوة الرشيد وتوحيد البلاد بجامع القوة بينها .

---

[1] الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، العبر في خبر من غبر، تحقيق : محمد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، 188/1.

[2] أبو الفرج الأصفهاني , الأغاني ,254/18.

وتكشف الأطروحة عددًا من الصور على غِرار ما سبق في تضخيم السلطة، بوصفها خلاصة القوة الجبرية التي اتسمت بها عصور الخلافة؛ فمن قبيل ذلك أيضًا المناورة الشعرية التي استدعت الخليفة (هارون الرشيد) أن يطرق باب العباس بن الأحنف ليلا. أراد الخليفة من خلالها أن يشفع له العباس بأبياتٍ يردفها له عندما استعصى على الرشيد استكمال ما أُغلق عليه من باب الشعر[1]: (مجزوء الوافر):

جنـانٌ قد رأيناهـا * * ولم نَرَ مثلَها بَشـرًا

فأردفه الأحنف: (مجزوء الوافر)

يزيـدُكَ وجهُها حسْنـًا ** إذا مـا زِدْتَـهُ نَظَرا

تستشف الباحثة من الأبيات السابقة أن محورية صورة الرشيد في أذهان الشعراء لا تبارح صورة الممدوح الذي تجلّه أشعارهم، والتي تعدُّ من المنظور الثقافي عبئًا يختزل بداخله صناعة الفحل/ والسلطة/ والاستبداد، تلك الصورة التي تزاحمت بها أخيلة الشعراء في تشكيل صورة الخليفة.

ومن المدح المذموم من فحول الشعراء لهارون الرشيد مدح أبي نواس حيث يقول[2] :(الكامل):

وأخفت أهل الشّرك حتى إنه * * لتخافك النّطف التي لم تُخلق (1)

وقد ذمه النقاد لاستحالة الصورة الشعرية المتخيلة فيه.

---

[1] انظر: علي مهنا، طرائق الخلفاء والملوك، 186.

[2] حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة، المكتبة الأزهرية للتراث، 174/1.

يشير الشاعر إلى قوة الرشيد في الأبيات السابقة فهو الذي أخاف أهل الشرك كبيرهم وصغيرهم , حتى النطف التي لم تخلق تخافك من هيبتك وقوتك وعلو شانك , وهنا تتضح شدة المبالغة في إنهاء الحياة على الأرض بوجود الرشيد .

إن الشخصية القيادية التي امتاز بها هارون الرشيد مند نعومة إظفاره جعلت العباسيين يلتفتون إليه لتولية الحكم , مما جعل شخصيته الفذة تجعله صارما في إصدار الأوامر واتخاذ القرارات، حيث كتب إلى صاحب خراسان قائلاً:"داوِ جرحَك لا يتسع", وكتب إلى عامله على مصر:"احذر إن تخرب خزانتي", وكتب إلى عامله على فارس: "كن مني على مثل ليلة البيات"[1].

"ألف الرشيد العباس بن الأحنف فلما خرج إلى خراسان طال مقامه بها ثم خرج إلى أرمينية والعباس معه ماشيا إلى بغداد فعارضه في طريقه"[2] فصوره: (البسيط):

قالوا خُراسانُ أقصى ما يُرادُ بنا * * ثم القُفولُ فَقد جئنا خراسانا

ما أقدرَ الله أن يُدْني على شَحَط ** سُكّانَ دِجَلة من سُكَّان جَيْحانا

متى الذي كنتُ أرجوه وآمُلُه * * أمَّا الذي كنتُ أخشاه فقد كانا

عينُ الزمانِ أصابتْنا فلا نَظَرتْ ** وعذَّبتْ بصنوفِ الهجر ألوانا (4)

---

[1] ابن عبد ربه , العقد الفريد , 4/ 296.-297.

[2] أبو الفرج الأصفهاني , الأغاني ,388/8.

نلحظ في الأبيات السابقة تغنياً صارخاً في قوة الرشيد في عزل الولاة وفتح المدن وتنصيب الأمراء وسيطرته على معظم الأقطار مثل أرمينية وخراسان .

2- صورة الرشيد دبلوماسيًّا:

يتمتع هارون الرشيد بدبلوماسية عالية , على الرغم من توليه زمام الخلافة مبكراً منذ نعومة أظفاره وشهرته التي اجتازت القلاع والبحار والمحيطات .عين الرشيد (روح) حاكما لإفريقيا , بعد أن عصفت ريح الثورة بأخيه (يزيد بن الهيثم) ولم يكن أفضل حالا من أخيه حيث تمرد عليه الجيش وأسرع الرشيد إلى إرسال احد قادته المشهورين لقمع الفتنة فكانت إفريقيا في هذا الوقت تستنزف معظم موارد الدولة[1] .

وهو من أعقل الخلفاء العباسيين فأكملهم رأيا وتدبيرا وفطنه وقوة واتساع المملكة وكثرة الخزائن بحيث يقول للسحابة :أمطري حيث شئتي فان خراج الأرض التي تمطرين فيها يجيء إلي, ومع ذلك كان أتعبهم فكرا وأشغلهم قلبا[2] ... وذكر الطبري أن هارون الرشيد يجمع الناس عليه بالسوط والعصا والرغبة والرهبة[3]، وصوره أبو العتاهية فقال[4] : (الكامل) :

---

[1] انظر: حسن عبد الغفار,هارون الرشيد/ الخليفة المفترى عليه, مكتبة النافذة, مصر,2010م, 51.

[2] شيخو, رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب, مجاني الأدب في حدائق العرب, مطبعة اليسوعيين, بيروت , 1913م, 106/3.

[3] الطبري , تاريخ الطبري , 191/10 .

[4] أبو الفرج الأصفهاني , الأغاني , 247/18.

إمامَ الـهُدَى أصَبحْتَ بالدِّين مَعْنِيًّا * * وأصبحتَ تَسقِي كُلَّ مستمطِرٍ رِيا

لك اسمانِ شُقّا من رَشادٍ ومن هُدىً * * فأنت الذي تُدعَى رَشيداً ومَهْدِيًّا

إذا ما سَخِطْتَ الشيء كان مُسَخَّطاً ** وإن تَرضَ شَيْئاً كان في النَّاس مَرْضِيًّا

بَسَطْتَ لنا شَرْقاً وغَرْباً يَدَ العُلا * * فأوسعتَ شَرْقِيّاً وأوسَعْـــتَ غَرْبِيًّا

تأتي الأبيات السابقة على عدد من الصفات تحمل أبعاداً تجريدية متعلقة بعدد من القيم والفضائل في شخص هارون الرشيد , ونلحظ قوام الصورة الفنية قد استجمع الشاعر عددا من الصفات الخلقية النفسية المتمثلة ذهنيا (الرشاد – الهدى – السخط – العلا – الجود).

أقام الرشيد ثغرًا عباسيًّا جديدًا، وتمكن الرشيد بذلك من حماية الأطراف الغربية لدولته من أخطار الخوارج والأدارسة والأمويين والبيزنطيين[1].

ويعد عصر هارون الرشيد العصر الذهبي للخلافة العباسي؛ إذ بلغت أوجها,لقد كانت الدولة الإسلامية في تلك الفترة الدولة الكبرى والأولى والأقوى في العالم كله، وقد ازداد اختلاط عناصر السكان فيها بعضهم ببعض، وظهرت في الحياة العامة أخصب النزعات الاجتماعية والفكرية والدِّينية على صعيد واحد.. وزادت في الوقت نفسه أعداد المسلمين في الدولة مقابل الأديان الأخرى، وغدا المسلمون بصورة عامة أكثر من نصف السكان، **فيقول أبو العتاهية واصفًا ذلك[2]: (الطويل) :**

---

[1] أحمد مختار العبادي , في التاريخ العباسي الاندلسي ,92.

[2] أبو العتاهية، ديوانه، ص 187، وانظر: أبو الفرج الأصفهاني , الأغاني , 248/18.

ووشَّيْت وَجْهَ الأرضِ بالجُود والنَّدى * * فأصبَح وَجهُ الأرض بالجُودِ مَوْشِيًّا

وأنت – أمير المؤمنين – فَتَى التقَى ** نشرتَ من الإحسان ما كان مَطْوِيًّا

قَضَى اللهُ أن يَبْقى لِهارونَ مُلْكهُ * * وكان قَضاءُ الله في الخَلْق مَقْضِيًّا

تجلَّلَت الدُّنْيا لِهارُون ذِي الرِّضا* * وأصبح نَقْفُـــورٌ لهارون ذِمّيًّا

وبلغ اقتصاد الدولة ذروة قوته وازدهاره، وبلغت الأموال في خزائن الرشيد ذروتها وما لم تبلغه من قبل! ومع ذلك فإن عهد هارون الرشيد لم يخل من الفتن والأزمات[1]. كما حظيت دولة الرشيد بالاتساع الذي أعقب العديد من الفتوحات , وبتلاقي الطرق البرية والبحرية , مما جعلها صرة العالم[2] ، **فيقول النمري مصورًا[3]: (الطويل) :**

مُضِزٌّ على فأسِ اللجامِ كأنّه * * إذا ما اشتكت أيدي الجيادِ يطِير

فظلَّ على الصّفصاف يومٌ تباشرتْ * * ضِباعٌ وذُؤبانٌ به ونسور

فأقسِمُ لا يَنْسَى لك الله أجرها * * إذا قُسِّمت بين العبـادِ أجورُ

نلحظ قوة الرشيد وحنكته العسكرية في تأمين ثغور دولته , من كل الجوانب برا وبحرا , مما جعل عيون غيره من الأكاسرة تطمع في ملكه وتتودد إليها لتنال مودته .

لم يتوقف مدح الرشيد عن النظم حتى والشعراء في قبضة يده تحت الأسر وقيود الحديد , فقد مدح الشعراء هارون الرشيد لغاية في نفس يعقوب . فلما قدم الرشيد الرقة لبس أبو العتاهية

---

[1] الماتريدي, محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور , تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة), تحقيق: مجدي باسلوم, دار الكتب العلمية، بيروت, ط(1)، 1/26-25، 1426 هـ - 2005 م.

[2] انظر: وليم خازن, الحضارة العباسية , 43.

[3] أبو الفرج الأصفهاني, الأغاني , 164/13.

الصوف وتزهد وترك حضور المنادمة والقول في الغزل وأمر الرشيد بحبسه فحبس فكتب إليه من وقته[1]: (الطويل) :

أنا اليَومَ لي والحمدُ لله أَشْهُرُ * * يَرُوح عليّ الهَمُّ منكم ويَبْكُرُ

تَذَكَّرْ أمينَ الله حَقِّي وحُرْمتي * * وما كنتَ تُوليني لعلك تَذْكُرُ

لياليَ تُدْني منك بالقُرْبِ مجلسي ** ووجهُك من ماء البشابة يَقطُرُ

فلما قرأ الرشيد الأبيات قال قولوا له لا بأس عليك.

فالشاعر يذكر بلياليِ الأنس التي جمعت بينهما , وزيادة في مبالغة المدح يصور وجه بالقطارة التي يتصبب منها الماء العذب ويستعمل لفظ (يقطر) لان الماء الذي ينتج عن التقطير يكون صافي نقي صالح للشرب وكذلك الممدوح من شدة و طيبة كرمه .

كما عرف الشعراء صوراً أخرى للمدح من أجل التكسب حتى في حالة مرض الرشيد, يقول أبو العتاهية [2]: (البسيط) :

لو عَلِمِ النّاسُ كيف أنت لهم * * ماتوا إذا ما أَلِمْتَ أجْمُعُهمْ

خليفةَ اللّه أنت ترجَحُ بالنّاس * * إذا ما وُزِنتَ أنت وهُمْ

قد عَلِمِ النّاسُ أنّ وجهَك يَستَغْنِي * * إذا ما رآهُ مُعدِمُهمْ

فما زال يسامره ويحدثه إلى أن برئ ووصل إليه بذلك السبب مال جليل , نلحظ أن الشعر اتخذ منهجاً تكسبياً حتى في أسوأ الظروف، فيقول نصيب الأصغر[3] : (الطويل) :

---

[1] السابق نفسه, 67/4.

[2] أبو العتاهية، ديوانه، ص 156، وانظر: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني 16/4.

خليليَّ إني ما يزالُ يشوقُني ** قَطينُ الحِمىَ والظاعنُ المتحمّلُ

فأقسمت لا أنسى ليالِيَ مَنعِجٍ ** ولا مأسَلٍ إذ منزلُ الحي مأسَلُ

أمن أجل آياتٍ ورسم كأنه * * بَقيةَ وحْيٍ أو رداءٌ مُسَلسَلُ

نظم الشاعر هذه الأبيات في مدح هارون الرشيد وهي من جيد شعره فقد برز الإلحاح في هذا العصر على المعاني الإسلامية خاصةً في مدح الخلفاء و الوزراء ومنهم هارون الرشيد على نحو لم يُعهد مِنْ قبل. فالخليفة في نظر الشعراء إمام المسلمين و حامي حمى الإسلام. و قد بالغ الشعراء في وصف مكانة ممدوحيهم الدينية، فيقول أبو نواس[1]: (الطويل) :

لقد اتقيتَ الله حقَّ تُقاتـه ** و جَهَدْتَ نفسك فوق جُهدِ المُتقي

ولم يتوقف مدح الرشيد على شخصه وإنما تعدت سياسة الشعراء إلى مدح أبنائه الثلاثة لما عقد لهم ولاية العهد (الأمين، والمأمون، والمؤتمن)، فصور أبو العتاهية[2] : (الطويل) :

رَحَلْتُ عَنِ الرَّبْعِ المُحِيل قَعُودِي ** إلى ذي زُحُوفٍ جَمَّةٍ وجُنُودِ

وَراعٍ يُراعي اللَّيل في حِفْظِ أُمَّةٍ ** يُدافِع عنها الشرَّ غيرِ رَقُودِ

---

[3] نصيب هو: نصيب بن رباح، مولى المهدي، عبد نشأ باليمامة واشتُري للمهدي في حياة المنصور فلما سمع شعره قال والله ما هو بدون نصيب مولى بني مروان فأعتقه وزوجه أمة له يقال لها جعفرة وكناه أبا الحجناء وأقطعه ضيعة بالسواد وعُمِّر بعده, انظر: ديوان نصيب بن رباح، جمع وتقديم: داوود سلوم، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1967 م، ص 47.

[1] المرزباني، أبو عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، 332/1.

[2] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، 29/6.

بِأَلْوِيَة جبريلُ يَقْدُم أهلَها * * ورَايات نَصْرٍ حولَه وبُنودِ

تَجَافَى عَنِ الدُّنْيا وأَيْقَن أَنَّها * * مُفَارِقَةٌ ليستْ بدَارِ خُلودِ

وشَدَّ عُرَا الإسلامِ منه بِفِتْيةٍ ... ثَلاثةِ أملاكٍ وُلاَةِ عُهُودِ

هُمْ خيرُ أولادٍ لَهُمْ خيرُ وَالدٍ ... لَهُ خيرُ آباءٍ مَضَتْ وجُدود

بنو المصطفَى هارونَ حولَ سَرِيرِه ... فَخَيْرُ قِيَامٍ حولَه وقُعودِ

لا زالت الألفاظ الدينية طاغية على قلوب وعقول الشعراء , فالشاعر يصف ولاة العهد بأفخم لفظ ويلصقه بـ (جبريل– عليه السلام –).

وصور الشاعر أبناء الرشيد حملة لواء الدولة العباسية, وهم حملة رايات النصر وصورهم بمن يستمد العزة من الإسلام كما أنهم خير الأولاد ويتصفون بالخيرة من أبائهم وأجدادهم, ثم صورهم بأنهم من نسل النبي وهو قوله: (بنو المصطفى) .

وصور الشعراء الرشيد وأبناءه وانغمسوا في سماتهم, وصورا أشياء الرشيد وخصوصياته، ووصلوا إلى وصف فرس الرشيد (المشمر)، فصوره أبو العتاهية[1] : (البسيط):

جاء المشمّر والأفراسُ يَقْدُمُها * * هَوْنًا على رِسْله منها وما انْبهَرا

وخَلَّف الريحَ حَسْرَى وهي جاهدةٌ * * ومَرّ يختطف الأبصارَ والنظرَا

فأجزل صلته وما جسر أحد بعد أبي العتاهية أن يقول فيه شيئاً.

ولم تتوقف دبلوماسية الرشيد في التوسعات والفتوحات بل عرف مجلس الرشيد نمطاً آخر من أنماط السياسة الذكية وهي كثرة الجواري ,فاعتبره البعض سياسية جديدة لإرضاء كل

[1] أبو الفرج الأصفهاني , الأغاني , 47/4.

الأطراف التي حوله, وهذا الشرخ الذي يكاد يختلف فيه المؤرخون بين مؤيد ومعارض لفسق الرشيد من رشده.. وورد أنه اجتمع في قصر زبيدة مائة جارية تقرأ القرآن فكان يسمع من قصرها دوياً كدوي النحل من القراءة[2] .

فمما ورد بالمقابل انه اجتمع للرشيد في وقت صلاة العصر أم جعفر (زوجة) ومعها ما يقارب الألف جارية يرددن على الرشيد[1]: **(مجزوء البسيط)** :

منفصل عني وما * * قلبي عنه منفصل

يا قاطعي اليوم لمن ** نويت بعدي أن تصل

فطرب الرشيد، وقام على رجليه حتى استقبل أم جعفر علية، وهو على غاية السرور، وقال: لم أر كاليوم قط، ثم قال: يا مسرور، لا يبقين في بيت المال درهم إلا نثرته، فكان مبلغ ما نثر يومئذ ست آلاف ألف درهم، وما سمع بمثل ذلك اليوم قط.

والأغاني مليء بصور الرشيد، ومنه ما نسب لشاعر ومنه ما لم ينسب، ومن صور الشعراء للرشيد قول الشاعر[2]:

مَلَكَ الثَّلاثُ الآنساتُ عِنانِي * * وحَلَلْن من قلبي بكلِّ مَكانِ

---

[2] محمد حسن محمد سبتان, تقويم أساليب تعليم القران الكريم وعلومه في وسائل الإعلام, مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة,40/1.

[1] ابن عساكر, محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل, مختصر تاريخ دمشق , تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع, دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق, الطبعة الأولى، 1402 هـ - 1984م, ص27- 33.

[2] أبو الفرج الأصفهاني , الأغاني , 373/16.

ما لي تُطاوعني البريةُ كلها * * وأطيعُهُن وهنّ في عصياني

ما ذاك إلا أن سُلْطان الهوى ** وبه عَزَزْن أعزّ من سلطاني

فشبه الشاعر – في صورة مفارقة – قلبه وهو يخفق بالحب والجمال, وانتظمت أبيات العشق لديه بصورة مقرونة مع الطاعة والامتثال لسلطان الهوى والعشق, الذي تفوق على سلطانه, حتى تملكت تلك الجواري قلبه, فأصبح خاضعًا لهن وهو الذي تخضع له كل البرية .

سلك الرشيد مع أقرانه أمثال سليمان بن أبي جعفر وهو عليل مسلكًا جديدًا في طلبه لجاريته (ضعيفة) وهي في غاية الحسن والجمال فاستغل الموقف, فطلبها منه, فقال سليمان: هي لك , فمرض مرضًا شديدًا على فراقها, فقال[1]: (مجزوء البسيط) :

أشكو إلى ذي العرش ما ** لاقيت من أمر الخليفة

يسع البرية عدله * * ويريد ظلمي في ضعيفة

علق الفؤاد بحبها كالبحر * * يعلق بالصحيفة

قال: فبلغ ذلك هارون الرشيد، فردّها عليه.

نلحظ من المواقف السابقة استيلاء الجواري على عرش قلب الرشيد , وبذل المال والحب لإرضائهن , ويذكر أن ثلاث جوارٍ ملكن قلب الرشيد وشغفنه حبًّا.. فكان الناس يتناشدون له في جواريه[2]: (الوافر) :

ثلاث قد حَلَلن حِمَى فؤادي ** ويُعْطَين الرغائب من وِدادي

---

[1] الجوزي, جمال الدين أبو الفرج, المنتظم في تاريخ الأمم والملوك, تحقيق: محمد ومصطفى عبد القادر عطا, دار الكتب العلمية, بيروت, ط1, 1412هـ-1992م, 78/10.

[2] أبو الفرج الأصفهاني, الأغاني، 374/16.

نظمت قلوبَهُن بخيطِ قلْبي * * فهنَّ قرابتي حتى التنادِي

فمن يكُ حلّ من قلب مَحَلاً * * فهن مع النواظر والسَّواد

ومن لطائف الرشيد مع الجواري : قيل إن هارون الرشيد جلس ذات يوم وبين يديه جاريتان إحداهما سوداء والأخرى بيضاء، فتعاتبت الجاريتان وتنادمتا، ثم إن كل واحدة منهما صورت شعرا تمدح نفسها وتذم صاحبتها، ثم إن السوداء صورت تقول:

ألم تر أنّ المسك لا شيء مثله ** وأنّ بياض اللفت حمل بدرهم

وأن سواد العين لا شك نورها ** وأن بياض العين لا شيء فافهم

فأجابتها البيضاء وقالت:

ألم تر أنّ الدّر لا شيء فوقه ** وأن سواد الفحم حمل بدرهم

وأنّ رجال الله بيض وجوههم ** وأن الوجوه السود أهل جهنم

فاستحسن الرشيد قولهما[1].

وتستشف الباحثة أن التعدد في سياسة الرشيد ودبلوماسيته مع أقرانه بدءًا بزوجته، ثم جواريه وحدود دولته بات مطلبًا أساسيًّا، فهو يفهم كل شريحة من شرائح المجتمع التي حوله.

ومما عرف عن الرشيد أيضا ما تضمنته صور الشعراء في مدحه ومدح المقربين له من آل البرمكي, فكيف لا يمدحهم الرشيد؟ فقد ولد الفضل بن يحي البرمكي قبل الرشيد بسبعة أيام, "فأرضعت أم الفضل الرشيد بلبان الفضل، وأرضعت الخيرزان الفضل بلبان الرشيد"[2]، ومن

---

[1] انظر الثعالبي, عبد الملك بن محمد, اللطائف والطرائف, دار المناهل, بيروت, 277/1 .

[2] الجوزي, جمال الدين أبو الفرج , المنتظم في تاريخ الأمم والملوك , تحقيق: محمد ومصطفى عبد القادر عطا, دار الكتب العلمية , بيروت , ط1, 1412-1992م, 318/8.

الملاحظ أن الرشيد قد شرب مع اللبن حب آل برمك منذُ طفولته, إلا أن هذا الحب لم يدم طويلا إذ غير الرشيد سياسته اتجاه البرامكة بعد أن حلت بهم "نكبة البرامكة" ما قامت لهم قائمة بعد ذلك، وبفضل العلاقات الدبلوماسية الجيدة التي أنشأها الرشيد مع إمبراطور الدولة الرومانية شارلمان تحقق للشرق التفاعل والاتّصال بالغرب منذ وقت مبكر؛ حيث تبادل الرشيد والأباطرة تأمين الحماية والمصالح لكلا الطرفين، وهذا دليل على المركز العالمي الذي كان يتمتع به الخليفة العباسي آنذاك، وصور الشاعر مروان ابن أبي حفصة[1] ذلك فقال: (الطويل) :

وسدت بهارون الثغور فأحكمت ** به من أمور المسلمين المرائر

وما انفك معقودا بنصر لواؤه * * له عسكر عنه تشظى العساكر

وكل ملوك الروم أعطاه جزيه ** على الرغم قسرًا عن يد وهو صاغر

بنى شارلمان علاقة ودية مع الرشيد، واستثمر الرشيد هذه العلاقة ضدّ أعدائه، وحقق شارلمان أهدافه وخططه(2)، وصور ذلك الشاعر العماني فقال[3]: (البسيط):

إنّ بني العَبّاسِ لم يُقَصِّروا * * إذ نهضوا لملكهم فشَمَّرُوا

وعَقَدوا ونَزَعوا وأمَّرُوا * * ودَبَّروا فأحْكَمُوا ما دَبَّرُوا

---

(1) انظر: شعر مروان بن أبي حفصة، ص 48، وانظر: أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت، 1972م، ص89، وانظر: وليم الخازن, الحضارة العباسية, ص50 – 51، وانظر: والأبيات في الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، 347/8، 348، تاريخ الأمم والملوك، ج572/4.

(2) أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص90.

(3) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني 321/18.

وأنكر بعض الباحثين علاقة الرشيد بشارلمان؛إذ إن كل روايات الطبري والمسعودي تتحدث عن حكم الخلفاء ولم تنقل كلمة واحدة عن هذه العلاقة, الأمر الذي شجع إلى إنكار وجود هذه العلاقة[1].

وعن حماية دولته وحفظ استقلالها من لأخطار المحيطة بها؛ صور مروان بن أبي حفصة الرشيد فقال[2]: (الطويل) :

أطفْتَ بقسطنطينيةِ الرّومِ مسندًاإليها القَنا حتّى اكتسى الذلَّ سورُها**

وما رمْتَها حتّى أتتْكَ ملوكُـــــــهابجزيتِها والحربُ تغلي قدورُها**

وفكَّت بكَ الأسرى التي شيَّدْتَ لَهامحابسَ ما فيها حميمٌ يزورُها**

على حينِ أعيا المسلمينَ فكاكُها **وقالوا: سجونُ المشركينَ قبورُها

حمل التاريخ لنا شعرًا كثيرًا في مدح الرشيد وسلطته ورخاء دولته، واتسم شعرهم تجاهه بسمتين هما:

1- المبالغة.

2- الرهبة.

---

(1) اندرية كلو, هارون الرشيد ولعبة الأمم, ترجمة: صادق عبد المطلب عزيز الموسوي, المؤسسة العربية للدراسات والنشر, بيروت , 2005, ص107.

(2) شعر مروان بن أبي حفصة، ص 70، وانظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، 572/4.

وكان للرشيد دبلوماسيته في وصل الشعراء، وعطاياه لهم.. ومن ذلك قول أبي العتاهية في وصف الرشيد[1]: (الخفيف):

بأبي مَنْ كانَ في قلبي لهُ * * يا بني العبَّاس فيكمْ مَلِكٌ

إنّما هارونُ خيرٌ كلُّهُ * * مرّةً حُبٌّ قليلٌ فسُرِقْ

شعَبُ الإحسان منه تفترقْ * * ماتَ كلُّ الشّرِّ يوْمَ خُلِقْ

ورغم ما انماز به أبو العتاهية من الزهد إلا أنه لم ينعتق من ذلك البعد الذي تتغلّب فيه صورة الممدوح المشرقة على أية صورة أخرى.

ومما يصوّر سطوة الرشيد وغلبته، وحنكته ودبلوماسيته في حروبه، ليميل العدو، فيخضع له، بعد أن قام بعزل البرامكة، ما قاله يحيى البرمكي[2]:(مجزوء الوافر):

---

[1] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، 77/4.

[2] كتب يحيى بن خالد في الحبس إلى هارون الرشيد: لأمير المؤمنين، وخليفة المهديين، وإمام المُسلمين، وخليفة ربّ العالمين. من عبْد أسلمتْه ذنوبُه، وأوبقته عيوبه، وخَذله شقيقُه، ورَفضه صديقهُ، وما به الزمان، ونَزل به الحِدْثان، فعالج البُؤس بعد الدَّعة، وأفترش السُّخط بعد الرضا، ...لأن الأهل والمالَ إنما كانا لك وبك، وكان في يديَّ عارية، والعارية مردودة. وأما ما أصبت به من ولدي فبذَنبه، ولا أَخشى عليك الخطأ في أمره، ولا أن تكون تجاوزت به فوق خدِّه. تفكر في أمري ...ولْيَمل هواك بالعفو عن ذَنب إن كان فمِن مثِلي الزَّلل، ومِن مثلك الإقالة، وإنما اعتذر إليك بإقراري بما يجب به الإقرار حتى تَرضى، فإذا رضيت رجوتُ إن شاء الله أن يتبينّ لك من أمري وبراءة ساحتي ما لا يتعاظمك بعدَه ذنبٌ أن تَفْغره. مدَّ الله في عمرك، وجعل يومي قبل يومك. وكتب إليه بهذه الأبيات.

قل للخليفة ذي الصّنيعة ** والعطايا الفاشيه

وابن الخلائف من قريش * * والملوك العاليه

إنّ البرامكة الذين * * رموا لديك بداهيه

صفر الوجوه عليهم * * خلع المذلة باديه

فكأنهم ممّا بهم * * أعجاز نخل خاويه

عمّتهم لك سخطة * * لم تبق منهم باقيه

بعد الإمارة والوزا * * رة والأمور الساميه

ومنازل كانت لهم * * فوق المنازل عاليه

والترسيمة التالية تلخص حال الدولة الإسلامية في عهد الرشيد؛ إذ الدبلوماسية ترفع من استقرار الدولة ورخاء الناس:

- انظر الأتليدي، محمد دياب، إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1990م، 257-258.

- وانظر عند ابن عبد ربه , العقد الفريد , 327/5.

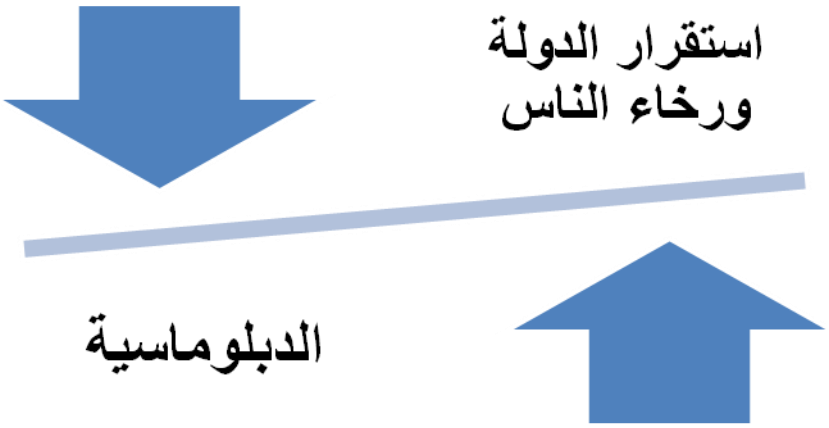
استقرار الدولة
ورخاء الناس
الدبلوماسية

3- صور من تعزيز الرشيد للعلم والاهتمام بأهله:

كان للرشيد دوره التاريخي في رفع المكانة الأدبية للبيئة العباسية في عصره, وعني بمجالس الأدباء والعلماء, وله ديوان خاص به وحضور بارز في تنشيط الحركة الفكرية والعلمية في عصره, "فهو الذي حرر هذه الحركة من عقالها وأطلقها على سجيتها جاعلاً منها حركة رسمية عن طريق المؤسسات العلمية التي أنشأها من بيت الحكمة إلى "بيمارستان" عن طريق النفقات التشجيعية التي أنفقها على المشتغلين بها "[1].

أمر الرشيد جبريل بن يختشوع أن ينشئ البيمارستان في بغداد , وقد أفاد الرشيد من طريقة البرامكة في التحصيل الأدبي, فقد عرفوا برفاهة حسهم وبميلهم للأدباء والشعراء, وقد عنوا بشراء الألسن,وإجزال الأعطيات للشعراء لاجتذابهم في المدح . [2]، وصور إسحاق الموصلي هارون الرشيد في أبيات تدل على العلم والتعلم[3]: (الطويل) :

ومن خير حالات الفتى لو علمته * * إذا نال شيئاً أن يكون ينيل

عطائي عطاء المكثرين تكرما * * وما لي كما قد تعلمين قليل

اعتنى الرشيد بمجالات العلم الكثيرة، ومنها: المجال الطبي, واعترف بالتفوق العلمي والطبي للهنود فقد استدعى الأطباء الهنود لتنظيم المستشفيات ومدارس الطب في بغداد،ومن المجالات ازدهار الصناعات فأول مصنع للورق عرف في بغداد،وأنشأه الوزير جعفر البرمكيفي

(1) ديوان هارون الرشيد, جمع وتحقيق وشرح: سعدي ضناوي, دار صادر, بيروت, 1998م, ص17.
(2) ابن خلكان , وفيات الاعيان , 204/1.

(3) ديوان هارون الرشيد، ص 6.

عهد الرشيد حتى عمت مصانع الورق بغداد ودمشق وطبرية وطرابلس والشام، كما عرفت الدراهم "الغطريفية" وهي من أعز النقود ببخارى ضربها غطريف بن عطاء أمير خراسان[1].

وكان عصر الرشيد عصر أدب وأدباء، وليس غريبًا أن يكون للرشيد ثقافة واسعة بمفردات الأدب, وأنه يطرب للشعر ويتقرب إلى الشعراء, وروي عنه اعتناؤه بمجالس الأدب في عصره، فأظهرت الصور الشعرية دلالة على اهتمام المجتمع في عهد الرشيد بالعلم، وصوّر الشعراء حال الأدباء وحال الشعراء وهم يمتدحونه, وزادت صور الاهتمام بالعلم والتعلم في عصره ومنها: صورة حث الفضل بن يحي ولده على العلم جاء في كتاب وفيات الأعيان : " وكان الرشيد قد جعل ولده محمدا في حجر الفضل بن يحيى، والمأمون في حجر جعفر، فاختص كل واحد منهما بمن في حجره، ثم إن الرشيد قلد الفضل بعمل خراسان، فتوجه إليها وأقام بها مدة، فوصل كتاب صاحب البريد بخراسان إلى الرشيد ويحيى جالس بين يديه ومضمون الكتاب أن الفضل بن يحيى متشاغل بالصيد وإدمان اللذات عن النظر في أمور الرعية، فلما قرأه الرشيد رمى به إلى يحيى، وقال له: يا أبت، اقرأ هذا الكتاب واكتب إليه بما يردعه عن هذا، فكتب يحيى على ظهر كتاب صاحب البريد: حفظك الله يا بني وأمتع بك، قد انتهى إلى أمير المؤمنين مما أنت عليه من التشاغل بالصيد ومداومة اللذات عن النظر في أمور الرعية ما أنكره، فعاود

---

[1] أحمد عيسى, تاريخ البيمارستانات في الإسلام, دار الرائد العربي, بيروت, الطبعة الثانية , 1401-1981م,178/1، وانظر: وليم الحازن ,الحضارة العباسية , ص76، ورينهات بيتر آن دوزي, تكملة المعاجم العربية, نقله إلى العربية ج1-8 : محمد سليم النعيمي ج9-10: جمال الخياط, وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية, ط(1), 1979- 2000م,413/7 .

ما هو أزين بك، فإنه من عاد إلى ما يزينه أو يشينه لم يعرفه أهل دهره إلا به، والسلام.. وكتب في أسفله أبياتًا، ومنها: (مجزوء البسيط) :

فكابد الليل بما تشتهي * * فإنما الليل نهار الأريب

كم من فتى تحسبه ناسكا * * يستقبل الليل بأمر عجيب

غطى عليه الليل أستاره * * فبات في لهو وعيش خصيب "[1].

ومن مواقف الرشيد مع العلماء استدعى يوما الشافعي, فسأله : ما علمك بكتاب الله , فقال : إن علوم القران كثيرة وأجابه باستفاضة حتى عدد له ما يقارب ثلاثة وتسعين نوعًا, فسأله عن السنة فأجابه, فقال الرشيد: أجدت فوضعت كل قسم مكانة[2]، فنلتمس من هذا الموقف أن الرشيد ذو بصيرة ثاقبة وعلم كثيف فهو يسأل الشافعي ويعلم الإجابة,فلا يسأل عن شيء إلا عن علم وتجربة ودراية.. وأوصى الرشيد معلم ولده الأمين تأديب ابنه في العلم فقال له:" يا أحمر : إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهمة نفسه وثمرة قلبه فصيّر يدك عليه مبسوطة وطاعتك واجبة , فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين أقرئه القرآن.." [3]. واهتم الرشيد باللغة العربية،وقاد بنفسه ذاك الاهتمام، وهيمنت اللغة العربية وسادت[4].

---

[1] انظر ابن خلكان , وفيات الأعيان ,ج4، ص28، وانظر: علي مهنا , طرائف الخلفاء والملوك, دار الكتب العلمية , بيروت, 2004م, ص179-183.

[2]اليافعي , أبو محمد عفيف الدين , مرآة الجنان وغيرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان, وضع حواشيه: خليل المنصور, دار الكتب العلمية, بيروت, ط1 ,1417هـ- 1997م , ج2، ص 17.

[3] الهاشمي , أحمد بن إبراهيم , جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب , تحقيق: لجنة من الجامعيين , مؤسسة المعارف، بيروت , ج1، ص183.

[4] حسن عبد الغفار, هارون الرشيد: الخليفة المفترى عليه, مكتبة النافذة, مصر، 2010م, ص166.

وامتلك الرشيد من بيئته التي ربّته تحصيله الثقافي, فقد امتلك الثقافة العسكرية من أبيه, في حين امتلك رفاهة الحس من أمه التي حاولت جاهدة الاعتناء به في مجمل جوانب شخصيته وتنميتها في جل النواحي الثقافية من معرفة بـ "الأدب وفروعه واللغة ومفرداتها, وحفظ –الرشيد– القرآن على الشيخ الزيات, وعلمه الكسائي الفقه والنحو والبلاغة, وعلمه الشعر المفضل الضبي, فنهل من المعلمين اللغة والعلم والأدب[1]، فيصور أشجع السلمي الرشيد وعصره فيقول[2]: (السريع) :

مُصَعِّداً في دَرَجاتِ العُلاَ * * نجْمُكَ مقرونٌ بِسَعْد السُّعود

وتنوعت الحياة الفكرية في عهد الرشيد وقد اهتم الرشيد شأن غيره من الخلفاء برعاية الحركات العلمية , وساهم مع وزرائه الأمراء في إحداث نقلة تطورية في مجال العلم والبحث، وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة[3] :(السريع):

موسى وهارونُ هما اللذانِ * * في كتب الأخبارِ يوجدان

من وَلَد المهديّ مَهْدِيّان * * قُدّا عِنانَيْنِ على عِنان

قد أطلق المهديُّ لي لساني * * وشدّ أزري ما به حَبانِي

---

[1] حسن عبد الغفار , هارون الرشيد [الخليفة المفترى عليه], 51.

(2) ديوان أشجع بن عمرو السلمي، جمع: خليل بنيان الحسون، دار المسيرة، بيروت، 1986م، ص 39.

[3] مروان بن أبي حفصة، شعره، ص87، والأبيات في الأغاني, ج13، ص160، وانظر: التلمساني, شهاب الدين أحمد بن محمد المقري, نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب, تحقيق: إحسان عباس, دار صادر، بيروت، 1997م, ج3، ص140.

استدعى الشاعر صورة النبي الكريم (موسى وأخاه هارون) وجعلهما معادلين لصورة (ولدي المهدي) وقد ولّد من الصورة صورة أخرى حين عادل بين صورة هارون لموسى وبين صورة المهدي له(فمنزلة هارون من موسى = منزلة المهدي منه) ثم استدعى لفظًا قرآنيًّا هو (شد أزري) وصور معادلة بين صورتي شد أزر موسى بأخيه هارون كشد أزر المهدي للشاعر بعطاياه، واجتمعت صور أربعة في عصر الرشيد يمكن تلخيصها بالترسيمة التالية:

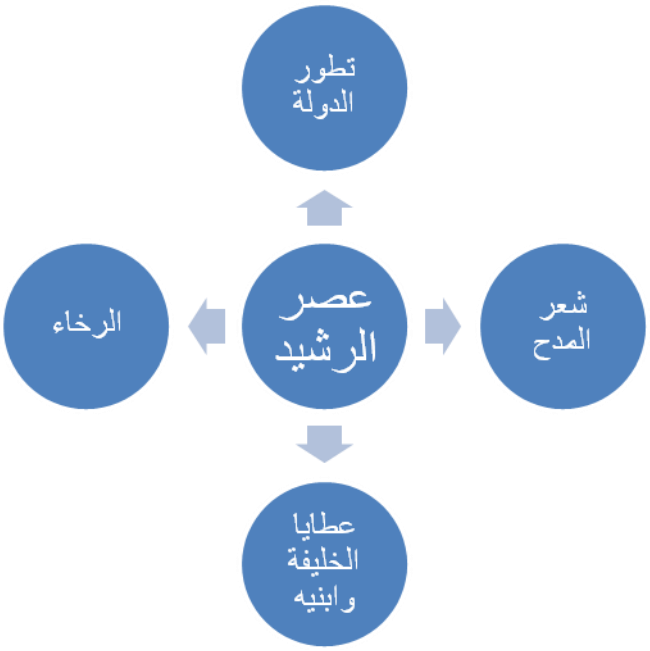

4- الرشيد وصور الوعظ :

قال الرشيد لأبي العتاهية يومًا عِظني, فصوّر له الموت قائلا[1]: (البسيط) :

لا تَأْمَنِ الموتَ في طَرْفٍ ولا نَفَسٍ * * إذَا تَسَتَّرْتَ بِالأبواب والحَرَسِ

واعْلَمْ بأنّ سِهامَ الموت قاصدةٌ * * لكلِّ مُدَّرعٍ منّا ومُتَّرِسِ

ترجو النجاةَ ولم تَسْلُكْ طَرِيقَتها * * إنّ السفينةَ لا تَجْرِي على اليَبسِ

ويحضر الموت في لحظات الغفلة، وتكثر الغفلة مع زيادة الرخاء.. وعصر الرشيد فيه ما فيه من الرخاء ما قد ينسي ذكر الموت فهذا سبب طلب الموعظة..

ويصور أبو العتاهية واعظًا الإنسان كأنه قبطان سفينة .. ولما اختار القبطان أن يمشي على اليبس فإنه لا شك لن يسير وسيهلك وذاك حال من لم يجهز نفسه للحظة الموت! حتى أن الرشيد قد اختار أكفانه وكان ينظر إليها، ويقرأ قوله تعالى :

" ما أغنى عني ماليه *هلك عني سلطانيهْ"[2]

ونسب للرشيد أنه لَمَّا حَضَرَتْه الْوَفَاةُ، فَكَانَ رُبَّمَا غُشِيَ عَلَيْهِ، فَيَفْتَحُ عَيْنَيْهِ فَيُغْشَى عَلَيْهِ، ثُمَّ فَتَحَ عَيْنَيْهِ؛ فَنَظَرَ إِلَى الرَّبِيعِ وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى رَأْسِهِ فَقَالَ: يَا رَبِيعُ! :

أَحِينَ دَنَا مَا كُنْتُ أَرْجُو دُنُوَّهُ * * رَمَتْنِي عُيُونُ النَّاسِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

---

[1] أبو العتاهية، ديوانه، ص 49.

[2] سورة الحاقة, الآيتان (29-28).

فَأَصْبَحْتُ مَرْحُومًا وَكُنْتُ مُحَسَّدًا * * صبرا عَلَى مَكْرُوهِ مُرِّ الْعَوَاقِبِ

سَأَبْكِي عَلَى الْوَصْلِ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا ** وَأَنْدِبُ أَيَّامَ السُّرُورِ الذَّوَاهِبِ

وَأَعْتَقِلُ الأَيَّامَ بِالصَّبْرِ وَالْعَزَاءْ * * عَلَيْكَ وأن جَانَبْتَ غَيْرَ مُجَانِبِ [1]

صور الرشيد معاني الرجاء والخوف ودنو الأجل، وصور صعوبة إرضاء الرعية مهما بلغت الحنكة والسياسة وهو قوله:

[رمتني عيون الناس]

وفي الصورة دلالة على كثرة حساده ومتربصيه...

وصور الرشيد تحسره على الأيام الخوالي التي كانت تجمع بينه وبين الربيع إذ جاء الموت ليجعل تلك الأيام ذكرى في نفسه يصعب الوصل بعدها, ويؤازر تلك الأيام بالصبر والعزاء, وصور قلقه واضطرابه وتوتره وهذا طبيعي لما سيلقاه في العالم الآخر ما بعد الموت.

وقال الرشيد في جلسة من جلساته:

إذا تمَّ أمرٌ بدَا نقصـهُ * * ترقبْ زوالًا إذا قيل تمْ

وجاء البيت السابق استدلالًا من الرشيد على قصد كلام امرأة من آل برمك توجّهت للرشيد بكلمات على جوْره، وقرب زوال حكمِه مهما طال.. حيث قالت: "أقرّ الله عينكَ وفرّحك بما أتاك،

---

[1] الدينوري, أبو بكر أحمد بن مروان, المجالسة وجواهر العلم, تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن, جمعية التربية الإسلامية, البحرين, 1419هـ, ج5، ص310 .

وأتمّ سعدك، لقد حكمتَ فقسطتَ".. ففسّر الرشيد قولها أقرّ الله عيْنَك بـ: السكون عن الحركة إذا العين عميتْ، وفرّحك بم أتاك: أخذته من قوله تعالى:

(حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً)

أما عن قولها الأخير وأتمّ الله سعدكَ فاستدلّ الرشيد عن مرماه في البيت السابق[1]، وتستنتج الباحثة الترسيمة التالية:

---

(1) القصة كاملة: قيل دخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت: يا أمير المؤمنين أقر الله عينك، وفرحك بما آتاك، وأتم سعدك، لقد حكمت فقسطت، فقال لها من تكونين أيتها المرأة؟ فقالت: من آل برمك ممن قتلت رجالهم وأخذت أموالهم وسلبت نوالهم، فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله ونفذ فيهم قدره وأما المال فمردود إليك ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه، فقال أتدرون ما قالت؟ المرأة فقالوا ما نراها قالت إلا خيرًا، قال ما أظنكم فهمتم ذلك، أما قولها أقر الله عينك أي أسكنها عن الحركة وإذا أسكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها وفرحك بما آتاك فأخذته من قوله تعالى:

(حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة)

وأما قولها وأتم الله سعدك فأخذته من قول الشاعر:

إذا تمَّ أمرٌ بدا نقصه * * ترقَّب زوالًا إذا قيل تمّ

وأما قولها لقد حكمت فقسطت فأخذته من قوله تعالى:

(وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا)

فتعجبوا من ذلك.

انظر: الأبشيهي، شهاب الدين، المستطرف في كلّ فن مستظرف، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986م، ج1، ص101-102.

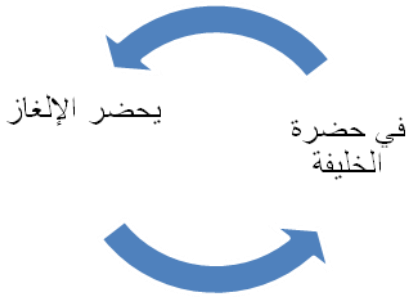

ولم يسلم الرشيد كذلك من شعراء متهورين في عصره وعرفوا بالشعراء المجانين، ومنهم **البهلول** وكان نقده لاذعًا ويدعو إلى وقفة تأملية في الحياة و الموت، وكان البهلول ينالَ من عظمة الرشيد، ويعمد إلى تصغير شأنه ورفض عطاياه **!**[1]

---

[1] بهلول بن عمرو الصيرفي، أبو وهيب: من عقلاء المجانين، وله أخبار ونوادر وشعر... ولد ونشأ في الكوفة، واستقدمه الرشيد وغيره من الخلفاء لسماع كلامه. كان في منشأه من المتأدبين ثم وسوس فعرف بالمجنون.

انظر في تعريفه: خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م، ج2، ص72.

والقصة كاملة: أنه مرّ الرشيد بالبهلول، فقال له: قل يا بهلول فقال:

هب أن قد ملكت الأرض طرا ** ودان لك العباد فكان ماذا

أليس غدا مصيرك جوف قبر ** ويحثو عليك التراب هذا ثم هذا

قال: أجدت يا بهلول، أفغيره ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين ! من رزقه الله مالا وجمالا فعف في جماله، وواسى في ماله، كتب في ديوان الله من الأبرار.

قال: فظن أنه يريد شيئا، فقال: إنا أمرنا بقضاء دينك.

فقال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، لا يقضى دين بدين، اردد الحق إلى أهله واقض دين نفسك من نفسك.

قال: إنا أمرنا أن يجري عليك رزق تقتات به.

قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه سبحانه لا يعطيك وينساني.

وها أنا قد عشت عمرا لم تجر علي رزقا، انصرف لا حاجه لي في جرايتك.

وذكر أن هارون الرشيد لما قدم المدينة المنورة بعث إلى الإمام مالك يسمعه الموطأ,فجاء مالك دون موطئه مسلمًا على الرشيد لا معلمًا, فقال مالك : مالك يا أمير المؤمنين إن الله قد جعلك في هذا الموضع فلا تكن أول من ضيع العلم؛فيضيعك الله,فأنت أحرى أن تعز هذا العلم,ولم يزل يعظه حتى بكى الرشيد[1].

ومن أشهر من وعظ الرشيد من الشعراء أبو العتاهية؛ مذكرًا بحقيقة الموت، يقول[2]: (مجزوء الرمل) :

قال: هذه ألف دينار خذها.

فقال: اردها على أصحابها فهو خير لك، وما أصنع أنا بها ؟ انصرف عني فقد آذيتني.

قال: فانصرف عنه الرشيد وقد تصاغرت عنده الدنيا.

أورد القصة ابن كثير، البداية والنهاية، ج10، ص216.

[1] العصامي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك، صمت النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمود معوض، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط1 ، 1998م، ج3، ص424.

[2] إن الرشيد مما يعجبه غناء الملاحين في الزلالات إذا ركبها، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم، فقال: قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعرا يغنون فيه، فقيل له: ليس أحد أقدر على هذا من أبي العتاهية وهو في الحبس، قال أبو العتاهية: فوجه إلي الرشيد قل شعرًا، حتى أسمعه منهم، ولم يأمر بإطلاقي فغاظني ذلك، فقلت: والله لأقولنّ شعرًا يحزنه ولا يسر به فعملت شعرًا ودفعته إلى من حفظه الملاحين، فلما ركب الحراقة سمعه، فلما سمع ذلك الرشيد جعل يبكي وينتحب وكان الرشيد من أغزر الناس دموعا في وقت الموعظة وأشدهم عسفا في وقت الغضب والغلظة. فلما رأى الفضل بن الربيع كثرة بكائه أومأ إلى الملاحين أن يسكتوا.

وانظر في القصة: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج4، ص108-109.

خانَك الطَّرْفُ الطَّمُوحُ * * أيُّها القَلبُ الجَمُوحُ

لِدَوَاعِي الخَيْرِ والشّرِّ * * دُنُوٌّ ونُزُوحُ

هلْ لمطلوبٍ بِذَنْبٍ * * توبةٌ منه نصُوحُ

كيف إصلاحُ قُلُوبٍ * * إنّما هُنَّ قُروحُ

أَحْسَنَ اللهُ بنا أَنَّ * * الخَطَايَا لا تَفُوحُ

قال فلما سمع ذلك الرشيد جعل يبكي وينتحب وكان الرشيد من أغزر الناس دموعًا في وقت الموعظة وأشدهم عسفًا في وقت الغضب والغلظة.

ورغم أن ارتباطات الشعراء بالفلسفة التأمليّة كانت محدودةً في عصر الرشيد إلا أن ذلك لا ينفي وجود بعض تلك التأمّلات التي عجّت بها أشعار أبي العتاهية.

وربما يعود ذلك إلى ظروفهم البيئية، وطرق تفكيرهم التي انطبعت في قوالبهم الشعرية على نحوٍ من الأسلوبية المباشرة في تعبيرهم عن مظاهر الطبيعة.

والصورة في الأبيات السابقة تعجّ بالمتنافرات على المستوى التخييلي بين الخير والشر، الدنُوّ، والنزوح، إصلاح وقروح، بين يغدو ويروح، رُحْنَ، وأصبحْنَ.... ويقول أبو العتاهية:

واعْلَمْ بأنّ سِهامَ الموت قاصدةٌ * * لكلِّ مُدَّرعٍ منّا ومُتَّرِسِ

ترجو النجاةَ ولم تَسْلُكْ طَرِيقَتها * * إنّ السفينةَ لا تَجْرِي على اليَبسِ

قال فبكى الرشيد حتى بل كمه[1]، وذكر للرشيد في كتب النثر الكثير من مواقف الوعظ[2].

وسلك الوعظ عند الشعراء مسلكا يصف تقوى الرشيد وشدة خوفه وخشيته من الله– تعالى– وفي ذلك، يقول منصور النمري[3] :

هارونُ يا خير من يُرَجَّى ** لم يُطِعِ اللهَ منْ عَصاكا

في خير دِينٍ وخير دنيا * * مَنِ اتَّقى اللَّهَ واتقاكا

واتجهت سمات الشعراء في تصويرهم الوعظي للرشيد إلى النقاط التالية:

1- الأسلوب الخطابي.

2- التقليدية.

3- الحسية.

4- بعض الأخيلة.

وتتجه قصائد العبر الرشيدية إلى حاستي الإبصار والسّمع وإلى التأملية.

---

[1] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، 4/ 112.

[2] وعظ واعظ هارون الرشيد فقال: ما أخلف الليل والنهار ولا دارت نجوم في فلك إلا تنقل النعيم عن ملك قد انقضى ملكه إلى ملك. ذلك الوعظ إشارة صريحة على هلاك الملك وانتقال إلى ملك آخر.

انظر:الخوارزمي, أبو بكر محمد بن العباس, مفيد العلوم ومبيد الهموم, المكتبة العصرية, بيروت, ج1، ص277.

[3] الطيب العشاش، شعر منصور النمري، ص 98.

أمر الرشيد بعمل خطبة ليوم الجمعة لابنه المأمون إذ كان جهير الصوت، فلما خطب بالناس رقت قلوبهم، وأبكاهم، وصور محمد اليزيدي ذلك المشهد فقال[1]: (الطويل) :

فأبكى عيونَ الناسَ أبلغُ واعظ * * أغرُّ بِطاحيُّ النَّجار نجيب

مَهيب عليه لِلوقار سكينة ** جريء جَنانٍ لا أكَعّ هيوب

شَبيه أمير المؤمنين حَزامةً * * إذا وردَتْ يوماً عليه خطوب

إذا طاب أصل في عُروق مِشاجه * * فأغصانه من طيبه ستطيب

جِناب أمير المؤمنين مُبارَك * * لنا ولكل المؤمنين خصيب

لقد عَمَّهمْ جُود الإمام فكلهم * * له في الذي حازت يداه نصيب

فهل تظهر الصنعة في صور الوعظ في قصائد الشعراء؟

وهل تقترب صور الوعظ من التكلف وتبتعد عن الطبع؟

نعم، وعلى الشاعر أن يقف موقفًا وسطًا كي لا يخرج شعره عن عمود الشعر العربي!

وقيل إن المرزوقي استفاد مما كتبه الآمدي والقاضي الجرجاني في تأليفهما لعناصر عمود الشعر، فقد جاءت عناصر عمود الشعر عند الآمدي في كتابه (الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري)، متمثلة في جودة السبك، وسلامة التأليف، ونصاعة ديباجة الشعر وحلاوة اللفظ، والآمدي هو الذي ذكر مصطلح "عمود الشعر" لأول مرة في تاريخ النقد الأدبي، ونسب له روايته

---

[1] اليافعي، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط(1)، 1417 هـ - 1997 م ، وانظر: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج20، ص253.

عن أبي علي محمد بن العلاء السجستاني – وكان صديق البحتري – أنه سئل البحتري عن نفسه وعن أبي تمام، فقال: " كان أغوص على المعاني مني، وأنا أقوَم بعَمُود الشعر منه"[1]، وقال الآمدي: "قال صاحب البحتري: أنه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعهودة"[2]، ثم تناول القاضي الجرجاني (ت:392هـ) قضية عمود الشعر في كتابه (الوساطة بين المتنبي وخصومه)، أثناء حديثه عن العناصر التي تفاضل من خلالها العرب بين الشعراء، وهي الأسس التي يتكون منها عمود الشعر، وذكر منها شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته[1].

وقد كان معظم النقاد العرب القدماء يميلون إلى احترام الأصالة والتمسك بالموروث والنفور من التغيير، وهو ما عدّه المرزوقي أسسَ عمود الشعر العربي، وهي الأسس التي توارثها الشعراء وأسلموها لمن بعدهم، وقد عدّها النقاد علامة من علامات الطبع، ومدح النقاد من التزم بها وذموا من خرج عنها. وإذا ما أخل الشاعر بشيء منها عدّ بعيدًا عن الذوق العربي السائد ورفض بعض الرواة رواية شعره. يقول المرزوقي عن عناصر عمود الشعر العربي في مقدمة

---

(1) الآمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، 12/1.

(2) السابق نفسه، 1/ 18.

(1) الآمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، 18/1، والمرزوقي: شرح ديوان الحماسة، 1/ 8، وهذا الرأي لإحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص22، الذي يقول: " ولهذا التف أوائل النقاد إلى حياة البداوة في اختيار المصطلح، فكان مصطلح " الفحولة " الذي اختاره الأصمعي، وربما لم يكن هو أول من استعمله، مستمدًا من طبيعة حيوان الصحراء – وخاصة الجمل – قبل أن يكون مستمدًا من حقيقة التمايز بين الرجال في هذه الصفة، واستعار صاحب كتاب " قواعد الشعر " مصطلحه من الخيل حين جعل الأبيات غراء ومحجلة ومرجلة، ومن المدهش أن حازمًا رغم اتساع المصطلح لديه عاد – بعد قرون – يستعمل مصطلحين مستمدين من الفَرَس وهما التسويم والتحجيل، ولم يكف النقاد عن الالتفات للبداوة في اختيار المصطلح، وحسبنا أن نذكر مصطلح "عمود الشعر" الذي نلقاه لأول مرة عند الآمدي، فإنه وثيق الصلة بالخباء، كما رجّح أسبيقة الآمدي للمرزوقي في إيجاد مصطلح "عمود الشعر" كلّ من حفني شرف: النقد الأدبي عند العرب، ص 343، وهند حسين طه: النظرية النقدية عند العرب(حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1981م، ص 308، وفصّل بالقضية نوح أحمد عكبل: المصطلح النقدي والبلاغي عند الآمدي في كتابه الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري(رسالة ماجستير)، عمادة الدراسات العليا، جامعة مؤتة، مؤتة، 2006م، ص 65 وما بعدها.

شرحه لديوان الحماسة: " إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، **ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة، كثرت سوائرُ الأمثال، وشوارد الأبيات،** والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها، على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى، وشدة اقتضائهما للقافية، حتى لا منافرة بينهما، فهذه **سبعة أبواب** هي عمود الشعر، ولكل باب منها معيار " (1).

ورغم أن الصورة الوعظية عند الشعراء حول الرشيد اتسمت بطابع التجديد إلا أنها وقفت موقفًا وسطًا بين التجديد والتقليد، ولم تأخذ بعدها الفلسفي كما ينبغي، وعلى الرغم من استحداث شعراء العصر العبّاسي طرائق أسلوبية جديدة في تعبيراتهم عن المعنى الوعظي، إلا أن موضوع (الموت) والتداخل بين الصنعة الشعرية والحقول المعرفية الأخرى كالفلسفة والمنطق كان تداخلًا غيرَ جوهري؛ ولهذا ظلّت **الصورة الشعرية الوعظية** في إطارها التقليدي من الخطابية المباشرة والتعبير الغنائي عن الذات في تعالقاتها الوجودية الأخرى مع الموت والحياة.

والمباشرة بالمعنى نجدها في قول أبي العتاهية وهو يعظ الرشيد، وكأنه يقترب من الوعظ النثري فيقول: **(البسيط)** :

لا تَأْمَنِ الموتَ في طَرْفٍ ولا نَفَسٍ* * واعْلَمْ بأنّ سِهامَ الموت قاصدةٌ

(1) المرزوقي: شرح ديوان الحماسة، 1/ 9، مقدمة الشارح. ويمكن القول إنّ المرزوقي أخذ أربعة عناصر لعمود الشعر ممن سبقه، هي شرف المعنى وصحته، وجزالة اللّفظ واستقامته، والإصابة في الوصف والمقاربة في التشبيه، وأضاف ثلاثة عناصر هي: التحام أجزاء النظم والتئامها، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية، انظر: عبد العزيز إبراهيم مخلوف: عمود الشعر العربي في النقد الأدبي، دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1968م، ص 77، ويرجع بعض النقاد إرهاصات ظهور مصطلح "عمود الشعر" إلى ابن سلام الجمحي والجاحظ وابن قتيبة وقدامة بن جعفر وابن طباطبا، ورأت الباحثة الوقوف عند هذا الحد في هذه القضية.

وممّا يُلحظ رغبة الرشيد في الاستماع إلى النصح والإرشاد، وقبول الآخر، ممّا يعضّدُ فكرة التسامح التي اتّسم بها الرشيد[1]...

وكذلك تصوير الموصلي ذامًّا البخل:

فذلكَ شَيْءٌ ما إليه سَبِيلُ

بَخِيلاً له في العَالَمِينَ خَلِيلُ

إذا نالَ شَيْئًا أنْ يَكُونَ يُنِيلُ

فأَكْرَمْتُ نَفْسِي أنْ يُقالَ بَخِيلُ

ورَأْيُ أَمِيرِ المُؤْمِنينَ جَمِيلُ[2]

ويجسم الشاعر من نفسه شخصًا يتحدث إليه، ويأمره بالبخل، وفي هذا معادل موضوعي للنفس الأمّارة ..، وفي ذلك تناص مع قوله تعالى[3]:

(إنّ النفس لأمارة بالسوء)

وفي الصورة اقتراب من التصوير الحسّي الذي يفيد أمرين هما:

---

[1] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج4، ص112. ابن كثير، البداية والنهاية، ج10، ص236.

[2] انظر الأبيات عند : بهاء الدين الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، 378/1. الذهبي، شمس الدين، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير الأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م، 95/17، والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 10/14، وابن العمراني، محمد بن علي، الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق: قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2001م، 77/1.

[3] سورة يوسف، آية (52).

1- ذم صفة البخل .

2- حث أمير المؤمنين على الابتعاد عنها.

وظهرت صورة مقابلة من صور الوعظ والإرشاد، هي الصورة المبالغة في المدح، ومن قبيل تلك المبالغات ما صوره سلم بن عمرو الخاسر، والقصيدة طويلة ومنها: (السريع) :

بايَعَ هارونُ إمامُ الهُدى * * المُخلِفُ المُتلِفِ أَموالَهُ

وَالعالَمِ الناقِدِ في عِلمِهِ * * وَالراتِقِ الفاتِقِ حِلفَ الهُدى

لِخَيرِ عَبّاسٍ إذا حُصِّلوا * * أَبِرّهُم بِـــــــــرًا وَأَولاهُمُ

لِمُشبِهِ المَنصورِ في مُلكِهِ * * فَتَمَّ بِالمَأمونِ نورُ الهُدى[1]

صور الشاعر في تلك الأبيات وقد قالها في مجلس الرشيد الذي انعقدت فيه البيعة لولاية العهد لابنه محمد الأمين، صورة فيها الكثير من المبالغات التي كلُفَ بها الشاعر أثناء مدحه لخلفاء بني العباس، وتمجيد أفعالهم دونما اعتراضٍ أو ذم؛ إذ وصل بالشاعر أن نعتَ الخليفة بإمام الهدى، وأنه أساس الهداية والخبرة والعلم.

---

[1] انظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص650، ولقب الشاعر المعروف وهو سلم الخاسر، وإنما قيل له الخاسر؛ لأنه باع مصحفا واشترى بثمنه دفترًا فيه شعر أبي نواس، وقيل بل سمي سلم الخاسر؛ لأنه ملك مالا كثيرًا فأتلفه في معاشر الأدباء والفتيان ، وهو سلم بن عمرو بن حماد بن عطاء بن ياسر الخاسر ، وقيل: هو سلم بن عمرو بن عطاء بن زبان، بصري قدم بغداد ومدح المهدي والهادي والبرامكة، وكان على طريقة غير مرضية من المجون والتظاهر بالخلاعة والفسوق.انظر : الأغاني 276/19.

5- صورة الرشيد وإجارة الغريب:

سادت صفة التسامح والرأفة خلافة الرشيد؛ إذ استولى البرامكة على قلب الرشيد نتيجة التسامح, وانتشرت قصة الرشيد مع اليهودي الذي جاءه في حاجة , فاختلف إلى بابه سَنَة كاملة، فلم تنقض حاجته فوقف يومًا على الباب، فلما خرج هارون الرشيد سعى ووقف بين يديه وقال: اتق الله يا أمير المؤمنين.. فنزل هارون عن دابته وخرّ ساجدًا لله تعالى، فلما رفع رأسه أمر به، فقضيت حاجته. فلما رجع قيل: يا أمير المؤمنين نزلت عن دابتك بقول يهودي؟ قال: لا، ولكن تذكر قول الله تعالى:

(وَإِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ)[1]

واستعطف أبو العتاهية الرشيد وهو في السجن من أجل العفو عنه, فأنشده: (الوافر):

أمَا واللَّه إنّ الظلم لُومُ * * وما زال المُسِيء هو الظَّلومُ

إلى دَيَّانِ يومِ الدِّين نَمْضِي * * وعند اللَّه تَجتمع الخصومُ

لأمرٍ مَا تَصَرَّفـــــتِ الليالي * * وأمرٍ مّا تُــوُلِّيتِ النُّجومُ

تموت غداً وأنت قَرِيرُ عينٍ ** من الغَفَلات في لُجَجٍ تَعومُ (5)

فذكر الشاعر الرشيد بمشهد الظلم ولام صاحبه, وذكّره بالظالم وبيوم الوعيد الذي تجتمع فيه كل الخصوم ليقتص الله من الظُّلَّام... والترسيمة التالية تلخص ما تريده الباحثة:

---

[1] سورة البقرة، آية (206)، والقصة في العقد الفريد، لابن عبد ربه، 51/1.

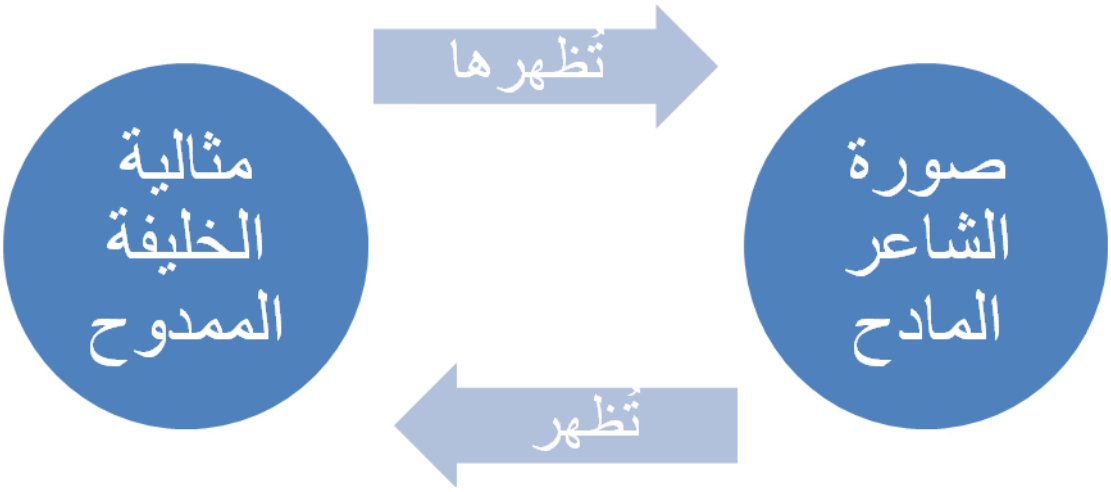
تُظهرها
صورة الشاعر المادح
مثالية الخليفة الممدوح
تُظهر

ويُحمد لهارون الرشيد روح التسامح في تلك الصورة التي تشكّلت عنه في أشعار بعض من لجؤوا إليه لحمايتهم وردّ الظلم عنهم، ومن ذلك قول علي بن الخليل[1]: (مجزوء البسيط) :

يا خيرَ مَنْ وخذَتْ بأَرْحُلِهِ ** نُجُبُ الركاب بمَهْمَهٍ جَلْسِ

تَطوِي السباسِبَ في أزمَّتهاطَيَّ التِّجار عمائمَ البُرْسِ**

لما رأَتْكَ الشمسُ طالعةًسَجَدَتْ لوجهِكَ طلعةُ الشمْسِ**

خيرُ البَرِيَّةِ أنْتَ كلّهمفي يومِكِ الغادي وفي الأمْسِ**

للهِ ما هارونُ منْ ملكٍ عفِّ السريرة طاهر النفْسِ**

تمّت عليه لربِّه نِعَمٌ* * تزداد جدّتها مع اللّبْسِ

---

(1) علي بن الخليل الكوفي مولى يزيد بن مزيد الشيباني، ويكنى أبا الحسن أحد شعراء الكوفة وظرفائهم، وهو ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد طبقة يتصاحبون على المجون والخلاعة والشراب، وطلب الرشيد علي بن الخليل مع الزنادقة فاشتهر اشتهارًا طويلا ثم قصده بالرقة وهو شيخ كبير.

انظر في ذلك: المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران، معجم الشعراء، تحقيق: فاروق اسليم، دار صادر، بيروت، ط(1)، 2005م، ص174، والأبيات في الأغاني، 174/14، وانظر القيرواني، أبو اسحق: زهر الآداب وثمر الألباب، 229/2–230. وشوقي أبو خليل، هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، دار الفكر، دمشق، 1977م، ص56.

معاني الكلمات:

وخذت: ضرب من السير السريع، والمهمة: الصحراء، وتطوى: تقع، والسباسب: جمع سبسب وهي الأرض المستوية البعيدة، والبرس: القطن، ومصاعب جمع مصعب، وهو من الابل، من تصعب مقاومته، وشمس، جمع أشمس وهو الأبي النافر.

متهلّلين على أسِرَّتهم* *ولدى الهياج مَصاعبُ شُمْسِ

وجاءت الأبيات السابقة في باب ردّ المظالم عن أهلها، إذ كان الشاعر زنديقًا، وقد هُدِر دمه، ولكن بعد إلقائه تلك الأبيات عفا عنه الرشيد، وهذا من قبيل تعظيم الخلفاء لمدّاحيهم من فئة الشعراء.

وقد ضمن التنوع الثقافي وغناه تعدّدًا في الحركات الفكرية على المستويين الديني والفقهي والأدبي كذلك؛ فعلى المستوى الديني مثلا قاد انتشار الحركات المذهبية وتنوعها، مثل الزندقة والشعوبية ودخول الفلسفة والتصوّف وعلم الكلام إلى مفاهيم خاطئة، وفي ذلك يقول منصور النمري[1]: (البسيط) :

أيُّ امرئٍ بات من هارونَ في سَخَط ** فليس بالصلواتِ الخَمْسِ ينتفعُ

إنَّ المكارمَ والمعروفَ أوديةٌ * * أحلَّكَ اللَّهُ منها حيث تتسع

إذا رفعْتَ امرأً فالله يرفعه * * ومَنْ وَضَعْتَ من الأقوام مُتَّضِع

نفسي فداؤُك والأبطالُ مُعَلِمَة * * يوم الوغى والمنايا بيْنَها قُرَعُ

وعرفت الدولة العباسية لونًا من الاجتهادات المنحرفة التي تتعارض والفكر الديني الإسلامي، من ذلك قول الشاعر[2]:

هارونُ يا خير من يُرَجَّى * * لم يُطِعِ الله منْ عَصاكا

في خير دِينٍ وخير دنيا * * مَنِ اتَّقى اللَّهَ واتقاكا

---

[1] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج13، ص165.

[2] السابق نفسه، ج13، ص168.

فنلحظ الانحراف الديني في اجتهادات الشعراء بربط طاعة هارون الرشيد بطاعة الله، وزيادة في التنكيل فإن الشاعر يساوي تقوى الله وهي أعلى مرتبة من مراتب الإيمان بتقوى الرشيد.

"وإذا كان هارون قد رعى شيوخ اللغة والرواية، وعايش الأئمة الكبار الذين أرسَوْا مذهب السنة ورافق ولاة علم الكلام ومذهب الاعتزال والصوفية، فقد كان معظم أقطاب هذه الحركة على علاقة بالبلاط العباسي: علاقة ولاء كما هو الأمر مع الأصمعي والكسائي واليزيدي والأحمرالنحوي ، أو علاقة احترام متبادل كما كان الأمر مع الإمام مالك والإمام الشافعي في بلاط الرشيد، أو علاقة تحدّ وصراع كما هو الأمر مع الإمام أبي حنيفة في بلاط المنصور والإمام أحمد بن حنبل في بلاطي المأمون والمعتصم"[1].

ومن الأبيات التي تبين العلاقات بين الشعراء في بلاط الرشيد، أن الرشيد قد سمع مروان بن أبي حفصة يقول: قبل قدوم النمري، هذا شامي وأنا حجازي افتراه يكون أشعر مني، ودخل في قلبه الحسد والصراع[2]:

أميَر المؤمنين إليك خُضْنَا * * غِمَارَ الهَوْل من بلدٍ شَطيرِ

بخُوصٍ كالأهلَّة خافقاتٍ ** تلين على السُّرى وعلى الهجيرِ

حَمَلْنَ إليك أحمالاً ثِقالاً * * ومثل الصخر الدرِّ النثيرِ

فقد وَقف المديحُ بمنتهاه * * وغايتِه وصار إلى المصير

---

[1] شوقي أبو خليل، هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجلُّ ملوك الدنيا، ص176.

[2] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج13، ص159.

إلى مَن لا يشير إلى سِواه * * إذا ذُكِر النَّدَى كفُّ المشيرِ

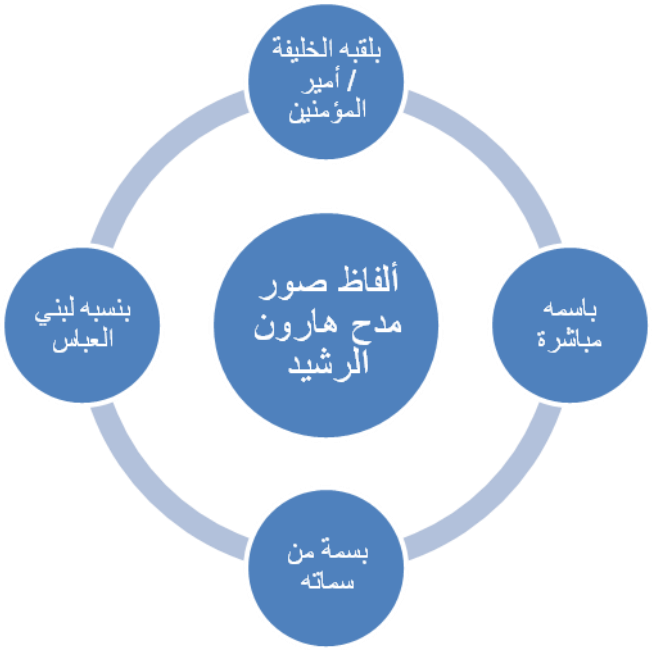

وعلى الوجه المقابل من التعدّدية في الثقافة والفكر التي أنشأتها تلك الحركات وما رافقها من إيجابيات في اغتناء الحركة الفكريّة وتجديدها على جميع المستويات، نلحظ الأثر السلبي الذي خلّفته من الزندقة والانحرافات الفكرية حصيلة الاجتهادات الخاطئة، كما في الأبيات[1]:

وقد علم العُدْوان والجَوْرُ والخَنَا * * بأنّك عيّافٌ لهنّ مُزايِلُ

ولو علِموا فينا بأمرك لم يكن * * يَنال برِيًّا بالأذى متناولُ

لنا منكَ أرحامٌ ونعتدُّ طاعةً * * وبأساً إذا اصطكَّ القنا والقنابلُ

وما يَحفظ الأَنسابَ مثلَك حافظٌ * * ولا يصِلُ الأرحامَ مثلك واصلُ

---

[1] عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص271، وانظر: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، 171/13.

صور الشاعر الرشيد متجددًا قابلا للرأي الآخر.. ووصفه بخير حافظ للأنساب وخير واصل لأرحامه.

"ولما كان الخليفة مسؤولا عن المحافظة على الدين الإسلامي، وتطبيق أحكامه وإعلاء كلمته لزم عليه مطاردة هؤلاء القوم والقضاء عليهم، والحيلولة دون إفسادهم الناس وتضليلهم، وقد طارد الخلفاء الأول من بني العباس جموعهم في كلّ مكان وأمعنوا فيهم تنكيلا وتقتيلا، ولم يرحموا أحدًا منهم..." [1].

ومن الأبيات التي توضح العلاقة الحميمة بين الخليفة والناس وأنه سبب في تلاحم الناس وليس إفسادهم وتضليلهم، ما صوره الشاعر ابن جامع قائلاً[2]:

خليفةٌ لا يخيبُ سائلُه * * عليه تاجُ الوقار مُعْتَدلُ

نلحظ في البيت السابق أن هارون الرشيد تعامل مع أفراد رعيته جميعهم بالعدل، وهذا قول الشاعر: [لا يخيب سائله] والمحذوف لإتمام المعنى هو كلمة (رجاء) ليصبح الشطر : (لا يخيب رجاء سائله).

وكان هذا سبب التلاحم والمحبة بين الرشيد والرعية.. وعلى الجانب الآخر نجد أن الخليفة يعتب على مقربيه، ليس إفسادًا لهم وتضليلاً وإنما محبة وقربى، **فقد** عتب الرشيد على العتابي أيام الوليد بن طريف فقطع عنه أشياء كان عوّده إياها فأتاه متنصلا بهذه القصيدة [3]:

---

[1] عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، 271.

[2] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، 321/6.

[3] السابق نفسه، 138/13.

في ناظِرِيَّ انقباضٌ عن جفونهما ** وفي الجفون عن الآماق تقصير

لو كنتِ تدرين ما شوقي إذَا جَعَلَتْ ** تنأى بنا وبكِ الأوطانُ والدُّورُ

إذِ الركائبُ مَخْسوفٌ نواظرها * * كما تضمّنتِ الدُّهْنَ القواريرُ

نادتك أرحامُنا اللاتي نَمُتُّ بها * * كما تنادي جِلادَ الجِلّةِ الخُورُ

كما لا يغفل علينا إجارته للمحتاجين وفي ذلك يقول أبو العتاهية الشاعر الزاهد **المتخصص** في تصوير كل ما يهم الدين والمجتمع السعيد بدينه[1]:

اللهُ هوّن عندك الدّنيا * * وبَغَّضَها إليكا

فأبَيْتَ إلاّ أن تُصَغِّر * * كلَّ شيء في يَدَيْكا

ما هانتِ الدُّنيا على * * أحدٍ كما هانت علَيْكا

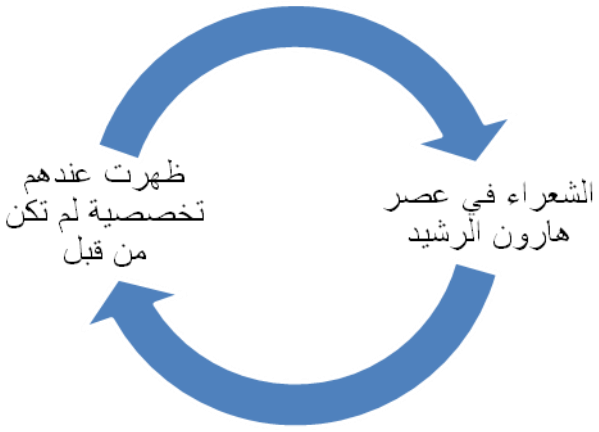

[1] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، 71/4.

5- صورة الرشيد والنزعة التحررية:

ظهرت أشعار استنفزت حفيظة الشعراء حول الخليفة هارون الرشيد، حيث عكس الشعراء من خلالها العديد من صور التفسّخ الأخلاقي والقيمي الذي تزامن والتطوّرات الدّخيلة على المجتمع الحجازي، إذ بلغ التحلّل الأخلاقي منتهاه، ومن قبيل ذلك التحرّرتلك الصور التي تتداعى كثيرًا في مجلس الرشيد مجالس الأنس والضحك والسّمر؛ فصور العماني الراجزالرشيد في وصفه فرسًا:

كأنّ أُذْنيه إذا تَشَوَّفا ** قادمةً أو قلمًا مُحرّفَا

فعلم الناس أنه لحن، ولم يهتدِ أحدٌ منهم إلى إصلاح البيت غير الرشيد، فإنه قال: قُل:

[تخال أذْنيه إذا تَشَوَّفا]

حتى يستوي الإعراب. والراجز وإن كان لَحن فإنه أصاب التَّشبيه.

ورغم ما انمازت به الدولة العباسية من اتّساع النفوذ السياسي، ووصف بغداد بـ " عروس الدنيا وعاصمة أكبر إمبراطورية... ومستودع أضخم بيتٍ للمال، وقبلة الطامحين للثراء السهل"[1]، إلا أنها لم تخل من مظاهر الطبقية والبذخ والترف والتفاوت الطبقي آنذاك، وكان مردّه إلى " نظام الدولة المركزي والتضخّم النقدي الفاحش في بيت المال، ما خلق طبقات اجتماعية واسعة الغنى والجاه والنعمة"[2].

---

[1] عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص152، وص 158.

[2] السابق نفسه، الصفحتان نفسهما.

ومن الأبيات التي توضح الغنى والبذخ والتضخم النقدي الفاحش في بيت مال المسلمين ما غناه يحيى المكي أمام هارون الرشيد فدخل إليه وهو جالس على كرسي بتل دارٍ, فقال: يا يحيى غنني، فقال[1]:

متى تلتقي الأُلاّفُ والعيسُ كلَّما * * تَصعَّدْنَ من وادٍ هبطن إلى واد

ويبالغ في وصف الحادثة إذ يقول: لم أزل أغنيه إياه ويتناول قدحا إلى أن أمسى فعددت عشر مرات استعاد فيها الصوت وشرب عشرة أقداح ثم أمر لي بعشرة آلاف درهم وأمرني بالانصراف.. وتشك الباحثة في كل ما ينسب لأكبر هرم في الدولة الإسلامية، فلا يعقل أنه يتناول الخمرة جهارًا! وإن ما يكتب هو من قبيل الزيادة والغلو لتشويه فترة ذهبية من تاريخ الأمة.. والترسيمة التالية تلخص خط سير المبالغات التي رسمها الشعراء للرشيد:

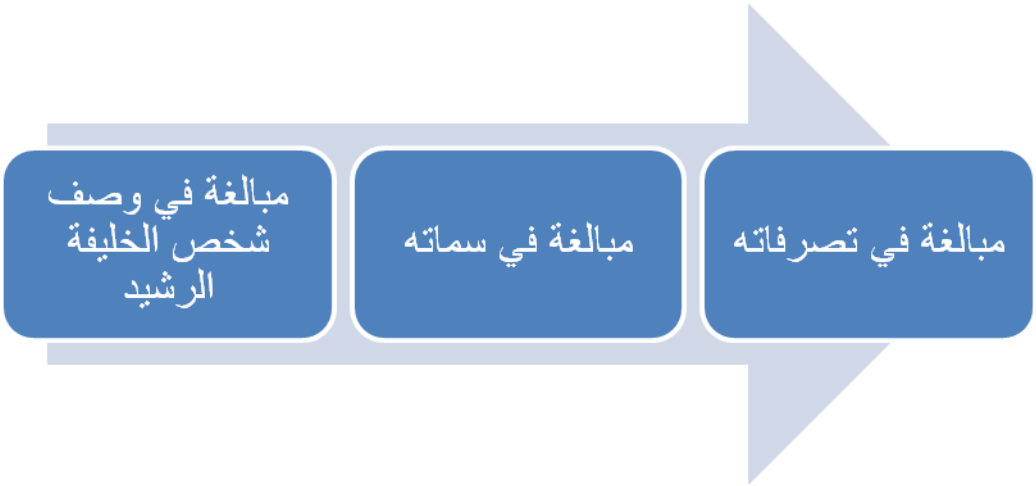

وقيل إنّ عدد الجواري لدى الرشيد قد ناهز الألفين آنذاك[1], يقول إبراهيم الموصلي :

---

[1] هو يحيى بن مرزوق مولى بني أمية وكان يكتم ذلك لخدمته الخلفاء من بني العباس خوفًا من أن يجتنبوه ويحتشموه فإذا سئل عن ولائه انتمى إلى قريش ولم يذكر البطن الذي ولاؤه لهم واستعفى من سأله عن ذلك ويكنى يحيى أبا عثمان, وذكر ابن خرداذبه أنه مولى خزاعة وليس قوله مما يحصل لأنه لا يعتمد فيه على رواية ولا دراية.. والرواية والأبيات في الأغاني، ج 6، ص 195-198.

فإذا ناولَتْكَهُنّ جَوارٍ * * عَطِراتٌ بيضُ الوجوه خِنَاثُ

تمّ فيها لك السرورُ وما طَيَّبَ * * عَيْشاً إلا الخِناثُ الإناثُ

قال ويلك اسقني ثلاثًا لا أمُت همًّا فشرب ثلاثا متتابعة !!!

وفي ذلك ينقل عن أبي العتاهية في وصف الجواري اللواتي ملأن قصر الرشيد:

صَحَا قلبي وراعَ إليّ عقلي * * وأقْصَر باطلي ونَسِيتُ جهلي

رأيتُ الغانياتِ وكُنَّ صُوراً * * إليّ صَرَمْنني وقَطعْنَ حبلي

فطرب هارون الرشيد حتى وثب على رجليه وصاح يا آدم لو رأيت من يحضرني من ولدك اليوم لسرك ثم جلس وقال: أستغفر الله[2]!!!

ويذكر أن الشاعر العماني استلم أول جائزة وأخذها من الرشيد وهي ألف دينار في أول يوم دخل إليه وقد غنّى له: (**عَلق القلبُ بِزَوْعا** ...) فاستحسنها واستعادها ثلاث مرات وشرب عليها ثلاثة أرطال وأمر له بألف دينار فكانت أول جائزة يتلقاها منه،ونلحظ في هذا الموقف أن الرشيد كان يغدق على جلسائه من الشعراء والأدباء بالمال والجوائز، وقد صوره العماني في قصيدة أخرى في هذا المعنى يذكر فيها طيب العيش ببغداد وسعة النعم وكثرة اللذات يقول منها:

ثم أتَوْهم بالدَّجاج الدُّجَّجِ * * بين قَدِيدٍ وشِواءٍ مُنضَجِ

---

[1] رواها ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1995م، 316/3.

[2] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، 238/5.

وبِعَبيطٍ ليس بالمُلَهْوَجِ * * فذُقَّ دَقَّ الكودَنيّ الدَّيْرَجِ

حتى مَلاَ أعفاج بطنٍ نُفَّجِ ** وقال للقَيْنَة صُبِّي وامزُجِي

فوهب الرشيد له على القصيدة ثلاثين ألف درهم[1] !!! العماني يصور طيب العيش والرزق وكثرة الملذات والنعيم في بغداد، حتى أنه يصور الدجاج وطريقة صنعه القديد والشواء، وما دار في المجلس.

ونقف مع صورة الشاعر العتابي[2]:

أتتركُني جَدْبَ المعيشةِ مُقْتِراً * * وكفّاك من ماء النّدَى تَكِفان

وتجعلُنِي سَهْمَ المَطامع بعد ما * * بَلَلْتَ يميني بالنّدَى ولساني

الذي أعجب الرشيد بها.. وقد أمر له بجائزة.. إنها صور مكرورة في غرض المدح، وهي بالتتالي:

6- شبه عطاياه بندى الماء المسترسل.

7- شبه مطامعه تجاه الخليفة بالسهام.

---

[1]عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، 158 – 162، والرواية من الأغاني،ج 5، ص239، وج18، ص 327.

[2] هو كلثوم بن عمرو بن أيوب بن عبيد بن حبيش بن أوس بن مسعود ابن عمرو بن كلثوم الشاعر وهو ابن مالك عتاب بن سعد بن زهير بن جشم ابن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب شاعر مترسل بليغ مطبوع متصرف في فنون الشعر ومقدم من شعراء الدولة العباسية ومنصور النمري تلميذه وراويته وكان منقطعًا إلى البرامكة فوصفوه للرشيد ووصلوه به فبلغ عنده كل مبلغ وعظمت فوائده منه...- وانظر الأغاني، ج13، ص127.

8- شبه كلمات مدحه بالندى الذي بلل لسانه.

9- شبه عطايا الخليفة بالندى الذي يبلل يده.

فتساوى في الأبيات ندى الخليفة = وندى الشاعر، وإن كان المصدر مختلف...

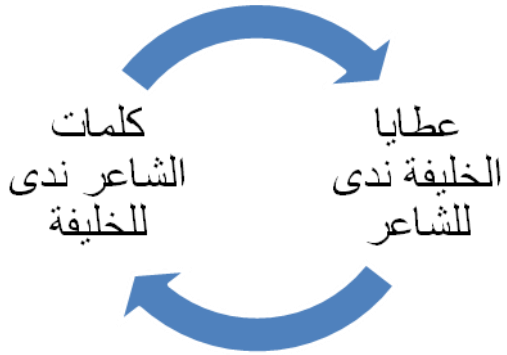

ونجد أنّ تطوّر الحياة الفكرية وتنوّعها بخصب الثقافات وامتزاجها أفرز نوعًا من النزعات التحرّريّة في الأدب على المستوى الشعري، وظهرت أحداث مستجدة راح يصفها الشعراء كالغلمان والخمرة والليالي الفاجرة التي كانت أثرًا لما اختلط في مجتمع الرشيد من مجون وخلاعة وسكر وعربدة وتحرر من الكثير من القيود الدينية والتقليدية، فكان لهذا شأن واضح على ألسنة الشعراء أمثال أبي نواس وعلي بن الخليل وحسين الضحاك ومسلم بن الوليد ومن على شاكلتهم، **وتلك هي التخصصية التي تظنها الباحثة التي قد زاد ظهورها في عصر الرشيد.**

ومن التحرر تكرر وصف الخمرة وكؤوسها أمام الرشيد، ويذكر أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني إن إبراهيم المهدي كان يسرق شعر إبراهيم الموصلي ويغني به أمام الرشيد[1]:

إذا سُكِبتْ في الكأسِ قبل مِزاجها ** تَرى لونَها في جِلدة الكأس مُذْهَبَا

[1] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، 229/5.

وإن مُزجتْ راعت بلون تخاله * * إذا ضُمّنتْه الكأسُ في الكأس كوكبَا

ومن التحرر حكايا الرشيد مع جواريه, ومنها أنه مر في بعض الأيام وبصحبته جعفر البرمكي وإذا هو بعدة بنات يستقون الماء فعرج عليهن يريد الشرب وإذا إحداهن تقول:

قولي لطيفك ينثني ... عن مضجعي وقت المنام

كي أستريح وتنطفي ... نار تأجج في العظام

دنفٌ تقلبه الأكف ... على بساط من سقام

فأعجب أمير المؤمنين بملاحتها وفصاحتها. فقال لها: يا بنت الكرام هذا من قولك أم من من قولك؟ قالت: من قولي. قال: إن كان كلامك صحيحاً فأمسكي المعنى وغيري القافية فصورت تقول:

قولي لطيفك ينثني * * عن مضجعي وقت الوسن

كي أستريح وتنطفي * * نارٌ تأجج في البدن

دنف تقلبه الأكف * * على بساط من شجن

أما أنا فكما علم* * ت فهل لوصلك من ثمن؟

فقال لها: والآخر مسروق، قالت: بل كلامي.. والترسيمة التالية ترجح رأي الباحثة فيما قرأت عن قصص الجواري والرشيد..

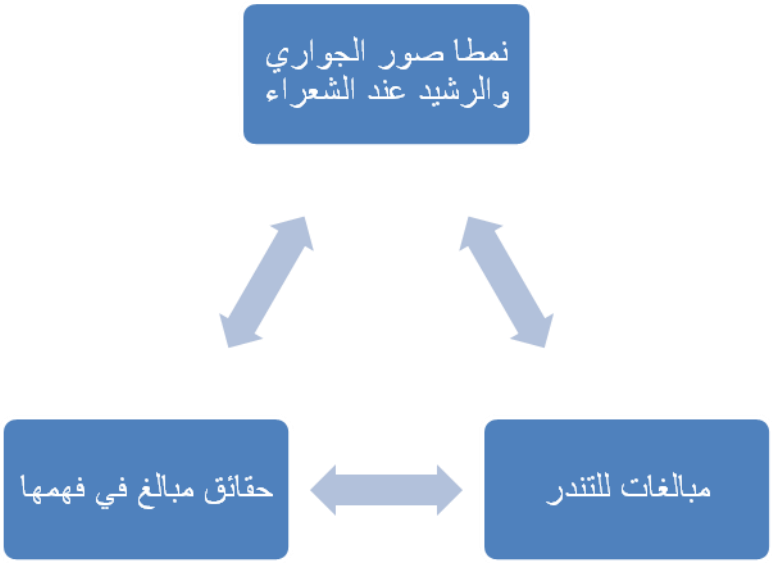

ولقد امتلأ عصر الرشيد بالشعراء، وكان من أغنى العصور اغتناء بالقريض ونوابغ الشعر، واتسعت ساحة الأدب في عصر الرشيد نثرا ونظما، وأُثِرَ عنه الاهتمام بالأدب المنثور، والمنظوم على حد سواء، حيث اعتنى بالخطب الوعظية والكتب والمراسلات بينه وبين الملوك، فضلا عن الوصايا والأقوال المأثورة وعدد من التوقيعات التي عرف الرشيد من خلالها بمدى حزمه في إدارة شؤون الدولة[1].

ومما نلحظه في الأبيات السابقة السمات التالية:

10- اعتناء الشعراء في ألفاظهم.

11- تجاوز بعضها عن المألوف.

---

[1] عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، ص270، وانظر: الإتليدي، إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، 103/1، وانظر: إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، 103/1.

12- اقتراب ألفاظهم الأخرى من تصوير مباشر لحياة كانوا يعيشونها.

13- أظهر تصويرهم الترف والبذخ المشاهد والمعيش.

ونشطت الكتب والمراسلات بين هارون الرشيدوشعرائه، ومن ذلك كتاب أشجع إلى الرشيد وقد أبطأ عنه شيئًا أمر له به، فقال له:

أبلِغْ أميرَ المؤمنين رسالَةً ** لها عَنَقٌ بين الرُّواةِ فسيحُ

بأنّ لسانَ الشعرِ يُنْطِقُه النَّدى * * ويُخرِسه الإبطاءُ وهو فصيحُ

فضحك الرشيد وقال له لن يخرس لسان شعرك وأمر له بتعجيل صلته.

كما عجّ البلاط العباسي بالمناظرات والمساجلات الشعرية من الإنشاد والاستنشاد للشعر والشعراء، ومن ذلك ما جاء في كتاب الأغاني من أنه "اجتمع مسلم بن الوليد وأبو نواس وأبو الشيص ودعبل في مجلس فقالوا ليصور كل واحد منكم أجود ما قاله من الشعر فاندفع رجل كان معهم فقال اسمعوا مني أخبركم بما يصور كل واحد منكم قبل أن يصور قالوا هات فقال لمسلم أما أنت يا أبا الوليد فكأني بك قد صورت:

إذا ما علَتْ منا ذؤابـــــةُ واحدٍ * * وإن كان ذا حلم دعته إلى الجهلِ

هل العيشُ إلا أن تروح مع الصِّبا ** وتغدو صريعَ الكأس والأعين النُّجْلِ

قال وبهذا البيت لقب صريع الغواني لقبه به الرشيد فقال له مسلم صدقت"[1].

[1] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، 434/16.

ويستعرض الرشيد ذاكرته الشعرية في المجلس, إذ يتوجه بالحديث بعدها إلى أبي نواس :" فقال له كأن بك يا أبا علي قد صورت:

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هندِ ** واشربْ على الوَرْد من حمراءَ كالوردِ

تَسقيك من عينها خمراً ومن يدها * * خمراً فما لك من سُكرين من بُدِّ

فقال له صدقت "[2].

وعُرف في عهد الرشيد مجالس خاصة للطرب والنشيد يحضرها أهل الأخبار والنوادر والأدب والشعر ترويحًا عن النفس وحبّا في المعرفة والاطلاع على آداب العرب وأخبارهم، ومثلما ظهر شعراء المدح ممّن اختصوا بتخليد ذكرى الرشيد ومدحه، وتخليد مآثر بني العباس، وبرز على الوجه المقابل فئة من الشعراء الذين ينضوون تحت لواء الشعوبيّة يمتدحون الفرس وغيرهم[3]،وبرز فئة من الشعراء تخصصوا في مدحهم وإعلاء شأنهم وتفننوا في ذكر الأخبار الموضوعة والمختلقة عن الرشيد، وبالغوا في وصفه بالمجون والخلاعة قصدًا منهم إلى تشويه صورة الرشيد، هذا ما جعل شخصيته مثارَ جدل الكتّاب والمؤرخين.. وأساء هذا الجدل لسمعة الرشيد الخليفة، وسمعة الرشيد الإنسان، وزاد ذلك نحو تشويه صورة المجتمع الإسلامي, حيث نجد أن بعض المؤرخين ضخم الاتجاه الضال والمجون والانحراف وصوره ومجتمعه بصوره هابطه متحررة أخلاقيا من كل صور الأدب والاحتشام, وما ذكر في كتاب الأغاني أن الرشيد

---

[2] السابق نفسه، الصفحة نفسها.

[3] عبد الأمير مهنا، الطرب والظرف والنشيد في مجالس هارون الرشيد، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1990م، ص60.

كان يهوى ثلاث جوار وقال فيهن الشعر يثبت حقدهم وكراهيتهم للرشيد من خلال أشعارهم وقصصهم , فكيف تجتمع الفتوحات والانتصارات وتتهم خلافته بالفسق والمجون[1].

[1]عبد الأمير مهنا، الطرب والظرف والنشيد في مجالس هارون الرشيد، ص60 – 64.

6-صور من سياسة الرشيد مع الرجال من حوله :

جمع الرشيد الرجال من حوله على كلمة واحدة سواء بالترهيب أو الترغيب فيقول أشجع السلمي في ذلك[1]:

جَمعتَ ذَوِي الأهواء حتى كأنَّهُم ** على مَنهجٍ بَعْد افتراقِهِم رَكْبُ

بَثَثْتَ على الأعداء أبناءَ دُرْبةٍ ** فلم يَقِهِم منهم حُصونٌ ولا دَرْبُ

فابتدأ حكم الرشيد بتفويض يحيى البرمكي أمور الدولة وتعيينه وزيرًا له، ففتح الرشيد للبرامكة باب المشاركة في السلطتين التنفيذية والتفويضية. وامتدّ نفوذ البرامكة العجم، فقد كان الفضل بن يحيى البرمكي الساعد الأيمن لأبيه في الأمور الإدارية، وأوكل لجعفر بن يحيى عددًا من المهام السياسية مُنِحَ خلالها خاتم الوزارة[2]..ومن الأمثلة على الألفة بين الرشيد والبرامكة يقول ابن مناذر[3]: (البسيط):

قد تُقطَع الرَّحِمُ القريبُ وتُكفَر ** النُّعمَى ولا كَتَقارُب القَلْبينِ

يُدْنِي الهَوَى هذا ويُدْنِي ذَا الهَوَى ** فإذا هُما نَفْسٌ تُرَى نَفْسَيْنِ

---

[1] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، 220/18.

[2] وليم الخازن، الحضارة العباسية، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1984م، ص25.

[3] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج18، ص210.

وبدأ نفوذهم بالتقلّص بوفاة الخيزران أم الرشيد سنة 173هـ-790م، حيث كان لها دورٌ كبيرٌ في اتّساع نفوذهم، والتمتع بصلاحيات واسعة في إدارة شؤون البلاد السياسية[1].

ولعلّ جملة الآراء الاعتباطية التي أقرّها البرامكة، وميلهم إلى العجم ومحاولاتهم إدخال مظاهر الحياة السياسية والقيم الفارسية على المجتمع العباسي كانت سببًا في تراجع نفوذهم.. ثم إيغار قلب الرشيد عليهم، فضلا عن اتهامهم بالتآمر ضدّ الدولة وازدياد شكوك الرشيد حولهم، مما أدّى إلى تفويض سلطتهم، حيث أمر الرشيد بالقبض عليهم، ومصادرة أملاكهم عام 187هـ-803م[1].. وبانتهاء حكم المتنفذيْن في عهد خلافة الرشيد؛ نفوذ أمّه الخيزران من جهة، والنفوذ البرمكي من جهةٍ أخرى، تشتدّ الدولة العباسية صلابةً، وتنتفي بها المزاعم التي ذهب إليها المؤرخون بأنّ " الدولة العباسية قِسمة بين العرب والفرس "[2].

ومدح أبو العتاهية الرشيد حتى جاء بألفاظه بعينها حيث يقول[3]:

جَرَى لك من هارونَ بالسعد طائرُه ** إمامُ اعتزام لا تُخاف بوادرُهْ

إمامٌ له رأيٌ حميدٌ ورحمةٌ * * مواردُه محمودةٌ ومصادرُه

وتخلص الباحثة إلى أن أسباب تشتيت صورة الرشيد تاريخيًا بين الرشد والحزم هي:

1- طبيعة البشر التي لا تقف موقفًا عدلا تجاه الخصوم.

---

[1] فاروق عمر فوزي، الخليفة المجاهد هارون الرشيد، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1989م، ص 22-24.

[2] السابق نفسه، ص29.

[3] أبو العتاهية، ديوانه، ص 127، وانظر: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني،ج 7، ص175.

2- حياة الترف التي ألهمت الشعراء خيالات فوق من كان قبلهم.

3- المنافسة على أمور قيادة الدولة.

4- ميل البعض لحياة اللهو والمجون.

5- كثرة الاضطرابات والثورات والفتن التي تعرضت لها الدولة في عهده.

إنها لصورة مضطربة في شخص الرشيد وهي من المشكّلات التي أرهقت وعي المؤرخين، وسعيهم في تغليب صورة دون أخرى لصالح فئة في عصر غلبت عليه المطامع والفتن؛ حيث ازدهرت مظاهر الحضارة العباسية جرّاء اتصالهم بالعجم من التجارة وفن العمارة، فبنيت القصور الفخمة وزادت ثروات البلاد؛ فكانت الدولة الإسلامية آنذاك مركزًا للتجارة العالمية " فكانت تأتيها تجارات الشرق الأقصى وشرق إفريقية من كل نوع عن طريق الخليج العربي، كما كانت تَرِدُ إليها بضائع بلدان البحر الأبيض المتوسط عن طريق الشام ومصر "[1].

حتى الشعراء لم ينئوا مغبّة استمالة البرامكة نحوهم، فقد كان البرامكة يغدقون الأعطيات والهدايا على الشعراء لكسبهم وامتداحهم. كما لم يسلم أي جانب من جوانب أمور الدولة العباسية من احتواء البرامكة له إداريًا وعسكريًا وعلميًا وأدبيًا، لذلك امتدحهم الشعراء كما الخلفاء، يقول فيهم أبو نواس:

سلامٌ على الدُّنيا إذا ما فقدْتم ** بني برمكٍ مِنْ رائحينَ وغادي

ولم تقف الاضطرابات السياسية الداخلية في عهد الرشيد عائقًا في سبيل تنظيم أمور الدولة السياسية على الصعيد الخارجي، وبرغم أنّ الروم أو البيزنطيين هم العدو الأكبر للدولة

[1] محمد عبد العظيم أبو النصر، الدولة العباسية: التاريخ السياسي والحضاري، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، 2009م، ص106- 114.

الإسلامية آنذاك، إلا أنه استطاع بفضل الفتوحات المتوالية أن يظفر بتأمين هيبة الدولة الإسلامية أمام أعدائها في الخارج..حيث عني الرشيد عناية بالغة بتنظيم المنطقة الحدودية بينه وبين البيزنطيين، وتمكّن من تحصين دولته بخطين دفاعيين على الدود البيزنطية؛ عرف الأول بـ (الثغور) وعرف الثاني بـ (العواصم).. وصور أشجع السلمي هارون الرشيد بعد أن اتضح للخليفة التدبير من قبل جعفر البرمكي فعزله عن خراسان وأعطاه العهد والولاية[1]:

أمست خُراسانُ تُعزَّى بما * * أخْطأها من جعفرِ المُرْتَجَى

كان الرشيدُ المُعتَلَى أمرُه * * ولى عليها المُشرِقَ الأبلَجَا

.....

فكمْ به الرَّحمنُ من كُربة * * في مُدَّةٍ تقصُر قد فَرّجا

وكان هارون الرشيد قد قتل جعفر سنة سبع وثمانين ومائة، وكان قد بلغ من الرشيد ما لا يبلغه وزير من خليفة قبله، حتى كان يجلس معه في حلة واحدة قد اتخذ لها جيبان على ما ذكره بعض المخبرين حتى بلغ عنده أن يحكم عليه فيما شاء من أمر ماله وولده.. وردد الرشيد بيت شعر من أبيات قالها بعد قتله جعفر بن يحيى البرمكي أولها:

لو أن جعفر هاب أسباب الردى * * لنجى (كذا) بمهجته طمر مُلْجَم

وفي الترسيمة القادمة ملخص لما يراه الشعراء في الرشيد:

---

[1] شوقي ضيف, العصر العباسي الأول, ص314.

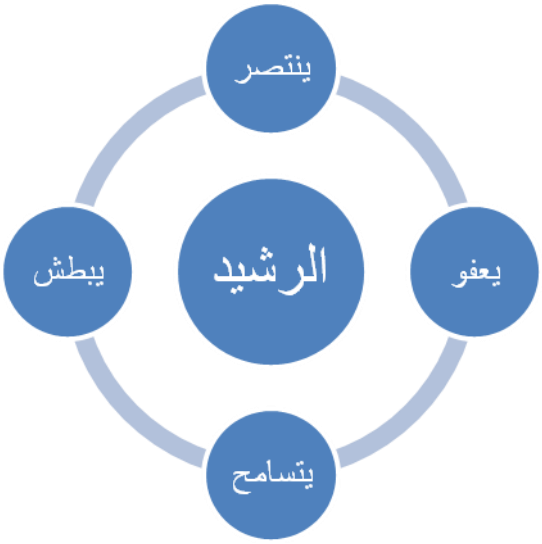

وصور منصور النمري أبياتًا في مدح الرشيد، فقال:

إذا الغَيْثُ أكْدَى واقشعرّتْ نجومُه **فغيْثُ أميرِ المؤمنين مَطيرُ

ويبالغ الشاعر في مدح الرشيد، فيراه كريمًا، حتى يكاد الناس يستغنون عن الغيث بكرمه، وأينما يحل تحل معه البركة والخير...

ومما تقدم، قدمت هذه الأطروحة رؤية موجزة للصورة التي كان يتمتع بها الرشيد في الجانبين؛ التاريخي والنفسي، فتناولت أولا الصورة من حيث مفهومها وأهميتها وتطورها وأبعادها وملامح التغيير فيها، ولتكتمل صورة الرشيد من هذه الرؤية بحثت الأطروحة الأبعاد المختلفة لصورة الرشيد، والتي تزامنت مع رصيد ثقافي متزايد، مثّل مصدرًا رئيسًا من مصادر الصورة لدى الشعراء في العصر العباسي، وذلك من خلال تتبع المؤثرات الثقافية لديهم آنذاك.ويلحظ مما تقدم أن صورة الرشيد في أشعار الشعراء اتخذت العديد من الأبعاد التاريخية التي تزامنت والأحداث العظمى ذلك العصر، فضلًا عن الأبعاد النفسيّة التي أحاط بها خيال الشعراء حول الخليفة والتي تباينت بين الحكمة والعفّة، وبين اللهو والمجون ما لا يُجمع على ثباتها أحد لتعدّد الروايات في ذلك.

الفصل الثالث

البعد الخيالي في توليد صورة الرشيد عند الشعراء

- المبحث الأول: الصورة الخيالية ذات البعد التجريدي.
- المبحث الثاني: الصورة الخيالية ذات البعد الحِسِيّ.

المبحث الأول:

الصورة الخيالية ذات البعد التجريدي.

التجريد بمعناه اللغوي هو (إزالة الشيء عن غيره)[1]أو(قَشْرُ الشيء، كَقَشْرِ اللِّحاء عن الشجرة حتَّى تكون مجرّدة من لِحَائِها، وإزالَةُ ما على الشيء من ثوب ونحوه، وتَعْرِيتُه، وإزالة ما على الجلْدِ من شَعَرٍ ونَحْوِه)[2]حول محور دلالي واحد هو التحوّل أو الانحراف عن المألوف من القيم أو الأوضاع أو أنماط السلوك، الأمر الذي جعل معالجات البلاغيين سيّما المتأخرين منهم تهدف إلى تحديد طبيعة هذا الأسلوب والكشف عن كثير من ألوانه وأسراره البيانية[3].

والتجريد اصطلاحًا: هو إخلاص الخطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك[4].

---

[1] الهاشمي, أحمد بن إبراهيم بن مصطفى, جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع, تدقيق: يوسف الصميلي, المكتبة العصرية، بيروت,ج1، ص308.

[2] الدمشقي, عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني, البلاغة العربية, دار القلم، دمشق، 1416 هـ - 1996 م, ج2، ص 431.

[3] الجندي، عيد عبد السميع، بلاغة التجريد في الشعر الجاهلي، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دمشق 2009م، ص29.

[4] أبو حامد , عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين , الفلك الدائر على المثل السائر , تحقيق: أحمد الحوفي , وبدوي طبانة, دار النهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع , القاهرة , ج4، ص217.

ويحصل البعد التجريدي بعد أن ينتزع المتكلم من أمر ذي صفة أمرًا آخر مثله في تلك الصفة، مبالغة في كمالها في المنتزع منه، حتى أنه قد صار منها، بحيث يمكن أن ينتزع منه موصوف آخر بها.

إن البعد التجريدي للصورة الفنية هو الذي يعنينا في هذا المقام, وهو البعد المقابل للبعد الحسي المرتبط على نحو من أساسي بالبعد الفلسفي أو بالتمثلات الذهنية للصورة الفنية إذ تختلف القدرة على استجماع هذه الصور الفنية الحسية من شاعر لآخر .. فالشعراء يختلفون في قدرتهم على تجريد اللفظة أو تعميمها أو إيضاحها, فنجد عند أحدهم شعرًا غامضًا لكنه له وقع في الناس.. ونجد عند آخر شعرًا واضحًا لكنه لا يقع له أثر على النفس والأحاسيس.

ينقسم التجريد إلى قسمين:أحدهما؛ التجريد المحض:وهو أن تأتي بكلام هو خطاب لغيرك، وأنت تريد به نفسك.. وأما القسم الثاني: وهو غير المحض، فإنه خطاب لنفسك لا لغيرك، ولئن كان بين النفس والبدن فرق إلا أنهما كأنهما شيء واحد، لعلاقة أحدهما بالآخر. وبين هذا القسم والذي قبله فرق ظاهر، وذاك أولى بأن يسمى تجريدًا؛ لأن التجريد لائق به، وهذا هو نصف تجريد؛ لأنك لم تجرد؛ لأنك لم تجرد به عن نفسك شيئًا، وإنما خاطبت نفسك بنفسك، كأنك

فصلتها عنك وهي منك..وهذا يتواءم مع انطباعات الشاعر التي يكوّنها خلال تشكيله الصورة، وإمكانياته في توليدها ذهنيًا ما تحقّقه اللغة من خلق تلك الانطباعات لديه حول العالم من حوله حيث يمكنه استعادة تلك الصور ذهنيًا لإحساس نتيجة إدراك طبيعي[1].

وتبرز الصورة ذات البعد التجريدي في المقام المدحي لهارون الرشيد؛ ذلك لاشتمال تلك الصورة على العديد من الصفات النفسية التي يبرز من خلالها الفضائل والقيم ذات البعد التجريدي الفكري ،فانظر إلى تصوير الشاعر داود بن رزين للرشيد [2]:

بهارونَ لاحَ النُّورُ في كلّ بلدة* * إمام بذات الله أصبحَ شغله

تضيق عيونُ الخلق عنْ نورِ وجهِه* * وإنّ أمينَ الله هارونَ ذا النّدى

يجرد الشاعر من النور شعاعًا يضيء على كل العباد والبلاد وهذا الشعاع استمد نوره من عدالة الخليفة فشعر المتلقي أن نورًا سطع على الكون , كما استخدم الشاعر عبارات كانت مركزًا لصوره التجريدية هما:

- [تضيق عيون الخلق]تصوير لشدة الانبهار من نور وجه الرشيد., ثم جرد الشاعر الصفة بشخص هارون الرشيد حيث أن عيون الخلق لا ترى غيره من الآدميين.
- [هارون ذا الندى]تصوير لعدالة وسماحة الرشيد التي اتسم بها أثناء حكمه .

---

[1] ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد, المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر,ج2، ص132.

[2] داود بن رزين: أبو حيي الواسطي مولى عبد القيس، كان شاعرًا محسنًا، ورد بغداد وعاشر بها أبا نواس وغيره من الشعراء، وكان راوية بشار بن برد، وله أخبار في كتب أهل الأدب، الخطيب البغدادي، أحمد علي أبو بكر، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، 359/8، والسيوطي، تاريخ الخلفاء، 1952م، 249/1، وابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، 1988م، 172/10، والطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، 620/4.

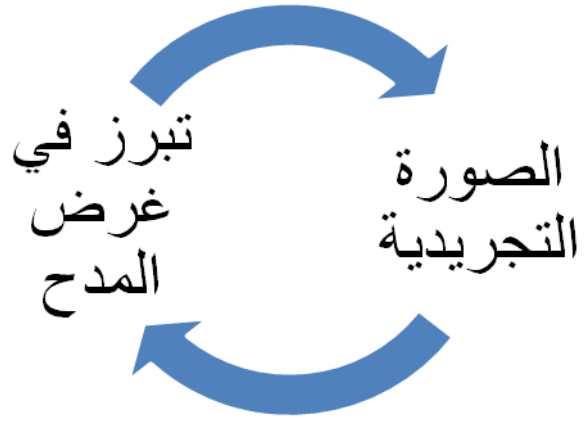

ومن التجريد قول العماني في مدح الرشيد عندما دخل عليه بالرقة :

"هارونُ يا بنَ الأَكْرمِين مَنْصبا * * لما ترحَّلْتَ فصرت كَثَبا

من أرضِ بَغْداد تؤُمُّ المَغْرِبا * * طابت لنا رِيحُ الجَنُوبِ والصَّبا

ونَزَل الغيْثُ لنا حتى ربا * * ما كان من نَشزٍ وما تَصَوَّبا

فمَرْحباً ومَرحَباً ومَرحَبا ...

فقال له الرشيد وبك مرحبا يا عماني وأهلا وأجزل صلته "[1] .

لقد اشتملت الآبيات على عبارات صنعت التجريدية في الخطاب الموجه للآخر, ونرى هنا ألفاظًا وعبارات هي:

- منصبا , كثبا. وهو تصوير استجمع صفاتٍ مكنت الشاعر من الاستحواذ على قلب الرشيد وعطاياه.

[1] الأبيات في الأغاني، ج 7، ص 243.

- هارون يا بن الأكرمين.. تصوير تذكيري غرضه (نفسي)يرجع الشاعر الرشيد بالرجوع إلى حسبه ونسبه الأصيل الذي يفاخر به الأمم ليستشعر في نفسه الصورة الحية لعظمته.
- أرض بغداد. وهو تصوير للمكان الذي يجمع العقل والفكر في تساؤل واستفسار عن سر ذكر بغداد , حيث إنها رقصت فرحًا بقدوم هارون الرشيد .
- نزل الغيث لنا حتى ربا. تصوير تمثيلي ذهني يشبه الشاعر خلاله كرم هارون الرشيد كالغيث الذي يسقي كل البلاد.
- ما كان من نشز وما تصوبا. تصوير دلالي يتجه نحو الغيث الذي صبّ عليهم صبًّا فلم يكن من مكان مرتفع ولا من مكان ينحدر منه الماء فلا يستفاد منه؛ إذ كان غيثًا وصيبًا نافعًا ربت ونمت الأرض بعد سقياه وهذا كرم الرشيد الدائم الذي لا ينقطع .
- أسلوب النداء في (يا بن) تصوير غرضه شد انتباه المتلقي, ودلالة على أن الكرم ورثه أباً عن جد.
- أسلوب الخطاب المباشر في (هارون) وهو من أساليب الشعر التقليدي القديم .

وهكذا يتجلّى قوام الصورة لدى القدماء التي لا تنفصل بحال عن مزج كلا البعدين الذهني أو التجريدي وتمثّلها المادي المحسوس لدى الشاعر، وهذا ما يعرف قديمًا بالصياغة: " لا نحكم على المعنى بمادته وإنما بالصياغة التي تُصاغ بها المادة أو تتشكّل من خلالها، وطالما أن قيمة المادة تتحدّد بالصورة التي تكون عليها، فعلينا أن نبحث عن القيمة الشعرية للمعنى في صورة أو في تشكيلة للعناصر الدالة التي يتآلف معها في الصياغة الشعرية"[1].

---

[1] جابر عصفور، مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط5، 1995م، ص97.

نقض نقفور العهد الذي بينه وبين الرشيد,فلم يجرؤ يحيى بن خالد على إعلام الرشيد بغدر نقفور , فبذل الأموال للشعراء على أن يقولوا أشعارًا في ذلك ؛ صور الشاعر أبو محمد التميمي[1]الحادثة فقال: (الكامل) :

نَقَض الذي أعْطاكه نَقْفورُ * * فعَلَيه دائرَةُ البَوارِ تَدُورُ

أبشِرْ أميرَ المُؤْمِنِين فإنّه * * فَتْحٌ أتاك به الإلهُ كَبِيرُ

فلقَد تباشَرَت الرَّعِيَّة أن أتى ** بالنَّقْض عنه وافد وبَشِيرُ

ورجَتْ بيُمْنِك أن تُعجِّل غَزوةً ** تَشفِي النُّفوس نَكالُها مَذْكُورُ

أعْطاكَ جِزْيته وَطَأْطَأ خَدَّه ** حَذَرَ الصَّوارِم والرَّدَى مَحْذُورُ

فأجرْتَه من وَقْعِها وكأنَّها ** بأكُفِّنا شُعلُ الضِّرام تَطِيرُ

تحمل الأبيات السابقة إطار البعد التجريدي للغة,يظهر في (أعطاك جزيته وطأطأ خده) وقد صور الشاعر صور نقفور بالإنسان المذلول الذي يعطي الجزية عن يد وهو صاغر فاستخدم فعل الأمر أعطاك دلالة على قوة هارون الرشيد وسلطته التي امتدت إلى الروم على الرغم من الهالة العظيمة لنقفور إلا أنه قدم الجزية وهو مطأطئ الخد فهذا قمة الخنوع والإذلال كما أنه قدم الجزية خوفًا من الصوارم والقتال والدمار الذي يلحق به .

---

[1] كان مجيدًا قوي النّفَس قوي الشعر ... اختصه في أيام المأمون ورفع قدره جدًا. قيل أبو محمد عبد الله بن محمد وقيل هو الحجاج بن يوسف التميمي, والأبيات في الأغاني ,249/18.

ثم يستخدم أسلوبًا تجريديًّا آخر باستخدام حرف الجر (ب) في (به) أي انه بلغ من الفتوح والانتصارات حد لم يبلغه أحد من الخلفاء,وأن فعل النصر يأتي على قدميه لعظم النصر, فقد صح التبشير الإلهي في زف بشرى الانتصار إلى الخليفة من الإله لمكانته القدسية العظيمة عند ربه ,على حسب تعبير الشاعر .

ومن البعد التجريدي عند الشعراء ما قاله أبو العتاهية في فتح هرقلة[1]: (الكامل):

ألا نادَت هِرقَلةُ بالخرابِ * * من الملِك المُوَفَّق للصَّواب

غَدَا هارونُ يُرعِدُ بالمَنايا * * ويُبرِق بالمُذَكَّرَةِ القِضابِ

ورايات يَحُلُّ النَّصُر فيها * * تمرُّ كأنّها قِطَعُ السَّحابِ

أميرَ المؤمنينَ ظَفِرتَ فاسْلَمْ * * وأبشِر بالغَنيمة والإيابِ

تندرج هذه الأبيات تحت مفهوم (الكناية التجريدية)[2]إذ أطلق لفظ يرعد على هارون الرشيد ليحمل معنى القوة والخوف والهيبة ولكن الرعد لم يأتي هذه المرة بالخير والمطر وإنما جاء بالموت المرتقب للأعداء ودلّ أيضًا على كثرة الفتوحات التي خاضها الرشيد وأنه لا يهاب الموت,مما زاد الأمر سوء أن الرعد تبعه البرق ليدل على أن سمعت الخليفة وصوته وشهرته قد سبقت أفعاله .

---

[1] أبو العتاهية، ديوانه، ص 199.

[2] وهو(ما يكون مدلولاً فيه على المعنى المجرّد بطريق الكناية التي هي أن يعبّر بالملزوم ويُراد اللازم مع صحة إرادة الأصْل)، وانظر: ابن يعقوب المغربي، مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص في علوم البلاغة)، مطبعة عيسى البابلي الحلبي، القاهرة، د.ت، 354/4.

فيجمع الشاعر بين الأضداد في البيت الأول: (الخراب /الصواب)، وهو نوع من الانحراف الأسلوبي في بنية الكلمة ؛ فالخراب كان سببه هرقلة التي جنت على نفسها بهذا الدمار , والصواب من هارون الرشيد يشن الحرب التي تنبأ بربيع أسود غير متوقع .

إن العمل الشعري في إطار الميدان التجريدي يركز على الأداء في عملية الخلق, لذلك نجد أن التيار التجريدي أعلى درجة من الغموض والإبهام , لان الشاعر ينحرف انحرافًا شديدًا عن قوانين الحس المألوف ليشعر القارئ أن الصورة تكونت بطريقة غريبة وشاذة لتشكل عند المتلقي عملاً تجريديًّا ذهنياً مجرداً.

ومثل ذلك يقول الشاعر العُماني[1]: (البسيط):

يا ناعِشَ الجَدّ إذا الجَدّ عَثَرْ ** وجابر العَظْم إذا العَظْم انْكَسَر

أنت رَبيعِي والرَبيعُ يُنْتَظَرْ ** وخير أنواءِ الرَّبيع ما بَكَرْ

فقال له الرشيد إذا يبكر عليك ربيعنا يا فضل أعطه خمسة آلاف دينار وخمسين ثوبا.

نلحظ في الأبيات السابقة أيضاً انخراط الشاعر بالتجريد التمثيلي من خلال التضاد (جابر /انكسر) ؛ ويحضر الجمال التجريدي في الجمع بين الجبر والانكسار في آن واحد , وهو نوع من الانحراف الأسلوبي:

[جابر العَظْم إذا العَظْم انْكَسَر]

إذ استخدم الجبر للحماية من الانكسار .

تصنع عملية الجمع بين المتضادات تلك المسافة الأسلوبية التي يستطيع الشاعر من خلالها التلاعب الحر ببنية اللغة وفق سياق أسلوبي خاص " ليس هو التداعي وليس هو التوالي

[1] أبو الفرج الأصفهاني, الأغاني , 18/ 319.

اللغوي الذي يحصر تعدد المعنى أو يضيف إيحاءات خاصة للكلمات بل هو نموذج لغوي ينكسر بعنصر غير متوقع، والتضاد الناجم عن هذا الاختلاف هو المثير الأسلوبي، وقيمة التضاد الأسلوبية تكمن في نظام العلاقات الذي يقيمه بين العنصرين المتقابلين فلن يكون له أي تأثير ما لم يتداع في توالٍ لغوي، وبعبارة أخرى فإن عمليات التضاد الأسلوبية تخلق بنية مثلها في ذلك مثل بقية التقابلات المثمرة في اللغة"[1].

ومن صور التجريد ما رسمه أشجع السلمي في شخص هارون الرشيد وما عرفه التاريخ به فقال[2]: (الخفيف):

إنَّ يُمْنَ الإمام لَمَّا أتانا * * جَلَب الغَيْثَ من متونِ الغمامِ

فابْتِسامُ النَّباتِ في أثر الغَيْثِ * * بنُوَّاره كسُرج الظَّلام

مَلِكٌ من مَخافة الله مُغْضٍ ** وهو مُغضًى له من الإعظام

ألف الحَجَّ والجهادَ فما يَنْفَكُّ * * من سَفْرَتيْن في كُلّ عام

نلحظ في الأبيات السابقة استخدام الشاعر للكناية (متون الغمام) (ابتسام النبات) , فابتسام النبات في أثر الغيث كناية عن عظيم المنح والعطايا التي يقمها هارون الرشيد لرعاياه, ولم يتوقف الشاعر عند هذه الصورة التجريدية بل جعل من نور الرشيد قنديلا يستراج به لنور لا ينطفئ.

---

[1] صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1985م، 193.

[2] ديوان أشجع بن عمرو السلمي، ص 198.

وأجاد الشاعر التنسيق بين السياق الخارجي والمعنى الداخلي لمقتضى الحال, حيث تحقق الربط بين النور والظلام, لأن الظلام يستلزمه النور, وهذا حقيقة الحال.

وحضر التجريد في قول أحد الشعراء ولم يسمه الأصفهاني[1]:

كأنَّ نِيرَانَنا في جَنْب قَلْعتِهِم ... مُصَبَّغاتٌ على أَرْسانِ قَصّار

هَوَتْ هِرَقْلَةُ لَمَّا أن رأتْ عَجَباً ... حوائماً تَرتمِي بالنِّفط والنَّار

يستحضر الشاعر في الأبيات السابقة البعد التجريدي الحسي في استجماع صفات وفضائل الخليفة , يبدأ الشاعر بالتشبيه (كأن نيراننا) إذ يجسد الخليفة بالنار الملتهبة التي تأكل قلاعهم من شدة ثورانها ودلالة على صغر قلاعهم الكبيرة أمام قوة الخليفة ونيرانه الملتهبة ؛ وهذا نوع من التجريد والتعميم .

استخدم الشاعر لفظتي (النفط والنار) لتعبير عن اللهيب داخل الخليفة اتجاه هرقلة , بما يتناسب مع لهيب النار وهي خصيصة اختصت بها النار, فالتجريد الحي في وصف حالة النار وحالة الرشيد في فتح هرقلة ؛ وذلك لأن المقام المدحي يتناسب مع الحيّز التجريدي الذي تشغله الرؤى المجردة المتعلقة بمعانٍ غير حسية هي تجريدية في المقام الأول وإن ظلّ الشاعر العربي القديم لا يُبارح تأويلها إلى التمثيل الحسي من خلال البنى الاستعارية والكنائية.

كما يوظف الشاعر حرف الجر (في) ليبين أسلوب تجريدي جديد, إذ ينتزع الشاعر من قوة الرشيد ونيرانه نيرانًا تأكل قلاعهم وحصونهم .. كما يستخدم حرف العطف (و) في (النفط والنار) مما يشي لنا أنهم متغيران إلا أنهما يحملان الصفات نفسها من اللهيب والحرق بطريقة تجريدية جميلة .

---

[1] أبو الفرج الأصفهاني , الأغاني ,349/18.

وشخص الشاعر في عبارة (هوت هرقلة) ما جعل هرقلة كائنًا حيًّا يرى الدمار من حوله, ويكون التشخيص للمعاني المجردة ومظاهر الطبيعة الجامدةويعمد إلى نقل صفة أو أكثر من صفات الكائنات الحية التي تحس وتتحرك وتنبض بالحياة إلى غيرها من تلك التي لا تمتلك تلك الصفات.

يقول أبو مناذر[1]:

ما هَيَّجَ الشوقَ من مُطَوَّقَةٍ ** أوفَتْ على بانةٍ تُغَنِّينَا

ولو سألْنا بحُسْن وَجْهك يا ** هارونُ صَوْبَ الغمام أُسقِينَا

قومي تَمِيمٌ عند السِّماك لهم ** مَجْدٌ وعِزٌّ فما يُنالونا

أبدع الشاعر في وصف فضائل الرشيد وفي استنطاق النص إشباعًا لرغبته في مدح الرشيد إذ يجسد في حسن وجه الرشيد شخصية تسأل وتجيب عما وجها إليه, كما يلجأ إلى الكناية التجريدية إذ صور الوجه لو طلب صلاة الاستسقاء متوجهًا إلى الغيوم لاستجابت ونزل المطر . وهكذا تنستنج الباحثة الترسيمة التالية:

---

[1] هو محمد بن مناذر مولى بني صبير بن يربوع ويكنى أبا جعفر وقيل إنه كان يكنى أبا عبد الله , شاعر فصيح مقدم في العلم باللغة وإمام فيها وقد أخذ عنه أكابر أهلها وكان في أول أمره يتأله ثم عدل عن ذلك فهجا الناس وتهتك وخلع وقذف أعراض أهل البصرة حتى نفي عنها إلى الحجاز فمات هناك, انظر: أبو الفرج الأصفهاني , الأغاني , ج18، ص 174-175, وص190.

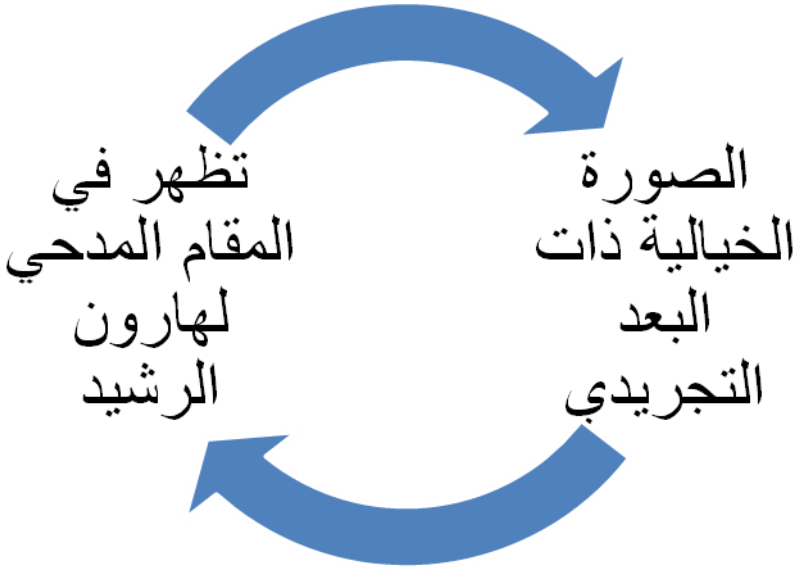

وتظهر سمات صورة المقام المدحي ذات البعد الخيالي التجريدي كما يلي:

1- اشتمال تلك الصورة على العديد من الصفات النفسية.

2- تبرز تلك الصورة فضائل الممدوح وقيمه.

3- لها وُجهة واحدة هي الممدوح ولا تحيد عنه.

4- فيها تعبير فني يبني النص من ألفاظ منتقاة.

5- تتسم لغة الشاعر في المدح بالغِنى الدلالي.

ومن تلك الصور المدحية ما صوره أشجع السُلمي في حضرة هارون الرشيديوم وفاة أحد أبنائه[1]: (البسيط):

نقْصٌ من الدين ومن أهله * * نقصُ المنايا من بني هاشمِ

قدّمته – فاصبِر على فقدِه – * * إلى أبِيه وأبي القاسمِ

[1] ديوان أشجع بن عمرو السلمي، ص 46.

يقع المنحى التجريدي في الأسلوب الإبداعي في رسم صورة الموت, إذ يجرد الشاعر المنايا من كل معاني الدين والقرابة وان النقص الحاصل هو نقص للموت من بني هاشم وان المنايا هي التي تحمل الخطيئة في فقدان ابنه .

ولم يتوقف رثاء الشعراء لابن الرشيد , وإنما رثا ابن مناذر الرشيد عند وفاته قائلاً[2]:

(مجزوء البسيط):

مَنْ كان يَبكِي للعُلا * * مَلِكاً وللهِمَمِ الشَّرِيفَهْ

فليَبْكِ هارونَ الخَلِيفةَ * * للخَلِيفَة والخَلِيفَة

جاءت الأبيات السابقة في رثاء الرشيد واجتمعت معاني الرثاء و المدح في آن واحد ,إذ يعد ذلك من باب المفارقة الضدية , ألفاظ المدح (للعلا ملكا) (للهمم الشريفة)؛ وعبارات الرثاء

- (من كان يبكي).
- (فليبك هارون) .

تتضح الرؤى التجريدية النفسية في قول الشاعر (من كان يبكي) فالشاعر يحمل في طياته مشاعر الألم والحسرة الذي ألم بالأمة لفقدها الخليفة , فهو نبراس لمعاني الرايات العالية والانتصارات الخالدة ويصيبه الحسرة أيضا لتفاني الهمم والعزم والإرادة الشريفة إذ أن فقد الأمة جلل وعظيم.. فالبكاء يكون للخليفة هارون لا لخليفة غيره لأنه أهل الرايات العالية والهمم الشريفة الذي لم يصغر خده لأحد أبدا .كما تتجسد صورة الرشيد التجريدية في إطلاق أكثر من لقب عليه :

(ملكًا , هارون , الخليفة)

---

[2] السابق نفسه, ج18، ص205-206.

وهذه الألفاظ تقوي ما كتب عنه البعض أنه من أقوى الشخصيات التاريخية والدينية والأسطورية وأنها لم تجتمع في غيره .

المبحث الثاني:
الصورة الخيالية ذات البعد الحسيّ.

لا يكاد يخرج مفهوم التصوير في قراءات الأدب إلى دائرة الوصف الحسي أو النفسي غير أن هذه القراءات تتفاوت بعد ذلك في تشخيصها للسمات التي يتجسد بها الوصف مما يجعل بعضها يستشرق آفاقا جديدة في براعة التصوير الأدبي[1].

وقد استكثر الرشيد وزوجه زُبَيْدَة من الجواري والإماء، حتى قيل " إنّه كان عند كلّ منهما زهاء ألفي جارية في أحسن زيٍّ من الثياب والجوهر"[2]، وقد تواترت كتب الأخبار والأدب ذكر أسماء عديدة للجواري اللائي يروى أنهنّ شغفن الرشيد بحبهن, فكان الناس يتناشدون له في جواريه[3]:

ثلاث قد حَلَلن حِمَى فؤادي ** ويُعْطَين الرغائب من وِدادي

نظمت قلوبَهُن بخيطِ قلْبي ** فهنَّ قرابتي حتى التنادِي

فمن يكُ حلّ من قلب مَحَلاً ** فهن مع النواظر والسَّواد

كان قلب الرشيد يخفق بالحب والجمال , ونظم ابياتة السابقة لما صد الحب عنه إذ كان أسير الحب لما وصف جاريته , لتعلق قلبه بها فأصبح سجين العشق

---

[1] محمد ميشال, البلاغة والسرد, منشورات كلية الآداب, تطوان, ط1, 2010م , ص125.

[2] ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1995م، 316/73.

[3] أبو الفرج الأصفهاني , الأغاني 374/16.

والهوى نظراً لتملكها قلبه وعشقها .

ظهرت صور حسية في المقطع، ويمكن عد قول الشاعر:

[نظمت قلوبَهُن بخيطِ قلْبي]

صورة مركزية للمقطع.. و صوّر الشاعر الإخلاص في الحب وأنه يتطلب الانسجام والتواؤم للمحبوبين, ولم يكتف الشاعر في النبرة الحسية العالية لخيط القلوب وإنما زاد في الانسجام بين لغة المحبين في أن صلة المودة بينهم تصل إلى درجة القرابة وهي أعلى مراتب القربى .

ونجد صورًا مفرطة بالحس في قوله:

- فؤادي,

وقوله:

- النواظر.

ونجد تكرارًا لألفاظ بعينها هي:

(فؤادي, القلب,قلوبهن)

بصورة مفرطة لبيان الشغف بالمحبوبات .

ويحكى أن الرشيد كان يهوى جاريته ماردة هوًى شديدًا، فتغاضبا مرة ودام بينهما ويمكن القول إنّ الرشيد رغم سلطانه وجبروته، فقد ظهر رقيقًا مرهف الحس في حياته الخاصة مع نسائه وجواريه، يعجبه منهن ما يعجب غيره فيصدر عنه ما يصدر عن غيره من الشعراء، ويقول فيهن شعرًا من رقيق الغزل، ويستقدم الشعراء ليمدحوه، فهو إنسان قبل كل شيء، لا يمنعه سلطانه ولا تأخذه مشاغله دون أن يأخذ قسطه من مباهج العصر ولذائذه.

ومن الصور الحسية ما صوره الأصمعي أمام الرشيد لجارية :

كنانيّة الأطراف سعديّة الحشا * * هلاليّة العينين طائيّة الفم

لها حكم لقمان، وصورة يوسف * * ونغمة داود، وعفّة مريم

فقال: أحسنت والله يا أصمعي؛ فعل عرفت اسمها؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين فقال اسمها دنيا.

فأطرقت ساعة ثم قالت:

إنّ دنيا هي التي * * تملك القلب قاهره

ظلموها شطر آسمها * * فهي دنيا وآخره

وتظهر من سمات الصور الحسية:

- أغرق الشاعر في وصف محاسن المرأة.
- الإغراق بالحسية في وصف الجارية وهذا مما لا يليق بمجلس الرشيد والي أمور المسلمين.
- صوره تعكس فحش القول.
- يظهر المبالغة في تقديس الجمال إلى حد أن قرنها بصور الأنبياء عليهم السلام!!

وهذا ما يجعل الباحثة لا تطمئن لمثل تلك الروايات.

يتضح إيغاله في الوصف الحسيمن خلال ذكره لأوصاف الجارية الجسدية (كنانية الأطراف – سعدية الحشا –هلالية العنيين – طائية الفم) , وتحمل الأبيات التناقض في الجمع بين جمالها ومقارنة حكمها بحكم الأنبياء وهذا مما لايليق بمجلس خليفة المسلمين.. وإن دل على

شيء وإنما يدل على حالة البذخ والترف التي كان يعيشها المجتمع العباسي آنذاك، أو أن الروايات مبالغ فيها ولا تنسجم مع نظام الدولة الإسلامية وثقافتها .

ومن الملاحظ أن اهتمام الشعراء بالمرأة كان مدفوعا بالرغبة الجسدية لشخص الرشيد , فيدل على دلالات حسية والتغزل بالمرأة على نحو ذاتي , فكانت المرأة باعثا قويا عند الشعراء للتغزل بأبعادها الأنثوية على نحو صريح.

إن العوامل التيعاشها المجتمع العباسي ساعدت على طغيان الذاتي على الموضوعي في عالم الجواري والتغزل بمفاتنهن عند الشعراء, فقد ملأن عليهم قلوبهم وعقولهم, وكثيرًا ما يقع حب جارية في قلب شاعر لا يجد إلى التخلص منها سبيلا .

ومما قيل في صورة الخمر في حضرة الرشيد ما نظمه إبراهيم الموصلي, فقال[1]:(الوافر) :

إذا سُكِبتْ في الكأسِ قبل مِزاجها * * تَرى لونَها في جِلدة الكأس مُذْهَبَا

فصوّر الشاعر الخمرة وقد وصلت إلى مجالس الخلفاء, فهل هذا حقًّا؟

فالشاعر يتغنى بها بين مجالس الأسياد والشرفاء ويتفاخر بها في بيوت الملوك والأنجم , فإذا لم يجد من الشاربين من يجور عليها أخذها هو وانتهبها .

يصف الشاعر كأس الخمر الذي شغل الشعراء آنذاك , كانشغالهم بوصف المرأة.

ووصل العشق بين الشاعر والخمر إلى وصف حسي دقيق حتى أن الشاعر يصف الكأس وجلدتها ولونها , فالشاعر يجعل من كأس الخمرة فتاة جميلة لها أب وأم وزوج فهذا قمة الجمالية والروعة في تكوين أسرة متكاملة فكأنه يحاكي هذا الكأس كما يحاكي شخصاً أمامه فهو يجسد

---

[1] أبو الفرج الأصفهاني, الأغاني, 229/5.

صورة حية على كاس حسي ميت لا شعور لدية , كما تبلغ غاية الحسية في أن هذا الكأس من الخمر لا تشبه غيرها من وصيفاتها فلا تحمل أوصاف جيلها وخصائصهن فهي تشبه أصناف أخرى ارفع منزلة ومكانه .

إن هذه الكأس جاءت خارجه عن نواميسه الطبيعة وسنن الكون فهي لا تشبه أحدًا من أبويها, فهو يجسد ويحاكي الكأس بمعاني حسية مادية على نحو مفرط .. وتكتمل دائرة التصوير الحسي في بلاط الرشيد بثنائية تحضر مناصفة في الشعر حول الرشيد، وتلخصها الترسيمة التالية:

يقول أشجع السلمي في وصف الخمر[1] : (البسيط) :

ولقد طَعنتُ الليلَ في أعجازِه * * بالكأْسِ بين غَطارفٍ كالأَنْجُمِ

يَتَمايلُون على النعيم كأنّهُم * * قُضُبٌ من الهِنديّ لم تتثلّمِ

وسَعَى بها الظَّبيُ الغَرير يزيدُها * * طِيباً ويَغْشِمُها إذا لم تَغْشِمِ

[1] ديوان أشجع بن عمرو السلمي، ص 39، وانظر: أبا الفرج الأصفهاني, الأغاني, 281/18.

والليلُ مُنْتَقِبٌ بفَضْل رِدائِه * * قد كاد يَحْسَر عن أغرّ أرثَمِ

فإذا أدارَتْها الأكفُّ رأيتَها * * تَثْنِي الفصيحَ إلى لسان الأعجمِ

وعلى بَنانِ مُديرها عِقْيانَةٌ * * من سَكْبها وعلى فضول المِعْصَمِ

تَغْلي إذا ما الشِّعْريانِ تَلَظّيا * * صيفا وتَسْكُن في قلوع المِرْزَم

يصور الشاعر الليل بامرأة متنقبة بفضل ردائها الذي لامس لونه لون الليل الداكن , ويزيد من حال شاربها بحيث إذا قدمتها الأيدي فهي تحول حال شاربها فتجعل الفصيح أعجمياً, أغرق الشعر في الحسية في ذكر أوصاف الخمر ومشابهتها بالمرأة فهو يعبر عن واقع المحيط الذي يعيشه الشاعر .

ومن الأشعار التي تعكس حياة الرفاه الاجتماعي والنعيم في عصر الرشيد، ما صوره أشجع السلمي في حديثه عن رغد الحياة ورفاهيتها والقصور الشاهقة[1]: (البسيط) :

قَصْرٌ عليه تَحِيَّةٌ وسَـــــلامُ * * نَثَرَتْ عليه جَمالَها الأَيَّامُ

فيه اجْتَلَى الدُّنْيا الخليفَةُ والْتَقتْ ** للملك فيه ســلامَةٌ وسَلامُ

قَصْرٌ سُقــوفُ المُزْنِ دُونَ سُقُوفِه ** فيه لأعلام الهُدَى أعْلامُ

نَشَرت عليه الأَرضُ كُسوتَها التي ** نَسَجَ الرَّبيعُ وزخرَف الإرْهام

أدنَتْك مـــــن ظِلّ النَّبيّ وَصِيَّةٌ ** وقرابَةٌ وُشِجَتْ بها الأَرحامُ

برقَتْ سَماؤُك في العَدُوّ وأَمْطَرت ** هَاماً لها ظِلُّ السُّيوف غَمامُ

---

[1] ديوان أشجع بن عمرو السلمي، ص 134.

وإذا سُيوفُك صافَحتْ هامَ العِدَا ** طارت لهُنَّ عن الرؤوس الهامُ

تثني على أَيَّامِكَ الأَيَّامُ ** والشَّاهِـــــــدان الحِلُّ والإِحْرامُ

فيدمج الشاعر بين صورتين متنافرتين الأولى صورة النعيم والقصور التي وصل علوها عنان السماء ولامس سطحها الغيوم وهذا مما لا ينسجم مع ربطه بالصورة الثانية بوصله بنسل النبي الذي يذكره بالوعظ والدين , والنبي يدعو إلى الزهد وعدم التفاخر والتباهي ,ثم يستخدم الشاعر أسلوباً آخر من أساليب البلاغة أسلوب الترغيب والترهيب في تذكيره بالحلال والحرام , يتألق الشاعر في تملق الصور التشبيهية في قوله:

[وإذا سُيوفُك صافَحتْ هامَ العِدَا]

صور الشاعر السيف رجلاً يصافح آخر والسيوف تصافح جباه العدو دلالة على شجاعته وقوته. ويروى عن الرشيد أنه كان " أغزر الناس دموعًا في وقت الموعظة، وأشدهم عسفًا في وقت الغضب والغلظة". " وقال المنصور بن عمار: ما رأيت أغزر دمعًا عند الذكر من ثلاثة: الفضيل بن عياض، والرشيد، وآخر". إذ كان الرشيد مولعًا بالشعر ذا قلب دافئ وحنون يتأثر بمصائب الناس، ويصفح مرارًا عن غدر الكثيرين؛ فقد عفا عن مالك بن طوق عندما صوره: "**وما جزَعِي مِنْ أن أموتَ وإنني.. القصيدة** ، فبكى هارون الرشيد وقال: لقد سكت على همة، وتكلمت على حلم وحكمة، وقد عفوت لك عن الصبوة ووهبتك للصبية؛ فارجع إلى ولدك ولا تعاود، فقال: سمعًا وطاعة، وانصرف "[1].

[1] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، 109/4، والرواية في السيوطي، تاريخ الخلفاء، 249، ومالك بن طوق (259هـ) بن عتاب التغلبي، أبو كلثوم: أمير، وكان من الأشراف الفرسان الأجواد. ولي إمرة دمشق للمتوكل العباسي. وبنى بمساعدة الرشيد بلدة " الرحبة " التي على الفرات، وتعرف برحبة مالك، نسبة إليه. وكثر سكانها

وعفا الرشيد أيضًا عن أبي العتاهية وفك أسره بعد أن حبسه في بيت خمسة أشبار في مثلها , فصاح : الموت , أخرجوني , فقال بعد خروجه :

مَنْ لعبدٍ أذلّه مولاهُ * * ما له شافعٌ إليه سِواهُ

يَشْتكي ما به إليه ويخشاهُ ** ويرجوه مثل ما يخشاهُ

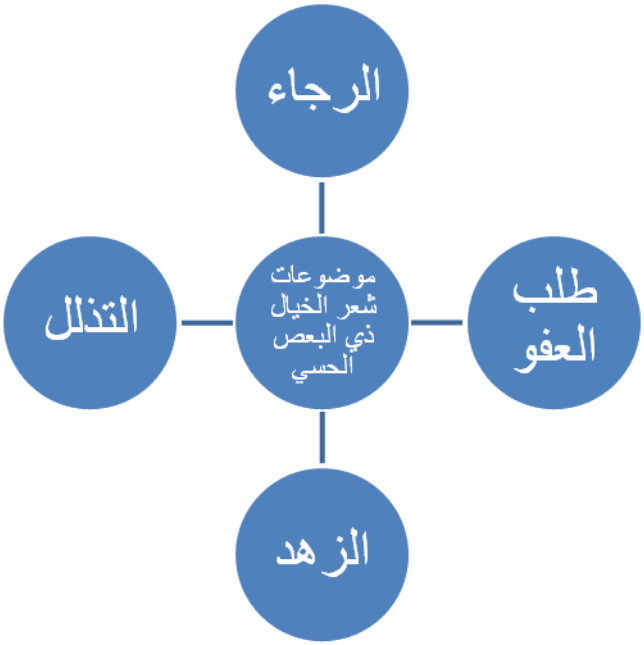

من الملاحظ أن الشعراء في العصر العباسي كثر عندهم استخدام الصورة المتضادة والمتناقضة في قوله (يشتكي – يرجوه) , واستخدام صورة الاستعطاف بأن الرشيد هو الشفيع ما له أحدٌ سواه .

في أيامه. وهي رحبة مالك بن طوق، تقع بين الرقة وبغداد، على شاطئ الفرات، تبعد عن بغداد مئة فرسخ، وعن الرقة نيفا وعشرين فرسخا. وكان فصيحا، له شعر. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، 34/3. خير الدين الزركلي، الأعلام، 265/5.

فلما قدم الرشيد الرقة لبس أبو العتاهية الصوف وتزهد وترك حضور المنادمة والقول في الغزل وأمر الرشيد بحبسه فحبس فكتب إليه من وقته:

أنا اليَومَ لي والحمدُ لله أَشْهُرُ * * يَرُوح عليّ الهَمُّ منكم ويَبْكُرُ

تَذَكَّرْ أمينَ الله حَقِّي وحُرْمتي * * وما كنتَ تُوليني لعلك تَذْكُرُ

لياليَ تُدْني منك بالقُرْبِ مجلسي * * ووجهُك من ماء البشابة يَقْطُرُ

فلما قرأ الرشيد الأبيات قال : قولوا له لا بأس عليه .

يظهر هارون الرشيد بصورة حسية جديدة هي:

(الأب الرحيم)

الذي لبى رجاء الشاعر وسمع نداءه , كما يستخدم ألفاظ الزمن والوقت ليذكره بالعلاقة القوية التي تربطه بمجلسة آنفاً ليحن قلبه إليه , كما استخدم الأفعال المضارعة (يروح – تذكر – تدني – توليني) دلالة على استمرارية الوعظ للخليفة فيطلب منه أن يتذكر حقه في الحلال والحرام , لم تسلم الأبيات من أسلوب المدح للوصول إلى المراد (**ووجهُك من ماء البشابة يَقْطُرُ**).

يختلف الأسلوب المدحي في هذا الموقف فلم يكن من أجل العطايا والمنح وإنما من اجل السماح والعفو , يشبه وجه الممدوح بماء البشاشة من شدة نقائه وصفائه فهو مبعث للخير, وهي من صور إجلال الملوك واستحضار هيبتهم وتمثيلها على نحو مغرق بالحسية فهو القيادي الحازم المغوار الذي نشر العدل بين رعيته.

وقوله أيضا :

يا رشيدَ الأمرِ أَرشِدني إلى * * وجهِ نُجْحِي لا عَدِمتَ الرَّشَدا

لا أراك اللهُ سُوءاً أبداً * * ما رأتْ مثلَك عينٌ أحدَا

نلاحظ من خلال الأبيات السابقة وصف الرشيد وهو يحمل كل معاني الرشد(أرشدني – الرشدا) فكيف لا؟ وهو يحمل صفة الرشد من اسمه الرشيد , فكونه من أهل الرشد والرشاد يطلب الشاعر منه أن يرشده إلى الطريق والوجه الصحيح .

سلك الشاعر طريق الاستحواذ على قلب الرشيد عندما شبهه بان العين ما رأت مثلك أبدا لما يحمله من صفات الرحمة والعفو والصفح والعدل لتكتمل الصورة الحسية في استخدامه أيضاً صورة الدعاء للممدوح للتفخيم من مكانته وإعلاء لشانه .

وعليه يمكن القول إن صورة الخليفة تتباين بين الخليفة العالم الأديب المتفقن بالشعر , يطرب ويغني , وبين الخليفة المتدين الورع الزاهد تقرباً إلى الله طالباً رضاه ورحمته متبتلا له .

ومدح الرشيد بصور حسية كما في قول الشاعر أشجع السلمي[1]: (2)

قَصْرٌ عليه تَحِيَّـــــــةٌ وسَلامُ ** ألقَتْ عليه جَمالَها الأيَّامُ

قَصُرتْ سُقوفُ المزن دُون سُقُوفِه ** فيه لأعلام الهُدَى أعلامُ

تُثنِي على أيَّامِـــــــــــك الأيَّامُ * * والشاهِدانِ الحِلُّ والإِحْرامُ

(1) أبو الفرج الأصفهاني , الأغاني , 221/18.

فيرسم الشاعر صورة الخليفة المتدين الزاهد الذي يرفع رايات الهدى وأعلامه ليجسد فيه صورة الدين ,كما يخاطبه الشاعر بلغة الدين لغة الحلال والحرام لتعكس الصورة الحسية الملموسة على التزامه بشريعة الله وسنة نبيه صل الله عليه وسلم .

ولما ولي الرشيد الخلافة غناه إبراهيم الموصلي فقال:

إذا ظُلَمُ البلادِ تَجَلَّلْتنا * * فهارونُ الإمامُ لها ضِياءُ

بهارونَ استقام العدلُ فينا * * وغاض الجَورْ وانفسح الرجاء

رأيتُ الناسَ قد سكنوا إليه * * كما سكنتْ إلى الحَرَم الظِّباءُ

تَبِعْتَ من الرسول سبيلَ حقٍّ * * فشأنُك في الأمور به اقتداءُ

جسدت الأبيات السابقة شخصية الرشيد, حيث شبهه بالضياء والنور , وهذا الضياء خرج عن المألوف حيث انه يستمد نوره من الرشيد وليس من مصدر الطاقة المعروف , وتكتمل جمالية الصورة في تجسيد صفات الرشيد وأنه شعلة عدل تزيل الظلم عن البلاد.

تتضح الصور الحسية في تشبيه صورة الهمام في ذوبان وانصهار الظلم لسكن الناس إلى الرشيد .. كالظباء التي تسكن الحرم لما في الحرم من سكينة ووقار وزيادة على ذلك أنها تتسع للجميع كعدل الرشيد , ومما زاد في عدله صفة حسية أخرى وهي الاقتداء بسيد البشرية نبي الأمة محمد صل الله عليه وسلم على طريق الحق .

ويمكن القول إنّ البيئة العباسية أيام الرشيد كانت بيئة نضرة، خصبة، كثيرة الخير، إذ كانت دولته "من أحسن الدول وأكثرها وقارًا ورونقًا وخيرًا، وأوسعها رقعة"[1]، وكان الرشيد أشدّ الملوك معرفة بأسرار رعيته وأكثرهم بها عناية، وكان محباً للمرح توّاقا للغناء والشعر ومجالس الطرب والأنس، فلا غرو أن تكشف هذه الظروف عن منابع الصورة الشعرية ومرتكزاتها، والتي استطاعت أن تنقل التاريخ حرفيًا؛ الصورة الشعرية التي تداني العقل، وتلك التي تعتمد المشاهدة والحسّ، فكانت الطبيعة مجالا خصبًا لمصادر الصورة الشعرية، فتطوّرت مع التطور الحضاري للمكان أيام الرشيد.. ونختم بالترسيمة الملخصة لسمات البعد الحسي في الصورة الشعرية في بلاط الرشيد:

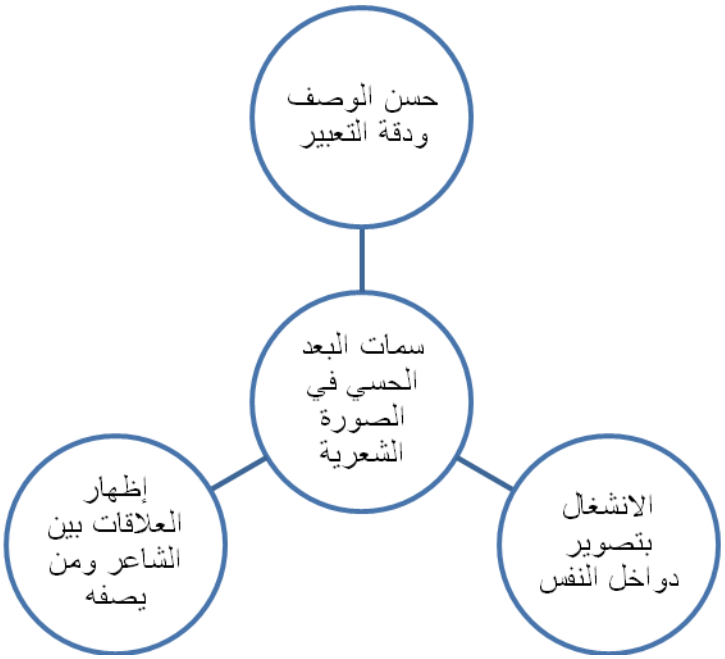

[1] ابن طباطبا العلوي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، عني بنشره: محمود توفيق الكتبي، المطبعة الرحمانية، مصر، ص 142.

الفصل الرابع

دراسة أسلُوبيّة فنّيّة لصورة هارون الرّشيد في قَصائد الشّعراء

أولا:

تحليل قصيدة أبي العتاهية

[خانَكَ الطَّرفُ الطَّمُوح]

ثانيًا:

تحليل قصيدة أبي نواس

[حَيِّ الدّيارَ إذِ الزّمانُ زُمانُ]

ثالثًا:

تحليل قصيدة علي بن الخليل

[يا خيرَ مَن وَخَدت بأرْحُلِه]

مدخل:

مع الأسلوبية منهج دراسة :

لقد نشأت الأسلوبية غير بعيدة عن المناهج الحديثة، وعن أم المناهج البنيوية، مع "فردينان دي سوسير، وتلميذه شارل بالي رائد البحث الأسلوبي المعاصر، وقد ركز" بالي "على الطابع العاطفي للغة وارتباطه بفكرتين هما:

1- القيمة والاختيار.

2- التلقي والتوصيل.

ورأى بالي أن ثمة احتكاك يصل الحياة الواقعية بأخرى عاطفية، وتتشكل أفكار القصيدة منبئة عنهما فتبدو موضوعية الظاهر مفعمة بالتيار العاطفي في الباطن [1] .

وانطلقت الأسلوبية بعدة تصورات مختلفة، وقد قام صلاح فضل في كتابه (علم الأسلوب) بتتبع مفهوم الأسلوب واتجاهات تشعبه في مجموعات تتداخل مع رؤيةِ ضرورةٍ لوجود مرسل إليه لاستقبال النص هو هاهنا **(هارون الرشيد)**، ومُرسل يتمثل في شاعر يدور الأسلوب حوله وهم هاهنا **(أبو العتاهية وأبو نواس وعلي بن خليل)**، وعلى الناقد أن يميز أساليب خواص كتابة النص الممثلة لملامح تعبيرية تميز المرسل والمتلقي الآني والمستقبلي.

---

[1] صلاح فضل، علم الأسلوب، مفهومه وإجراءاته، دار الشروق، ط(1) 1998م، بتصرف ص 189.

ستحلل الباحثة النصوص التي اختارتها وفق مبدأ التمازج والتداخل بين الأسلوب، وطرق تقديم النص، البلاغية والنفسية وتمثل الآخر، مهتمة بالوسائل المنهجية المشتركة بين أدوات تحليل النص..، وتعتمد الباحثة على الأدوات التالية في التحليل:

1- البحث في أسلوبية الشاعر اللغوية.

2- البحث في الصورة الفنية وتشكلها.

3- البحث في صورة هارون الرشيد وعدّها الصورة المركزية الشعاعية في النص.

4- تطبيق إجراءات التحليل الأسلوبي.

5- مقارنة تغيّر الأسلوب بين شاعر وآخر ممن يدرسهم التحليل.

أولا:

تحليل قصيدة أبي العتاهية [خانَكَ الطَّرفُ الطَّمُوح[1]]

الأسلوبيّة التّفكيكية وصّورة القَصيدة الوَعظيّة

[1] أبو العتاهية، ديوانه، ص218.

مناسبتها:

قال أبو العتاهية: كان الرشيد مما يعجبه غناء الملاحين في الزلالات إذا ركبها وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم فقال قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعرًا يغنون فيه فقيل له ليس أقدر على هذا من أبي العتاهية وهو في الحبس قال فوجه إليه الرشيد قل شعرًا حتى أسمعه منهم ولم يأمر بإطلاقي فغاظني ذلك فقلت والله لأقولنّ شعرًا يحزنه ولا يسر به فعملت شعرا ودفعته إلى من حفظه من الملاحين فلما ركب الحراقة سمعه وهو يقول : (مجزوء الرمل):

خانَكَ الطَّرفُ الطَّمُـوح* أيُّها القَلبُ الجَــمَوحْ**

لِدَوَاعِي الخَير والشَّــر * دُنُوٌّ ونُـــــــــزُوحْ**

هل لمَطلـــوبٍ بِذَنْـــبٍ * تَوبةٌ منهُ نَصُـــوحْ؟**

كيـــف إصــلاحُ قلـوبٍ * إنَّما هُنَّ قُـــــرُوحْ؟**

أحســـــنَ اللهُ بِنـا أنَّ * الخَــطَايَا لا تَفُـــوحْ!**

فإذا المَسْــتورُ مِنَّــا * بينَ ثَوبَيْه فَضُـــوحْ**

كمْ رأينا مِنْ عَزِيــزٍ * طُوَيتْ عَنْهُ الكُشُـــوحْ[1]**

[1] أي ذهب من كان حوله وتفرقوا.

صَاحَ مِنهُ بِرَحِيـــلٍ * صَائِحِ الدَّهرِ الصَّــدُوحْ**

مَوتُ بعضُ النَّـاسِ في ** الأرضِ على البَعضِ فُتُوحْ!

سَيَصِيرُ المَرءُ يَومًـــا * جَسَدًا ما فِيـــهِ رُوحْ**

بينَ عَينيّ كُل حَـــيٍّ * عُلمُ المَـوت يـــــلوحْ**

كُلُّـنا في غفلةٍ والـــ ***مَوتُ يَغـدُو ويَـــروحْ

لبَنِّي الدُّنيا من الدنــ * يا غَبُوقٌ[1] وصَـــــبُوحْ**

رُحْـنَ في الوشيَّ وأصْبَحْ **ن عَليهِنَّ المَسُـــوحْ

كـلُّ نَطَّـــاحٍ مِنَ الدَّهْــ **ر له يَومُ نَطُـــوحْ

نُحْ عَلى نَفسك يامِسْـ ***كِينُ إن كُنتَ تَـــنُــوحْ

لسْتَ بالبَاقِي وإنْ عَمَّـ ***رتَ مَا عَمَّـــرَ نُـــوْحْ

فلما سمع الرشيد جعل يبكي وينتحب وكان الرشيد من أغزر النّاس دموعًا في وقت الموعظة وأشدهم عسفًا في وقت الغضب والغلظة فلما رأى الفضل بن الربيع كثرة بكائه أومأ إلى الملاحين أن يسكتوا ...

---

[1] ليل وعِشاء.

تحليل النص:

إن تفكيك النصوص يكشف عن المفارقات التي تتمثّل في حضور الشيء وعدم حضوره. والتفكيك اصطلاح يُعنى به دراسة النص من الداخل، وتجزئته إلى بناه الأولية الأساسية، من أجل معرفة الكيفية التي تشكّل بها، وتبيان أصوله وتاريخيّته وطرق اختيار ألفاظه وترتيبها وتشكّل صورها .

وبالمعالجة الأسلوبية للنص, فإننا تعنى بعلاقات التكامل منذ المطلع وقول الشاعر:

خانَكَ الطَّرفُ الطَّمُـوح* أيُّها القَلبُ الجَــمَوحْ**

ونعنى بالمفارقة بين المفردات وجماليتها، وهذا قول الشاعر:

لِدَوَاعِي الخَير والشَّــر * دُنُوٌّ ونُـــــــــزُوحْ**

كما نعنى بالأصداء العاطفية التي تنمو داخل النص، فانظر قول الشاعر:

كيــف إصــلاحُ قلـوبٍ * إنَّما هُنَّ قُـــــرُوحْ؟**

وتتضمن دراسة مفردات النص بعدًا قائمًا يصل بالمتلقي إلى ابتكارٍ للمعاني نابعٍ من مناخ العبارة التي تنزل فيها مفردة أبي العتاهية هناك وقت ما قالها، ومن هنا فإن الدراسة الأسلوبية المرتبطة بصورة المشهد تعتمد على تبيان ما يلي:

1- التباين في صياغة المعنى وإن كان مباشرًا؛ لأننا ندرسه وقت إنشائه. وندرس أثره .

2- التراكيب التي تميز لغتنا العربية عن غيرها.

3- التفاعل بين النص وصاحبه.

وبالكشف عن النص نقسمه إلى أفكاره التي تلحظها الباحثة وهي:

1- المطلع وفكرة الخيانة.

2- توالي الخير والشر.

3- توبة المذنب.

4- الموت.

5- الغفلة.

6- الخلود.

وقد يظهر في القصيدة مجموعة دوال يمكن أن نجد مدلولات خاصة، كما في الجدول التالي:

الدال	المدلول المباشر	الامتداد الدلالي
القلب	**عضو الإنسان**	**هارون الرشيد**
المستور	**البسيط**	**المذنب**

إذ تظهر في النص بنية (ظاهرة) وأخرى باطنة يمكن تسميتها بالـ (لصيقة) ولها تركيب خاص بها، وأهم ما نبحث عنه في دلالاتها هو التحولات في النص والمعاني الأخرى التي تولدها.. كما يظهر في الترسيمة التالية:

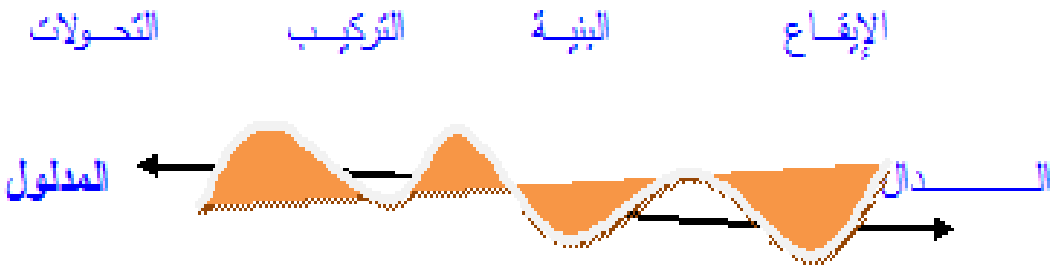

ولدراسة ذلك المستوى نقف عند مقطع الشاعر:

هل لمَطلـــوبٍ بِذَنْـــبٍ * تَوبةٌ منهُ نَصُـــوحْ؟**

كيـــف إصـلاحُ قلـوبٍ * إنَّما هُنَّ قُـــرُوحْ؟**

أحســـنَ اللهُ بِنـا أنَّ * الخَـطَايَا لا تَفُـــوحْ!**

فإذا المَسْـتورُ مِنَّـا * بينَ ثَوبَيْه فَضُـــوحْ**

فالشاعر .....

أما المستوى التركيبي الذي يتحدث عن تركيبة النص من عدة عناصر، تظهره نسيجًا ذا علاقات مختلفة من دلالات صرفية ونحوية وإيقاعية تصنع جملة النص التي يرتضيها الشاعر، وهي هنا جملة (الموعظة).

فهل وصلت جملة النص تلك لمتلقيها ؟

اقرا قول الشاعر:

مَوتُ بعضُ النَّـاسِ في ** الأرضِ على البَعضِ فُتُوحْ!

وأخيرًا فإن المستوى الأسلوبي يدرس مستويات عدّة تتعامل مع مقاييس يمكن حصرها بما يلي:

1- المقياس اللغوي.

2- المقياس البلاغي.

ويحدّهما المقياس الجمالي..

فتكون القصيدة جماليًّا مجموعة استفهامات بلاغية توصل للقارئ معاني مبتغاة، مثل قول الشاعر:

هل لمَطلــوبٍ بِذَنْــبٍ * تَوبةٌ منهُ نَصُــوحْ؟**

كيــف إصــلاحُ قلـوبٍ * إنَّما هُنَّ قُــرُوحْ؟**

وقوله:

كمْ رأينا مِنْ عَزِيــزٍ * طُوَيتْ عَنْهُ الكُشُــوحْ[1]**

فخرجت الاستفهامات عن معناها المباشر لتؤدي غرضًا بلاغيًّا هو الاستهجان والتعجب، من حال الغافل والذي يظن أن لا توبة له !

وتمتزج أسلوبيًّا الوظائف المرجعية والمفاجآت اللفظية معا في قانون: الاختيار والتوزيع والاتساع في اللفظ والمعنى وتقف الباحثة عند تفكيك كل لفظة من خلال بؤرة مركزية تشكل عمدة القول وتظنها الباحثة موجودة في قول الشاعر:

سَيَصِيرُ المَرءُ يَومًــا * جَسَدًا ما فِيــهِ رُوحْ**

[1] أي ذهب من كان حوله وتفرقوا.

تلك هي بظن الباحثة البؤرة التي تلتف حولها ألفاظ معاني القصيدة، وهي (حقيقة الموت)، فكيف قدم الشاعر تلك الحقيقة. إنه لم يقدمها مباشرة، بل مهد لها وضمنها ألفاظًا أخرى وقدمها متأخرة ولم يجعلها نهاية القصيدة بل تبعها بحقائق واقعية في حين كان تمهيده قبلها يعتمد على العقيدة والغيبيات، وتلك الحقائق هي في قوله:

كُلُّـنا في غفلةٍ والـــ ***مَوتُ يَغـدُو ويَـــروحْ

لبَنِّي الدُّنيا من الدنــ * يا غَبُوقٌ[2] وصَـــبُوحْ**

رُحْـنَ في الوشيَّ وأصْبَحْ **ن عَليهِنَّ المَسُـــوحْ

كـلُّ نَطَّـــاحٍ مِنَ الدَّهْــ **ر له يَومُ نَطُـــوحْ

نُحْ عَلى نَفسك يامِسْــ ***كِينُ إن كُنتَ تَـنُـوحْ

لسْتَ بالبَاقِي وإنْ عَمَّـ ***رتَ مَا عَمَّـــرَ نُـــوْحْ

إنها حقيقة الغفلة. وحقيقة قوة الله المتمثلة في قولة الدهر. وحقيقة عدم الخلود.

وتقديم الباحثة لقصيدة الشاعر مفككة يحتاج إلى مستوى معجمي يعرّفنا بالخطاب الشعري القابض على الدلالة والراصد إلى شبكة العلاقات المتداخلة التي تكوّن جمالياته من خلال البحث في :

1-الاختيار.

2-التوزيع.

3-التوسع.

---

[2] ليل وعِشاء.

والبحث هذه المرة سيفكك الألفاظ للقارئ، للبحث في الدلالة، فاقرأ ترتيب ألفاظه الطموح، والمستور، والرحيل، والموت، والروح، والغفلة، والدنيا، والدهر، والمسكين، ونوح عليه السلام..

إنها علاقات مرتّبة، تُخفيها إيماءات، تصنع سمة للنّص المفتوح الثريّ، وتدفع القارئ نحو فاعلية إحضار الغائب واستنطاق المسكوت عنه فما الذي سكت عنه وهو يرتب ألفاظه؟

اقرأ عباراته التي تشكلت من الألفاظ التي اختارها وهي:

- خانك الطرف الطموح.
- توبة نصوح.
- المستور بين ثوبيه.
- موت بعض الناس.
- كلنا في غفلة.
- الدنيا غبوق وصبوح.
- كل نطاح من الدهر.
- نح يا مسكين.
- لن تعمر كما عمر نوح عليه السلام.

وهكذا يتحقق للقصيدة شعريتها في وعي المتلقي، فهل سيتحقق لها ذلك لو لم يعرف المتلقي مناسبة القصيدة؟

إنه سؤال محيّر، ولكن الغالب يقول إن معرفة المتلقي للمناسبة أمر مهم.. ولكن على ألا يؤثر ذلك في توجيه التحليل.

إن المستوى المعجمي هو المسؤول عن الاختيار الفنّي وهنا نعرف تفكيكيًّا (موضع الرشيد) في القصيدة، وهو المخاطب، :

- فظهر أنه المسكين.
- وأنه الطامح في الخلود.
- وأنه اللاهي.
- وأنه الغافل.
- وأن عليه اليقظة مما هو فيه.

فالدوال المفككة لها وظيفتان:

- الأولى: استنطاق فضاء انص، وخلق فضاءاته الموحية.
- والثانية: تشكيل الصورة الفنية التي سنقف معه الآن.

إن الصورة المتشكلة من تلك الدوال تتزامن في أنساق حقولية تشعّ منها دلالات لاّنهائية، وتتشظّى في الآفاق والأبعاد والمستويات... وألفاظها هي العلامات التي ينفذ منها القارئ إلى الخطاب الشعري عبر مناطقه الأقوى مشاهدة، وقد تشكلت مع الصورة الفنية مشاهد هي:

المشهد الأول:

صورة الخيانة **[خانَكَ الطَّرفُ الطَّمُـوح]**

المشهد الثاني:

صورة الإصلاح **[كيــف إصــلاحُ قلـوبٍ *** إنَّما هُنَّ قُـــــرُوحْ؟]**

المشهد الثالث:

صورة الفوح [الخَــطَايَا لا تَفُــوحْ!]

المشهد الرابع:

صورة الطي [طُوَيتْ عَنْهُ الكُشُــوحْ]

المشهد الخامس:

صورة صائح الدهر [صَائِحِ الدَّهرِ الصَّــدُوحْ]

المشهد السادس (المشهد المركزي في القصيدة):

صورة الفتوح [مَوتُ بعضُ النَّـاسِ في ** الأرضِ على البَعضِ فُتُوحْ!]

المشهد السابع:

صورة المسوح [رُحْـنَ في الوشيَّ وأصْبَحْـ **ن عَليهِنَّ المَسُـــــوحْ]

المشهد الثامن:

صورة النطح [كـلُّ نَطَّـــاحٍ مِنَ الدَّهْــ **ـر له يَومُ نَطُـــوحْ]

وتنتمي هذه المشاهد والصور التي تتشكل فيها إلى الحق الإنساني؛ لأن القصيدة إنسانية الطابع ولا تحتمل دخول حقل آخر إلى حقولها، وتتوالى المشاهد تباعًا فمن مشهد الخيانة الذي يظنه صاحبه حقيقة، وهو لا يدري بأن خيانة تمارس ضده من أقرب أجزاء جسده وهو الطرف الذي يطمح لأن يأخذ العالم كله، إلى مشهد صورة إصلاح القلوب وإحسان الله تعالى في أن خطاياها لا تفوح، فمشهد طي ذكريات كل من كان قبلك فالدهر لا يتوقف عن الصدح وتحدي الناس، وصولا إلى المشهد المركزي وهي صورة دقيقة الطابع، وحسنة الموقع، ولها وقع قويّ... إنها قول أبي العتاهية:

مَوتُ بعضُ النَّـاسِ في ** الأرضِ على البَعضِ فُتُوحْ!

حقيقة جسدها الشاعر في صورة أخاذة، ولا تقف عند حدّ سماعها بل إنها مقصودة التوجيه لمن هم مثل هارون الرشيد، ويعيها الرشيد أكثر من غيره، لأنه يعلم أن هناك من ينتظر موته، ومن يكون موت الرشيد بالنسبة له فتحًا عليه مفيدًا لمصلحته كما كان موت من هو قبل الرشيد فتحًا للرشيد ومفيدًا لمصلحته (وتلك الأيام نداولها بين الناس) !

ثم تأتي صورة مشهد المسح ونطح الدهر للكل، وهي للتذكير، بأن لا قوة تساويه، ولا قوة تكافئه! والدهر قوي بقوة الله جل وعلا.

وهكذا فالعلامة اللغوية التي شكلت مشاهد الصور الفنية السابقة، تعدّ وحدة أساسية في بنية الخطاب، فمنها نحدد اختيار الشاعر للفظة دون أخرى، ومنها نقيس قدرة الشاعر في ترتيبه للألفاظ ونقدّر منها مقدار التوسع في الألفاظ التي قد انحرفت وشكلت صورًا فنية ومشاهد ذات تأثير.

وختامًا، فالقصيدة تحمل مجموعة إشارات وعلامات لغوية تشكّل بنية نصّ قابلة للتفكيك والتشكيل من جديد لكل حالة شبيه بحالة هارون الخليفة، ومن خلال أي سياق مشهدي فالقصيدة مشحونة بمجموعة من الدلالات السياقية التي تتفرّد بها، وتشكّل حقولها الدلالية بنى صغرى لبنية النص الكبرى (المضمون الإجمالي للنص أو كليته ووحدته).

فصوّر الشاعر شيئًا قريبًا من هارون الرشيد، يحسّه ويتعايش معه، ويمتلكه أو له علاقة به: إنه حال خليط بين المُلك والموت، فوصف الشاعر اللحظة الحرجة التي قد تنهي كل شيء.. ولم يمدح الشاعر الخليفة كما توقع، ولم يمدح ملكه، بل ذكّره بالموت، ومالت القصيدة إلى الحس المأساوي، وأعطت وصفًا حقيقيًّا لا مجاملة فيه، وأصبحت لوحة فنية صالحة للتذكير بنهاية الإنسان في كل زمان ومكان وهذا سرّ خلودها إلى اليوم فمات الشاعر ومات الرشيد وخَلُدَت القصيدة.

ثانيًا:

تحليل قصيدة أبي نواس [حَيِّ الدّيارَ: إذِ الزّمانُ زَمانُ[1]]

الأسلُوبيّة النّفسيّة وصورة القَصيدَة المَدحية

[1] أبو نواس، الديوان، ص234.

نص القصيدة : (البسيط) :

حَـــــيِّ الدّيارَ: إذِ الزّمانُ زَمانُ

وإذِ الشّباكُ لنا خوىً[1] ومَعانُ[2]

يا حَبَّذا سَفَوانُ[3] من مُتَرَبَّعٍ

ولَرُبَّما جَمَــعَ الـهَوَى سَفَوانُ

وإذا مَرَرْتَ على الدّيارِ مُسَلِّمًا

فلِغَيرِ دارِ أُمَيْمَة الـهِـــجْرانُ

إنّا نَسَبْنَا والمناسِبُ ظِنَّةٌ

حتى رُميتَ بِنَا وأنـــتَ حَصانُ

لمّا نَزَعْتُ عن الغَوَايَةِ والصَّـبا

وَخَدَتْ بيَ الشّـــدَنيّة[3] المِذْعانُ[4]

---

[1] خالية.
[2] ذات معاني.
[3] سريع طائر.

سَبْطٌ مَشَافِرُهـــا دَقيقٌ خَطْمُها

وكأنّ سائِـــــــرَ خَلْقِها بُنْيانُ

واحْتازَها لَوْنٌ جَرَى في جِلْدِها

يَقَقٌ[1] قَقـــــرْطاسِ الوَليدِ هِجانُ

***

وإلى أبي الأمناءِ هارونَ الذي

يَحْيا بِصَوْبِ سَمائـــــهِ الحيوانُ

مِلكٌ تصَوّرَ في القلوبِ مِثالُهُ

فكأنّهُ لم يَخْـــــــــلُ مِنْهُ مَكانُ

ما تنطَوي عَنهُ القلوبُ بفَجرَةٍ

إلاّ يُكَلّمُهُ بـــــــــها اللّحَظانُ

---

(3) ناقة منسوبة لحي باليمن.

(4) المطواعة سلسة القياد.

(1) أبيض ناصع.

فَيظَلّ لاسْتِنْبائِـــــــهِ وكأنّهُ

عيْنٌ على ما غَيَّـــــبَ الكِتْمانُ

هارونُ أُلِّفَــنَا ائْتلافَ مَوَدَّةٍ

ماتَـــــتْ لها الأحْقادُ والأضْغانُ

في كلّ عـــامٍ غَزْوَةٌ وَوِفَادَةٌ

تَنْبَتُّ بيـــــنَ نَواهُما الأقْـــرَانُ

حـجٌّ وغزْوٌ ماتَ بينَهما الكَرَى

باليَـــعْمَلاتِ شِعارُها الوَخَــدَانُ

يَرْمي بهِــنَّ نِياطَ كــلَّ تَنوفَةٍ

في اللهِ رَحَّالٌ بـــــــها ظَعَّـانُ

حتى إذا وَاجَهنَ إقبــالَ الصّفا

حَنّ الْحَـطيمُ وأطّـــــتِ الأركانُ

لأغَرَّ يَنْفَرجُ الدُّجَــى عن وَجْهِهِ

عَدْلُ السّــياسَة حُبُّهُ إيـــــمانُ

يَصْلى الهَجيرَ بِغَــرّةٍ مَهْدَيَةٍ

لوْ شاءَ صــانَ أديمَــها الأكنانُ

لكنّه في اللهِ مُبْتَــذِلٌ لـــها

إنّ التّـــــــقيّ مُسَدَّدٌ ومُعـانُ

أَلِفَتْ مُنادَمَةَ الدّمــاءِ سُيوفُهُ

ولَقَلَّما تَحْـــــــتازُها الأجْـفانُ

حتى الذي في الرّحْمِ لم يكُ صُورَةً

لِفؤادِهِ من خَوْفـــــــهِ خَفَقــانُ

حذرَ امرئٍ نُصرَتْ يداه على العِدى

كالدّهْرِ فيهِ شَـــــرَاسَةٌ ولَيانُ

مُتَبَرّجُ المَعْروفِ عَـــــريضُ النّدَى

حَصِرٌ بِلا منهُ فَـــــــمٌ ولِسانُ

للجُودِ مِنْ كِلتا يَدَيْهِ مُحرّكٌ

لا يَسْتَطيعُ بُلـــــوغَهُ الإنسْانُ

تحليل النص:

يكشف التحليل النفسي عن دوافع اللاوعي المتصل بأدبية القصيدة، من خلال الجوانب التحليلية للقصيدة. وتذهب الأسلوبية النفسية إلى أن الأسلوب قادر على إدراك كل ما يتضمنه فعل الكلام من أساليب أصلية تتوفر على عناصر أوجدتها طاقة خلاقة منبثقة من نفس مبدعة ومتفردة في الإلقاء، وقادرة على القول، ومتمكنة من التعبير وهنا ينصب جهد البحث الأسلوبي النفسي على تتبع التحولات اللغوية، التي أحدثها المبدع في خصوصيته وفرديته المتميزة انطلاقًا من دفقة شعورية يختص بها.

وتعتمد الأسلوبية النفسية على جوانب تعينها في التحليل هي:

- دراسة الانطباعية، والذات المبدعة.
- دراسة الانحرافات المشكلة للغة الصورة الشعرية.
- البحث في بنية النسق اللغوي وما تشكله تلك البنية من معان وتراكيب، لرصد ما يحمله النص من دلالات وإيحاءات.

ونبدأ من توزيع النص، إذ يمكن أن نوزع النص إلى مجموعة دوال هي:

- دالة المطلع.

وهي في قوله:

حَـــــيِّ الدّيارَ: إذِ الزّمانُ زَمانُ

وإذِ الشّباكُ لنا خوىً[1] ومَعانُ[2]

يا حَبَّذا سَفَوانُ[3] من مُتَرَبَّعٍ

ولَرُبَّما جَمَـــعَ الهَوَى سَفَوانُ

وإذا مَرَرْتَ على الدّيارِ مُسَلِّمًا

فلِغَيرِ دارِ أُمَيْمَة الهِـــجْرانُ

إنّا نَسَبْنَا والمناسِبُ ظِنَّةٌ

حتى رُميتَ بِنَا وأنـــتَ حَصانُ

لمّا نَزَعْتُ عن الغَوَايَةِ والصَّـبا

وَخَدَتْ بيَ الشّـــدَنيّة[3] المِذْعانُ[4]

سَبْطٌ مَشَافِرُهـــا دَقيقٌ خَطْمُها

---

[1] خالية.
[2] ذات معاني.
[3] سريع طائر.
[3] ناقة منسوبة لحي باليمن.
[4] المطواعة سلسة القياد.

وكأنّ سائِـــــــرَ خَلْقِها بُنْيانُ

واحْتازَها لَوْنٌ جَرَى في جِلْدِها

يَقَقٌ[5] قَقـــــرْطاسِ الوَليدِ هِجانُ

- دالة وصف الممدوح (فيما تبقى من القصيدة)

من قوله:

وإلى أبي الأمناءِ هارونَ الذي

يَحْيا بِصَوْبِ سَمائـــــهِ الحيوانُ

إلى قوله:

للجُودِ مِنْ كِلتا يَدَيْهِ مُحرّكٌ

لا يَسْتَطيعُ بُلـــوغَهُ الإنسْانُ

وسنبدأ بتحليل مفردات أبي نواس التي يختارها التي تكون مناسبة لحالته النفسية، من جهة، ومناسبة لجو النص من جهة أخرى.. فتتقارب الأسلوبية النفسية إلى جانب الأسلوبية البنيوية من خلال دراسة النسيج اللغوي الذي يشكل النص..

فهل تتشابه أو تتقاطع ألفاظ الشاعر التي شكلت الدالة الأولى مع تلك الألفاظ التي شكلت الدالة الثانية؟

---

[5] أبيض ناصع.

وذاك هو المعني بدراسة العلائق اللغوية في مستوياتها الإفرادية والتركيبية المشكلة لنسيجها النصّاني في تتابعها ومماثلتها، مهتمين بمقاربة الظواهر وما تولده من فروق تتولد في سياق الوقائع الأسلوبية ووظائفها في الخطاب الأدبي.

ينطلق الشاعر من دالته الأولى من التذكير بالماضي، والوقوف على التراث وكأن هارون من ذلك الجيل الذي خلد في ذاكرة العرب وله عندهم شأن!

وإن البحث الأسلوبي النفسي / البنيوي إذ يحلل البنى اللغوية المشكلة للقصيدة يدرس مدى تناسقها وتضافرها داخليًّا لتكوين كل شمولي متمثل في غرض النص الأسمى وهو (المدح والعطايا التي ينتظرها الشاعر من الممدوح).

وليس النص الأدبي نتاجًا بسيطًا من العناصر المكونة، بل هو بنية متكاملة تحكم العلاقات بين عناصرها قوانين خاصة بها، وتعتمد صفة كل عنصر من العناصر على بنية الكل ومنها يمكن عدّ البيت التالي مركز المقطع الأول:

إنّا نَسَبْنَا والمناسِبُ ظِنَّةٌ

حتى رُميتَ بِنَا وأنـــتَ حَصانُ

فقصد الشاعر إلى دمج الصورتين(صورة الممدوح الرشيد وصورة الأطلال) فنسيبه مناسب لقصيدته لأن يرمي للخليف ويمهد لمدحه، وأنت يا هاورن الرشيد تستحقه..

وكما يظهر من تآليف المقطع تبرز القوانين التي تحكم الأطلال كما قال بها الآمدي والجرجاني وأخيرًا حكمها المرزوقي في عمود الشعر[1].

وتأسيسًا على ما سبق، فإن دراسة قصيدة أبي نواس تنطلق من لغتها، وما تحدثه في تجاور مفرداتها وتراكيبها، كنسق لغوي غير معزول عن كل اعتبارات تاريخية أو نفسية فالقصيدة موجهة لهارون الرشيد ومدحه ظاهر في المقطع الثاني فما الذي أوجد المقطع الأول؟

إنها ملامح أصالة النص، في محاكاته للأسبقين بل نجد أن اهتمام أبي نواس ينصب على انسجامه مع نفسه، وتركيزه على مقاربة وحداته التي أسست لتناميه فيبرز جماليات مكوناته، انظر إلى عباراته:

- **حَـــــيِّ الدّيارَ.**
- **يا حَبَّذا سَفَوانُ من مُتَرَبَّعٍ.**
- **وإذا مَرَرْتَ على الدّيارِ مُسَلِّمًا.**
- **وكأنّ سائِـــــــــرَ خَلْقِها بُنْيانُ .**

إنه ثراء دلالات من خلال تناسق وانسجام أساليب: إنها ديار وأميمة وناقة وبنيان وكل ما حولك ينسجم انسجامًا مقصودًا لموضوع قادم هو مدح الخليفة.

فتركز أسلوبية أبي نواس حول :

---

[1] الآمدي: المُوازنة بين شعر أبي تمّام والبحتري، 18/1، وما بعدها، والمَرزُوقِيّ : شرح ديوان الحَمَاسَة، 8/1 وما بعدها، ويرى إحسان عباس: تاريخ النّقد الأدبي عند العرب، ص22 – 27، أن العرب تميل لمصطلحات البداوة وتميل للفظ القديم في شعرها .. ، ويرجّح حفني شرف أسبقية الآمدي للمرزوقي في إيجاد مصطلح "عمود الشّعر": النّقد الأدبي عند العرب، ص 343، وما بعدها.

- التناسق. وهذا ظاهر في تسلسله من الديار فأميمة فالناقة.
- الانسجام. وهذا علائقي الطابع ويُكتَسب من لغة الشاعر وما اختاره من ألفاظ، فتقرأ جمعًا في أبياته بين:
- **الدّيار والشّباك .**
- **ومُتَرَبَّع والهَوَى.**
- **والدّيارِ وأُمَيْمَة.**
- **ونَسَبْنَا والحَصان.**
- **والغَوَايَةِ والصَّبا.**
- **والشّـــدَنيّة والمِذْعان.**
- **ومَشَافِرهـــا وبُنْيان.**
- **وجِلْدِها ويَقَق .**

فالشاعر يهتم بالمتلقي ويسأل نفسه كيف سيتلقى نصه، وما دقته في اختيار الألفاظ وتلك الثنائيات إلا دليل على ذلك.. ويسعى الشاعر من خلال ما قاله إلى بلوغ درجة فنية راقية وعالية، تجعل قصيدته تقع في نفسه موقع الاستحسان والقبول أولا، فيتمتع بها، ويصغي إليها محمولا ومدللا ومن ثم يجعل متلقيه منجذبًا نحو سحرها البياني الظاهر وتلك الأسلوبية النفسية التي ندرسها عنده، وتكتمل دائرة التشكيل اللغوي بالتشكيل الصوري وقبل الدخول في تلك الدائرة ندرس نتائج تماثل كل لفظتين مما سبق من خلال البيت الذي احتواهما، فنعود لنضع اللفظتين واللفظة التي ختم بها الشاعر الدلالة فنقرأ:

اللفظتان المتناظرتان	الخاتمة الدالة
- الدّيار والشّباك . - ومُتَرَبَّع والهَوَى. - والدّيارِ وأُمَيْمَة. - ونَسَبْنَا والحَصان. - والغَوَايَةِ والصَّبا. - والشّـــدَنيّة والمِذْعان. - ومَشَافِرهـــا وبُنْيان. - وجِلْدِها ويَقَق .	- خوىً . - سَفَوانُ. - الهِـــجْرانُ. - رُميتَ بِنَا . - الغَوَايَةِ . - بُنْيانُ . - الوَليدِ .

إنها لغة :

- فنية.
- وراقية.
- وسامية.
- وتواصلية.
- وتبتعد عن النفعية المباشرة إلى التأثير الجمالي على الذي يسبق طلب المنفعة مباشرة من غرض مدح الشاعر للرشيد.

والآن مع المقطع الثاني الذي يقول يمدح فيه الشاعر الخليفة هارون الرشيد، فلقد تشكل الاهتمام بالأسلوبية النفسية / البنيوية على الفن المقدم به هذا الشعر، وفن الأسلوب واسع وعميق وممتد ولا يصل إلى حدّ.. فنحن أمام عدد من المستويات ندرس الأسلوب خلالها.. ونختار هنا:

- المستوى الموضوعي لقصيدة المدح.
- والمستوى المضموني لقصيدة المدح.
- المستوى الانطباعية لقصيدة المدح.

لأننا ندرس أسلوبية من نمط خاص؛ تقترب من الحالة النفسية للشاعر، وتحاول ملامسة الجوانب الإنسانية في الأعمال الأدبية، بعيدًا عن الفكرة السائدة في أن قصيدة المدح مرتبطة بالنفعية فقط!

وخير ما ندرس به تلك المستويات هو تشكل الصورة الشعرية، الذي يفرض وجود جانبين في القصيدة وهما :

- تصريحي وهو المعروف بغرض أبي نواس من المدح.
- وضمني يفهم استنتاجًا ويكون مختفيًا وراء لفظة هنا وهناك.

وتختار الباحثة مركزًا لصور أبي نواس في المقطع وهو قول الشاعر:

هارونُ أُلِّفَـــنَا ائتلافَ مَوَدَّةٍ

ماتَـــــــتْ لها الأحْقادُ والأضْغانُ

فيختصر الشاعر حكاية كبيرة تنبئ عن أحقاد كانت قبل مجيء الخليفة وقد انتهت بمجيئه وما لفظة (ماتت) إلا لفظة إيحائية قد درجها الشاعر من أجل التأثير بالمتلقي وإقناعه بأهمية الخليفة ودوره في إخماد الفتن، ثم من أجل تبرير مدحه إياه..

ثم تتضمن القصيدة افتراضات مسبقة يُمدَح لأجلها الممدوح.. ذكر الشاعر منها ما يلي:

- **له في كلّ عـــامٍ غَزْوَةٌ وَوِفَادَة.**
- **في اللهِ رَحَّالٌ.**
- **أغَرّ يَنْفَرجُ الدُّجَــى عن وَجْهِهِ.**
- **عَدْلُ السّــياسَة.**
- **يَصْلى الهَجيرَ بِغَــرّة .**
- **في اللهِ مُبْتَـــذِلٌ.**
- **تقيّ .**
- **مُسَدَّدٌ .**
- **مُعـانُ.**
- **أَلِفَتْ مُنادَمَةَ الدّمـاءِ سُيوفُهُ.**
- **يخافه حتى الذي في الرّحْمِ.**
- **حذر.**

- **نُصرَتْ يداه على العِدى.**
- **مُتَبَرّجُ المَعْروفِ.**
- **عَـــــريضُ النّدَى.**

وكل افتراضات سابقة تتضمن إجراءً مهمته تكمن في إبانة ما خفي من الجانب التلفظي, وتلك كانت الشطرة الثانية في بيت أبي نواس، فالشطرة الأولى فيها سمة الرشيد والشطرة الثانية فيها صورة المضمر من جلب الشارع لتلك السمة الظاهرة.. وهذا ما يسمى بمتضمنات القول : الافتراضية المسبقة وتلك المضمرة في بطن الشاعر. وهي كما يلي:

المعاني الظاهرة للمدوح	المعاني المقابلة الباطنة لكل معنى ظاهر
- **له في كلّ عـــامٍ غَزْوَةٌ وَوِفَادَة.** - **في اللهِ رَحَّالٌ.** - **أغَرّ يَنْفَرِجُ الدُّجَـى عن وَجْهِهِ.** - **عَدْلُ السّـياسَة.** - **يَصْلى الهَجيرَ بِغَـرّة .** - **في اللهِ مُبْتَـــذِلٌ.** - **تقيّ .**	- **تَنْبَتُّ بيـــــنَ نَواهُما الأقْـــرَانُ** - **حتى إذا وَاجَهنَ إقبـالَ الصّفا** **حَنّ الْحَـطيمُ وأطّـــــتِ الأركانُ** - **حُبُّهُ إيـــــمانُ** - **لَقَلَّما تَحْـــــــتازُها الأجْـفانُ**

- مُسَدَّدٌ . - مُعـانُ. - أَلِفَتْ مُنادَمَةَ الدّمـاءِ سُيوفُهُ. - يخافه حتى الذي في الرّحْمِ. - حذر. - نُصرَتْ يداه على العِدى. - مُتَبَرّجُ المَعْروفِ. عَـــــريضُ النّدَى.	- كالدّهْرِ فيهِ شَـــــرَاسَةٌ ولَيانُ - حَصِرٌ بِلا منهُ فَـــــــمٌ ولِسانُ

فجاءت المعاني المتتمة والمقابلة بصور مدحه أقل، وهذا يدل على الافتراض المسبق افتراض تواصلي، يتواصل به المتخاطبون أيام هارون الرشيد من خلال أدلة عن سيرته الحيايتة، وهي افتراضات مُعترَف بها وتؤسس لخلفية تواصلية أثناء عملية إلقاء القصيدة أمام جمهور من المتلقين.. , باعتبار قصيدة المدح ذات طبيعة إنسانية فيها عنصران دلاليان مسبوق ومخترع، ومن أمثلة ذلك أن المسبوق هو خوف الناس من هيبة الرشيد والمخترع خوف الوليد في رحم أمه منه.

فتلك صورة فنية مبالغ فيها ومن الصور الفنية المضمرة واللافتة صورة قوله:

حذرَ امرئٍ نُصرَتْ يداه على العِدى

كالدّهْرِ فيهِ شَـــــرَاسَةٌ ولَيانُ

وهي الصورة المركزية في الصور المضمرة والظاهرة.. فقد شبه حذره ونصرته على أعدائه بالدهر بين شراسته ولينه لبيان أنه لا يستقر على حال قد يحوله إلى ظالم من شدة بأسه بل إنه قد يلين إذا ما تطلب الأمر اللين، ويكون شرسًا إذا ما تطلب الأمر ذلك وهي صورة موفقة.

إننا أمام طاقة صنعها فعل الصورة ويكمن تأثيرها في المتلقي بالحِجاج الظاهر لمدح الرشيد، فصفاته تؤهله للمدح، ويتحقق ذلك التأثير، أي حمل المتلقي على الاعتراف بمتضمنات القول وبأحقية الرشيد للمدح، من خلال فرضية مفادها أن ثم علاقة بين الملفوظات الحِجاجية, والملفوظات الاستنتاجية فيعتمد الشاعر على حُجَج يقدمها أثناء عملية التصوير / التخاطب لتصل إلى المتلقي / المتكلم .

واستخدم أبو نواس نطين من أنماط الحجج هي:

- حجج منطقية.

- حجج شبه منطقية معتمدة على القياس.

ولم يظهر لدينا حجج مصطنعة، ولنستعيد ذلك نقرأ قوله في الحج والغزو:

في كلّ عـــامٍ غَزْوَةٌ وَوِفَادَةٌ

تَنْبَتُّ بيـــــنَ نَواهُما الأقْـــرَانُ

حـجٌّ وغزْوٌ ماتَ بينَـهما الكَرَى

باليَـــــعْمَلاتِ شِعارُها الوَخَـــدَانُ

يَرْمي بهِــنَّ نِياطَ كــلَّ تَنوفَةٍ

في اللهِ رَحَّالٌ بـــــــها ظَعَّـانُ

حتى إذا وَاجَهنَ إقبــالَ الصّفا

حَنّ الْحَـطيمُ وأطّـــــتِ الأركانُ

لأغَرَّ يَنْفَرِجُ الدُّجَــى عن وَجْهِهِ

عَدْلُ السّــياسَة حُبُّهُ إيـــــمانُ

وهي أطول صورة من صور الحجاج التي قدمها الشاعر (صورة منطقية لاستحقاق الرشيد للمدح وهي عادته في الغزو والحج، وصورة شبه منطقية لحنين الأركان إليه إذا ما ذهب إليها) ! وهي قول الشاعر:

حَنّ الْحَـطيمُ وأطّـــــتِ الأركانُ

ثم تأتي صور الحجاج قبل هذه الصورة وبعده لتصل إلى الغاية المرجوة من مدح الشاعر للمدوح وهي قول في البيت الأخير:

للجُودِ مِنْ كِلتا يَدَيْهِ مُحرِّكٌ

لا يَسْتَطيعُ بُلـــوغَهُ الإنسْانُ

فمهما حاول إنسان أن يصل إلى جود الخليفة فلن يصل، وهذا مؤشر لما سينتظره الشاعر من عطاياه.

ثالثًا:

تحليل قصيدة علي بن الخليل [يا خير من وخدت بأرحله]

الأسلُوبيّة اللُّغوية وصُورة الحَدث الدراميّ

المناسبة:

أخبرني علي بن سليمان الأخفش قال: حدثنا أحمد بن يحيى ثعلب قال: كان الرشيد قد أخذ صالح بن عبد القدوس وعلي بن الخليل في الزندقة وكان علي بن الخليل استأذن أبا نواس في الشعر فأنشده : (مجزوء البسيط)

يا خير من وخدت بأرحلِهْ * * نجبٌ تخبُّ بمهمةٍ جلس

تطوي السباسب في أزمتها * * طي التجار عمائم البرس

لما رأتك الشمس إذ طلعت * * كسفت بوجهك طلعة الشمس

خير البرية أنت كلهم * * فـــــي يومك الغادي وفي أمس

وكذاك لن تنفك خيرهم * * تمسي وتصبح فوق ما تمسي

لله ما هرون من ملك * * بـــــــر السريرة طاهر النفس

ملك عليه لربه نعمٌ * * تزداد جدتـــــــــــها على اللبس

تحكي خلافته ببهجتها * * أنق السرور صبيحـــة العرس

من عترةٍ طابت أرومتهم * * أهل العفاف ومنتهى القدس

نطقٍ إذا احتضرت مجالسهم * * وعن السفاهة والخنا خرس

إني إليك لجأت من هربٍ * * قد كان شرّدني ومن لبس

واخترت حكمك لا أجاوزه * * حتى أوسد في ثرى رمسي

لما استخرت الله في مهلٍ * * يممت نحوك رحلة العنس

كم قد قطعت إليك مدرعًا * * ليلاً بهيم اللــون كالنقس

إن هاجني من هاجسٍ جزعٌ * * كان التوكل عنده ترسي

ما ذاك إلا أنني رجل * * أصبو إلى بقـــر من الإنس

بقرٍ أوانس لا قرون لها * * نجل العيون نواعمٍ لعس

ردع العبير على ترائبها * * يقبلن بالترحيب والخلس

وأشاهد الفتيان بينهم * * صفراء عند المزج كالورس

للماء في حافاتها حببٌ * * نظم كرقم صحائف الفرس

والله يعلم في بقيته * * ما إن أضــعت إقامة الخمس

تحليل النص:

إن الأسلوبية والصورة يجمعهما التشكيل، كظاهرة لغوية فنية تسعى جاهدة إلى الوقوف على نسبية اختلاف تشكلهما بين شاعر إلى آخر، وبصورة مجملة فإن البحث الأسلوبي في الحدث الدراميّ يُعنى بالأمور التالية:

- السمات المتميزة في تكوين العمل الأدبي.
- تميز الشاعر وقيمه الفنية.
- ما يتجاوزه مجرد التشكيل إلى التشكيل بالحدث الدرامي.
- الجنس الدرامي الأدبي وتميز صوره الفنية.

وتركز الأسلوبية اللغوية / الدرامية بوصفها منهجًا نسقيًّا على القواعد الفنية التالية:

1- دراسة السياقات الخارجة عن النص.

2- مقاربة لغة النص.

3- أسلوب المبدع ودراسة إمكاناته اللغوية.

4- قراءة مستويات لغة المبدع المختلفة.

5- قراءة إفرازات أسلوبية المبدع لوظائف ومعانٍ ومدلولات ناتجة.

6- دراسة مستويات لغة المبدع حسب الموقف الذي ساهم في إنتاج النص.

ويعتمد المنهج الأسلوبي / اللغوية / الدرامي على سبر أغوار اللغة، وكشف مكنوناتها، من خلال الألفاظ، والتراكيب سواء من جانبها النحوي، أو الصوتي، أو الدلالي، سعيًا إلى الوقوف عند اللغة الأدبية المميزة للنص.

ونقف بداية مع اللغة التركيبية للنص، إذ يتكون هذا النص من مجموعة أفعال يمكن تتبعها كما يلي حسب ورودها في الشطرة اليمنى أو اليسرى للبيت:

وخدت * * تخبٌّ

تطوي * *

رأتك طلعت * * كسفت

تنفك * * تمسي وتصبح تمسي

تزداد تحكي * *

طابت * *

احتضرت * *

لجأت * * شرّدني

واخترت أجاوزه * * أوسد

استخرت * * يممت

قطعت * *

هاجني * *

*** * أصبو**

*** * يقبلن**

أشاهد * *

يعلم * *

وانطلاقًا من مدى اختيار الألفاظ وتراصها وعلاقة بعضها ببعض نجد الملاحظات التالية:

1- فاقت الأسماء عدد الأفعال في النص.

2- كان عدد الأفعال في الشطرة اليمنى/الصدر (18) فعلا أي بنسبة: 18÷29×100=62%، وفي الشطرة اليسرى/العجز (11) فعلا أي بنسبة: 11÷29×100=38% .

3- من الطبيعي زيادة أفعال الصدر؛ لأنه هو المكون للجملة والمخبر عنها.

4- عدد الأفعال الماضية في أفعال الصدر ساوى عدد الأفعال المضارعة (9) أفعال في كل منها.

5- عدد الأفعال الماضية في العجز (4) أفعال، وهو أقل من المضارعة بثلاثة أفعال.

6- ظهور الأفعال المضارعة بقوة في القصيدة، دلّ على أن الحدث الدرامي المنقول عن الشاعر حدث مستمر باستمرار عهد الخليفة وهو غير منقطع لأن الخليفة ما زال حيًّا، وقد قيلت القصيدة في عهده.

7- حوى بيت واحد على أفعال متشابهة الزمن وحوى العدد الأكبر من الأفعال وهو قوله:

تنفك * * تمسي وتصبح تمسي

والبيت هو قول الشاعر :

وكذاك لن تنفك خيرهم * * تمسي وتصبح فوق ما تمسي

والمقصود هو الممدوح الخليفة، والوصف للخير المبثوث من البرية كلهم، وما هو إلا صورة من خير الخليفة. وهي مبالغة ممدوحة؛ إذ صور الخير وقد عمّ صباح مساء وهو خير ظاهر ومعلوم... فانظر لذاك التشكيل الدرامي ولاحظ كيف يشكل الشاعر ما يرى ويحس تشكيلا بصريًّا دراميًّا أخاذًا.

ونقف مع محددات الأسلوب الدرامي في الجملة، فنقرأ جمل القصيدة، لنجدها كما يلي:

يا خير من وخدت بأرحلـه * * نجبٌ تخبُّ بمهمةٍ جلس / اسمية

تطوي السباسب في أزمتها/ فعلية * * طي التجار عمائم البرس /اسمية

لما رأتك الشمس إذ طلعت * * كسفت بوجهك طلعة الشمس / فعلية

خير البرية أنت كلـهم * * فـــــي يومك الغادي وفي أمس /اسمية

وكذاك لن تنفك خيرهم * * تمسي وتصبح فوق ما تمسي/ فعلية

لله ما هرون من ملك * * بـــــــر السريرة طاهر النفس/ اسمية

ملك عليه لربه نعمٌ * * تزداد جدتـــــــــــها على اللبس/ اسمية

تحكي خلافته ببهجتها * * أنق السرور صبيحـــة العرس/ فعلية

من عترةٍ طابت أرومتـهم * * أهل العفاف ومنتهى القدس/فعلية

نطقٍ إذا احتضرت مجالسهم * * وعن السفاهة والخنا خرس/اسمية

إني إليك لجأت من هربٍ * * قد كان شرّدني ومن لبس/فعلية

واخترت حكمك لا أجاوزه * * حتى أوسد في ثرى رمسي/فعلية

لما استخرت الله في مهلٍ * * يممت نحوك رحلة العنس/فعلية

كم قد قطعت إليك مدرعًا * * ليلاً بهيم اللــون كالنقس/فعلية

إن هاجني من هاجسٍ جزعٌ * * كان التوكل عنده ترسي/فعلية

ما ذاك إلا أنني رجل * * أصبو إلى بقـــر من الإنس/اسمية+فعلية

بقرٍ أوانس لا قرون لها * * نجل العيون نواعمٍ لعس/اسمية

ردع العبير على ترائبها * * يقبلن بالترحيب والخلس/اسمية+فعلية

وأشاهد الفتيان بينهم * * صفراء عند المزج كالورس/فعلية

للماء في حافاتها حببٌ * * نظم كرقم صحائف الفرس/اسمية

والله يعلم في بقيته * * ما إن أضــعت إقامة الخمس/فعلية

ونلاحظ بعد استعراض الجملة الشعرية المشكلة لدراما الحدث في صور القصيدة الأمور التالية:

1- تفوقت الجمل الفعلية على الجمل الاسمية بواقع (13) جملة أي بنسبة 13÷23×100= 56%، والجمل الاسمية (10)جملة أي بنسبة10÷23×100= 44%، وقد حوى بيتان على جمل ثنائية (اسمية+فعلية) معًا متقدمة الاسمية على الفعلية، في قوله:

ما ذاك إلا أنـني رجـل ** أصبو إلى بقـــر من الإنـس/اسمية+فعلية

وقولـه:

ردع العبير على ترائبـها * * يقبلن بالتـرحيب والخـلس/اسمية+فعلية

وجاء ذلك أثناء حديث الشاعر عن نفسه، في قوله:

ما ذاك إلا أنـني رجـل * * أصبو إلى بقـــر من الإنـس

بقرٍ أوانس لا قرون لـها * * نجل العيـون نواعمٍ لـعس

ردع العبير على ترائبـها * * يقبلن بالتـرحيب والخـلس

فوصف نفسه بحدث درامي متكامل الصورة؛ فهو رجل يحب الترحيب به كما تحب ذلك البقر الأوانس التي لا قرون لها...

2- جاءت الجمل الفعلية تتابعية أثناء وصف الشاعر لحدث هروبه ولجوئه إلى حمى الخليفة في قوله عن نفسه:

إني إليك لجأتُ من هربٍ * * قد كان شرّدني ومن لبس/فعلية

واخترتُ حكمكَ لا أجاوزهُ * * حتى أوسد في ثرى رمسي/فعلية

لما استخرتُ الله في مـهلٍ * * يممت نحوكَ رحلة العنس/فعلية

كم قد قطعتُ إليكَ مدرعًا * * ليلاً بهيم اللـون كالنـقس/فعلية

إن هاجني من هاجسٍ جزعٌ * * كان التوكل عندهُ ترسي/فعلية

وبذلك تفوقت ضمائر المتكلم بواقع (7ضمائر ظاهرة، وبنسبة: 7÷13×100=55%) و(ضمير متكلم واحد مضمر، وبنسبة1:÷13×100=7%) و(في المقطع ضميران للغائب، وبنسبة 2÷13×100=14%) و(ثلاثة ضمائر للمخاطب الخليفة هارون الرشيد، وبنسبة: 3÷13×100=24%)، ففاقت بذلك ضمائر المتكلم ظهورًا في القصيدة على حساب ضمائر الغائب والمخاطب؛ ذلك أنها تتناسب مع وصف حدث الشاعر نفسه.

3- وفي وصف الحدث الخاص بالخليفة هارون حضرت الجملة الاسمية، وهو قوله:

لله ما هرون من ملكٍ * * بـــــــرّ السّريرة طاهر النّفس/ اسمية

ملكٌ عليه لربّه نِعَمٌ * * تزداد جدّتـــــــــــــها على اللّبس/ اسمية

4- وحضر ضمير المخاطب للخليفة مرة واحدة في صورة تعدها الباحثة مركز الوصف في القصيدة وهي قول الشاعر:

لما رأتكَ الشّمس إذ طلعتْ * * كسفت بوجهكَ طلعة الشّمس / فعلية

وجاء وصف الخليفة بالضمير على أشكال نجملها في الجدول التالي:

نوع الضمير	شكله وعدده	نسبته
المخاطب	الكاف(كَ) 8	8÷18×100= 45%
المخاطب	(أنتَ) 1	1÷18×100=5 %

الغائب	(ـه) 6	=100×18÷6 %33
المستتر	تقديره (هو) 3	=100×18÷3 %17

ونلاحظ سيادة ضمير الكاف / للمخاطب هارون الرشيد على ما سواه، وعددها قريب من ضمائر المتكلم (7) ضمائر، وتلك حالة أسلوبية /لغوية قابلة للدرس من خلال المقارنة، إذ القصيدة مقسومة إلى طرفين (الممدوح طرف، والشاعر طرف آخر) وهما طرفان متساويان من حيث الحدث الدرامي لا من حيث القصدية التي من أجلها صنعت القصيدة، فلولا وجود الحدث الدرامي لما حضر ضمير المتكلم بقوة كما نرى.

كما يدلل الجدول على كما أن على المتلقي أن يعي أن الشمس المقصودة وضميرها كانت هي لهارون الرشيد، وأن معادلا موضوعيًّا للبقر يمكن عدّ الضمير العائد عليه لصالح الخليفة هارون الرشيد ولكن الباحثة لا ترجح هذا في العد الأسلوبي الإحصائي؛ لأن حكاية أخرى تنتظر دراسة الضمائر التي لا تعود مباشرة إلى الخليفة ولكنها تعود إليه بشكل غير مباشر.

وكم ضميرًا غائبًا يعود إلى غير هارون الرشيد؟ إنهما (ضميران = هم)، وهما يعودان إلى عترة هارون الرشيد الخيّرة.

وبرصد أسلوب الشاعر من خلال رصدنا لنقله للحدث فنحن نكون قد درسنا: الاختيار عنده، فطريقة التركيب، ثم سندرس الانزياح إن وجد، ونلاحظ هنا أن الانزياح المشكل للصورة جاء متواضعًا، بل جاءت صور أحداث الشاعر الدرامية مباشرة التصوير..

فعمد الشاعر إلى لغة متداولة إلا من وصف واحد فقط هو وصف البقر بقوله:

ما ذاك إلا أنني رجل * * أصبو إلى بقر من الإنس

بقرٍ أوانس لا قرون لها * * نجل العيون نواعمٍ لعس

ردع العبير على ترائبها * * يقبلن بالترحيب والخلس

وأشاهد الفتيان بينهم * * صفراء عند المزج كالورس

للماء في حافاتها حببٌ * * نظم كرقم صحائف الفرس

والله يعلم في بقيته * * ما إن أضعت إقامة الخمس

وقد جاء هذا الوصف في خاتمة القصيدة ليشير من جهة إلى إبداع يتمتع به الشاعر، ثم ليشير إلى مخزون جمعي رحب ينتقي منه الشاعر مفرداتٍ، ويتخيرها كي يصب فيها ما تجيش به نفسه من مشاعر وأحاسيس وانطباعات، وهنا يبدأ بحثنا عن كشف العلل والأسباب الكامنة وراء اختياره لتلك الصورة الدرامية وتشكيلها هنا بالذات، من مبدأي "الاختيار" و" التركيب" وهما

يمثلان خاصية من خصائص البحث الأسلوبي، وإننا هنا نبحث عن الدلالات المتعلقة بأسباب اختيار جملة بدلاً من جملة أخرى، وتفضيل تركيب عن تركيب سواه ولنقرأ معًا تلك الجمل هناك حيث البقر من الإنس ولم تعد من الحيوانات، ولا قرون لها، ونواعم ونجلة العيون، وترائبها ردعة في العبير وتقبل عليك بالترحيب، ومن حولها فتيان وهي "صفراء فاقع لونها – من الآية الكريمة في سورة البقرة " كأنها الورس المعطر الذهبي الجميل، فعن أية بقرة يتكلم الشاعر؟

إنها المعادل الموضوعي لشخص هارون الرشيد، ليلفت الانتباه من خلال الالتفات إلى صورة هارون المثالية التي لا تتكرر ولا يشبهها إلا هي ! وهي قول الشاعر في خاتمة القصيدة:

والله يعلم في بقيته * * ما إن أضـــعت إقامة الخمس

إننا أمام شعورين: فردي وجداني تمليه الدفقة الشعورية للإبداع، وآخر خارجي جماعي تمليه اجتماعية اللغة، وفنية تفرضها القواعد والأعراف والمعارف والطقوس المتداولة عند الشعراء والمتلقين، وقديمًا حكم شرّاح الشعر العربي وعلى رأسهم ابن جني والمرزوقي على لفظة دون أخرى أو عبارة أو جملة شعرية حكمهم من خلال تداولها ومعرفة الشعراء السابقين لها ..

وختامًا فيمكن أن نستنتج سمات صورة القصيدة ذات الأسلوب الدرامي بما يلي:

1- الإدراك الواضح لما تحمله من كلمات .

2- الفهم اللغوي الأخاذ.

3- الوضوح الذي يتحقق بحسن اختيار الكلمات ودقة تشكيلها.

4- الاستعانة بالمعادلات الموضوعية لتكون عناصر شارحة.

5- ترتبط الأحداث الدرامية بالقصيدة بمخيلة مقيدة.

الخاتمة

أخذ هارون الرشيد مكانته السياسية في تاريخ دولة بني العباس قبل تولّيه الخلافة، في الدور التاريخي الذي لعبه في الحفاظ على هيبة الدولة الإسلامية في ظلّ صراعاتها مع الروم قبل توليه الخلافة، مما عزّز النظر إلى شخص هارون الرشيد بوصفه القيادي الحازم، فكانت تلك إشارة البدء في لفت أنظار العباسيين إلى استحقاقه أمور الخلافة، إلى أن تقلّد الخلافة، فكان عهد هارون الرشيد أطول عهود خلفاء بني العباس وأزهاها؛ فقد كثر فيه الغزو، واتَّسَعَت الفتوحات.

بحثت هذه الأطروحة صورة الخليفة هارون الرشيد في عيون شعراء عصره، وكشفت عن شخصيته، وما اجتمع فيها من متناقضات لدى كوكبةٌ من الشعراء الذين لازموه، وقالوا فيه، وصوروا في حضرته، فأبدعوا في أشعارهم، وأجادوا في وصفه، وقد خلصت الأطروحة إلى النتائج الآتية:

- شكّلت شخصية الرشيد مدار جدل المؤرخين على مدار عقود طويلة خبّروا من خلالها عن مشكِّلات وعيهم بشخص الرشيد التي انحصرت في صورتين متنافرتين؛ مثلت إحداهما صورة الرشيد القائد البطل والفارس المسلم ذي الأمجاد العظيمة, وعلى الوجه المقابل تبرز صورة لهوه ومجونه طارقًا أبواب اللذة في إقباله على الخمر والغناء والجواري، وهذا التشتيت في صورة الرشيد بين الرشد والحزم في أمور قيادة الدولة، وبين اللهو والمجون لدى المؤرخين ناتج من تغليب صورة دون أخرى لصالح فئة في عصر غلبت عليه المطامع والفتن.

- تميزت الدولة العباسية في عهد الرشيد باتّساع النفوذ السياسي؛ لحكمة الرشيد في إدارته المناطق الحدودية وتوسيع علاقاته على الصعيد الخارجين، بإنشاء الثغور، وتحصين دولته، وما عُرف عنه من حزم وحنكة في الأمور الحربية، وانتصاراته التي تغنّى بها الشعراء.

- كان للرشيد دورٌ تاريخيٌّ بارزٌ في رفع المكانة الأدبية للبيئة العباسية في عصره، وعُنِي بمجالس الأدباء والعلماء، فكان له ديوان خاص به، وحضور بارز في تنشيط الحركة الفكرية والعلمية في عصره؛ إذ كانت له ثقافة واسعة بكلّ مفردات الأدب وفروعه، ما أدّى إلى نهضة فكرية حقيقية في عصره، وسيادة اللغة العربية والعقيدة الإسلامية على جميع الملل، وازدهرت صناعة الورق واتّسعت حركات التأليف وتطوّرت الحياة العلميّة بتطوّر البحث العلمي والاعتماد على الاستقصاء العقلي.

- رصد الشعراء المعاني الإنسانية في صورة هارون الرشيد في زهده وتقواه، وعفوه وتسامحه، وبذله وعطائه، وأنسه وغنائه، وطربه. وسجّلوا المعاني القيمية للرشيد ممثلة بصورة القائد البطل والمحارب المحنّك في موقعة القسطنطينية، ومعركة هرقلة، وموقعة الصفصاف.

- كشفت الرسالة عن ملامح صورة الرشيد في عيون شعراء عصره، وذلك من خلال البعدين التاريخي والنفسي، وما للصورة من أهمية بما تحدثه في المعنى من تأثير، وفي الطريقة التي تفرض بها على المتلقي نوعًا من الانتباه للمعنى الذي تعرضه، وتجعله يتفاعل مع ذلك المعنى. فعلى المستوى التاريخي تزامنت الأشعار مع الأحداث العظمى في عهد الرشيد، أما على المستوى النفسي، فالأبعاد النفسيّة التي

أحاط بها خيال الشعراء حول الخليفة تباينت بين الحكمة والعفّة، وبين العظة والإرشاد، وبين اللهو والمجون ما لا يُجمع على ثباتُها أحد لتعدّد الروايات في ذلك.

- اتّصل أسلوب التجريد في الأشعار التي قيلت في مدح الرشيد اتّصالا وثيقًا ببعض الظواهر الأسلوبيّة على المستوى التركيبي في تشكيل دلالة النص، كما كشفت الأطروحة، من خلال تفاعل عناصر الاتّصال المختلفة مع بعضها البعض، ومشاركة المتلقي المبدع في عمليّة الإبداع. لذا فإنّ قيمة التجريد لا تتمثل كما حدّدها البلاغيون القدماء في المبالغة في كمال الصفة أو التوسّع في الكلام، بل تمتد لتشمل إمتاع المتلقي وجذب انتباهه، بما في ذلك من تصوير وتخييل وتلوين في الصياغة.
- أمّا على المستوى الحسي بعيدًا عن التجريد، فما شاع في البيئة العباسية أيام الرشيد من ترف وبذخ وشغف بالغناء، وفّر مجالا خصبًا لمصادر الصورة الشعرية عند الشعراء في ذلك العصر، إذ تفاعلت الصورة الشعرية وتطوّرت بتطور المكان، بما في ذلك في الوقوف عند المظاهر الحسية من عالم المرأة، وما فيها من إيماءات حسّية، فالصورة الشعرية جاءت محفوفة بالعوارض المادية من دور مزخرفة وفرش وأدوات زينة ومطاعم ومشارب في جو من الترف في الملبس والثياب والمأكل، واهتمام بالغناء والمغنين، واقتناء الجواري والإماء اللواتي أشعْنَ كثيرًا من ضروب الرّقة والظّرْف في المجتمع آنذاك.
- خلصت الأطروحة من خلال تحليل الشعر إلى أن الشعر ديوان العرب وأنه المرآة التي انعكست على حياة العباسيين.. وأن أحد رجاله وفحوله الكبار هم الذين كانوا حول بلاط الخلفاء ومنهم أبو العتاهية وأبو نواس وعلي بن الخليل.

- كما خلصت الأطروحة إلى أن الشعر – بظن الباحثة – هو النقلة الواعية في عالم الأدب، فليس هو إلا فن متميز، له خصائصه وأسلوبه، وله أبعاده ومراميه، وله إطاره ودوره في الحياة في مختلف جوانبها وكافة نواحيها.

- و أن خلاصة الأقوال في شعرائنا (الذين مدحوا الرشيد أو وعظوه) أن الباحثة تتفق مؤيدة أرجح النواقل فتقول أن مدحهم رغبة في عطائه وكان بعضهم يبالغ في المدح، وأن وعظهم امتزج بين راغب في الوعظ من أجل الوعظ أو مستشفع عنده لمشكلة يريد حلها.

المصادر والمراجع

المصادر: العربية: الكتب:

الأبشيهي، شهاب الدين محمد، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1986م.

ابن الأثير، ضياء الدين نصر بن محمد: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2010م.

الأصفهاني، أبو الفرج ، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، ط2.

الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى (ت:370هـ)، المُوازنة بين شعر أبي تمّام والبحتري، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط(2)، 1972م.

البطليوسي، ابن السيد: المثلث، تحقيق ودراسة: صلاح مهدي علي الفرطوسي، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، سلسلة كتب التراث (111) ، دار الرشيد للنشر، 1981م.

التوحيدي، أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزين، القاهرة، لجنة التأليف، 1944م.

التهانوي، محمد: كشاف اصطلاحات الفنون، دار الرسالة، بيروت، 1988م.

الثعالبي، أبو منصور محمد بن إسماعيل، يتيمة الدهر، مكتبة الصاوي، القاهرة، 1934م.

جابر بن حيان: حدود الأشياء، تحقيق: عبد الأمير الأعسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1989م.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: الحيوان، دار ابن رشد، بيروت، 1976م.

الجرجاني: دلائل الإعجاز، دار الرواق، بيروت، 1999م.

الجهشياري، محمد بن عبدوس، الوزراء والكتّاب، قدم له: حسن الزين، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، بيروت، 1988م.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (597هـ، 1200م)، المنتظم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.

أبو حامد , عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين , الفلك الدائر على المثل السائر , تحقيق: أحمد الحوفي , وبدوي طبانة, دار النهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع , القاهرة .

الحصري، إبراهيم علي، زهر الآداب، تحقيق زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، 1972.

الخزاعي، أبو الشيص ، ديوان دعبل بن علي، شرح: حسن محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994م.

الخطيب البغدادي، أحمد بن علي أبو بكر، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن خلدون: المقدمة، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1967م.

ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

الخوارزمي: الحدود الفلسفية للخوارزمي، تحقيق: عبد الأمير الأعسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1989م.

الدمشقي, عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني, البلاغة العربية, دار القلم، دمشق، 1416 هـ - 1996 م.

الدينوري, أبو بكر أحمد بن مروان, المجالسة وجواهر العلم, تحقيق:أبو عبيدة مشهور بن حسن, جمعية التربية الإسلامية , البحرين , 1419هـ.

ديوان هارون الرشيد، جمع وتحقيق وشرح: سعدي ضنّاوي، دار صادر، بيروت، 1998م.

الذهبي، شمس الدين، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، دار الكتاب العربي، بيروت، 1987م.

ـــــــــــــــ، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط3، 1985م.

ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، مطبوعات الجيل، بيروت، ط(4)، 1972م.

الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت 2002م.

الزبيدي, محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس, مجموعة من المحققين, دار الهداية , مصر.

السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1952م.

ـــــــــــــــــــ، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب، مصر، ط1، 1967م.

ابن سينا: الحدود، تحقيق: عبد الأمير الأعسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1989م.

الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى (335هـ – 946م) أخبار الشعراء المحدثين، تحقيق ج، هيورث، ط2، دار المسيرة، بيروت، 1979م.

ابن طباطبا ، محمد بن علي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، عني بنشره: محمود توفيق الكتبي، المطبعة الرحمانية، مصر.

ـــــــــــــــــــــــ: عيار الشعر، شرح وتحقيق: عباس عبد الساتر، مراجعة : نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط(1)، 1982م.

الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1407م.

أبو العتاهية (إسماعيل بن القاسم)، ديوانه، قدم له وشرحه: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، 1995م.

ابن عربي: الفتوحات المكية، دار المكتبة، القاهرة، 1984م.

العسكري، أبو هلال: الصناعتين، دار الثقافة العربية، بيروت، تحقيق: محمد الصاحب، 2007م.

ابن عساكر, محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل, مختصر تاريخ دمشق , تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد مراد، الحميد ، محمد مطيع, دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق, الطبعة الأولى، 1402 هـ – 1984م.

العصامي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك، صمت النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمود معوض، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط1 ، 1998م.

العكري الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، 1406هـ.

ابن العمراني، محمد بن علي، الإنباء في تاريخ الخلفاء ، محمد بن علي، تحقيق: قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2001م.

الغزالي: الحدود للغزالي، تحقيق: عبد الأمير الأعسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1989م .

ابن قتيبة، عبد الله الدينوري،الإمامة والسياسة، اعتنى بتصحيحه: محمد محمود الرافعي، مطبعة النيل، 1904م.

قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق: محمد المصعبي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م.

القيرواني، ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1981م.

ابن كثير، البداية والنهاية، حققه ودقق أصوله: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1988م.

الكندي: الحدود والرسوم للكندي، تحقيق: عبد الكريم الأعسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1989م.

مروان بن أبي حفصة، شعره، جمع وتحقيق، حسين عطوان، دار المعارف، القاهرة، ط3.

المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران، معجم الشعراء، تحقيق: فاروق اسليم، دار صادر، بيروت، ط(1)، 2005م.

المسعودي، أبو الحسن بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به وراجعه: كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2005م.

ابن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري: لسان العرب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط (1)، 1990م.

أبو نواس (الحسن بن هانئ)، الديوان، شرح وتحقيق وتقديم: علي العسيلي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1997م.

الهاشمي , أحمد بن إبراهيم , جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب , تحقيق: لجنة من الجامعيين , مؤسسة المعارف، بيروت.

ـــــــــــــــــــــــ, جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع, تدقيق: يوسف الصميلي, المكتبة العصرية، بيروت.

اليافعي، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط(1)، 1417 هـ - 1997 م.

المراجع:

الكتب:

الأتليدي، محمد دياب، إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1990م.

أبو إصبع، صالح، الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط(1)، 1979م.

البشير المجذوب، الظرف بالعراق في العصر العباسي فيما بين القرنين الثاني والرابع للهجرة، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1992م.

الجومرد، عبد الجبار، هارون الرشيد، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1999م.

الجندي، عيد عبد السميع، بلاغة التجريد في الشعر الجاهلي، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دمشق 2009م.

الخازن، وليم، الحضارة العباسية، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1984م.

خفاجي، محمد عبد المنعم، الحياة الأدبية في العصر العباسي، دار العالم العربي، القاهرة، 2011م.

الخطيب، عماد علي، في الأدب الحديث ونقده، دار المسيرة، عمان، 2006م.

خليل، أحمد خليل، مضمون الأسطورة في الفكر العربي، دار الطليعة، بيروت، 1973م.

الداية ، فايز: جماليات الأسلوب (الصورة الشعرية في الأدب العربي)، دار الفكر، دمشق، 1990م.

الدوري، عبد العزيز، العصر العباسي الأول، منشورات دار المعلمين العالية، بغداد، ط3.

الرباعي، عبد القادر، الصورة الشعرية في النقد الشعري " دراسة في النظرية والتطبيق" ، مكتبة الكتاني، إربد، ط(2)، 1995م.

زيدان، جورجي، تاريخ آداب اللغة العربية، دار مكتبة الحياة، بيروت، المجلد الأول، ط2، 1978م.

سلوم ، داود، النقد الأدبي، دار البلاد، القاهرة، ط(2)، 1987م.

الشايب ، أحمد، أصول النقد الأدبي، دار الفرقان، بيروت، 1998م.

شرف، شرف، النّقد الأدبي عند العرب، دار الرضا، القاهرة، 1986م.

شكري ، غالي، شعرنا الحديث إلى أين؟، دارالآفاق الجديدة، بيروت، ط(2)، 1978م.

شوقي أبو خليل، هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، دار الفكر، دمشق، 1977م.

شيخو, رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب, مجاني الأدب في حدائق العرب, مطبعة اليسوعيين, بيروت.

الصائغ عبد الإله، الصورة الفنية معيارًا نقديًّا، دار التراث، بغداد، 1989م.

ضيف، شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة.

طه، هند حسين، النظرية النقدية عند العرب(حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1981م.

العبادي، أحمد مختار، في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت، 1972م.

عباس، إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق، 2006م.

عبد التواب، صلاح الدين، الصورة الأدبية في القرآن الكريم، الشركة المصرية العالمية للنشر، 2005م.

عبد الله، محمد حسن، الصورة والبناء الشعري، دار المعارف، القاهرة، 1981م.

عبد الغفار، حسن، هارون الرشيد(الخليفة المفترى عليه)، مكتبة النافذة، مصر، 2010م.

عصفور ، جابر، الصورة الشعرية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط(3) 1992م.

أبو علي, محمد بركات حمدي, فصول في البلاغة, دار الفكر للنشر والتوزيع , عمان.

عيسى، أحمد, تاريخ البيمارستانات في الإسلام, دار الرائد العربي, بيروت, الطبعة الثانية , 1401-1981م.

غريب، روز، تمهيد في النقد الحديث، مطبعة دار غندورة، بيروت، ط(1)، 1971م.

فضل، صلاح، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1985م.

فضل، صلاح، علم الأسلوب، مفهومه وإجراءاته، دار الشروق، ط(1) 1998م.

فوزي، فاروق عمر فوزي، الخليفة المجاهد هارون الرشيد، دار الشؤون الثقافية العامّة، بغداد، 1989م.

قاسم ، محمود، الخيال في مذهب محيي الدين بن عربي، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة 1969م.

قنيتو، عبد الرحمن إبراهيم، خلاصة الذهب المسبوك، مختصر من سير الملوك، تصحيح: مكي السيد جاسم، مكتبة المثنى، بغداد.

مخلوف، عبد العزيز إبراهيم، عمود الشعر العربي في النقد الأدبي، دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1968م.

المَرزُوقِيّ، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن، شرح ديوان الحَمَاسَة، نشره أحمد أمين، وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، 1967م.

مهنّا، عبد الأمير، الطرب والظرف والنشيد في مجالس هارون الرشيد، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1990م.

مهنّا، علي، طرائف الخلفاء والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م.

ناصف، مصطفى، الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، طبعة 1989م.

أبو النصر، محمد عبد العظيم أبو النصر، الدولة العباسية: التاريخ السياسي والحضاري، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، 2009م.

هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1977م.

اليافي ، نعيم، تطور الصورة الشعرية في الشعر العربي الحديث، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1983م.

ـــــــــــ: الصورة في القصيدة العربية المعاصرة، مجلة "الموقف الأدبي"، العدد 256/255. دمشق، 1992م.

ـــــــــــ: مقدمة لدراسة الصورة الشعرية، وزارة الثقافة، دمشق، 1982م.

الكتب المترجمة:

اندرية كلو, هارون الرشيد ولعبة الأمم , ترجمة: صادق عبد المطلب عزيز الموسوي, المؤسسة العربية للدراسات والنشر, بيروت , 2005م.

الحازن، وليم, الحضارة العباسية ، ورينهات بيتر آن دوزي, تكملة المعاجم العربية, نقله إلى العربية ج1-8 : محمد سليم النعيمي ج9-10: جمال الخياط, وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية, ط(1), 1979-2000م.

الرسائل العلمية:

عبكل، نوح أحمد، المصطلح النقدي والبلاغي عند الآمدي في كتابه الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري(رسالة ماجستير)، عمادة الدراسات العليا، جامعة مؤتة، مؤتة، 2006م.

الدوريات:

خليل، ياسين عايش ، هارون الرشيد في أنظار شعراء عصره، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد32، عدد5، 2001م.

الشتيوي، صالح علي ، صورة هارون الرشيد الجادة في شعر العصر العباسي الأول، دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد 29، عدد 3، 2002م.

الملحم، محمد بن ناصر، العلاقات السياسية بين الدولة العباسية الدولة البيزنطية في عهد الخليفة هارون الرشيد، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية، مجلد 12، عدد 20، 2000م.

غير العربية:

J. MiddlentonMurry: The Problem of style, Oxford Univ. Press. London, 1930

والحمد لله رب العالمين